

الجامع المفيد

المبني على

بيان تحقيق التوحيد

الجزء الثالث

تأليف

علي بن عبدالله الفهد الصقعبي

الناشر

مكتبة دار العليان

القصيم - بريدة



○ بسم الله الرحمن الرحيم ○

الحمد لله وحده

○ بيان ما يحتوى عليه الجزء الثالث ○

من كتاب الجامع المفيد

١ – فأول ذلك بسم الله الرحمن الرحيم قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ الآية .
من كتاب « **اقتضاء الصراط المستقيم** » .

٢ – ويليه كتاب « **مفصّل الاعتقاد** » .
الجميع تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

٣ – ويليه جذوة مباركة لخصتها من « **الإغاثة** » .
تأليف : شمس الدين بن القيم رحمه الله .

٤ – ويليه « **البدع والنهي عنها** » .
تأليف : ابن وضاح رحمه الله .

٥ – ويليه « **العقيدة الواسطية** » .
تأليف : العالم الرباني شيخ الإسلام أحمد بن تيمية قدس الله روحه .

٦ – ويليه « قول إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رضي الله عنه: هذه مذاهب أهل العلم والأثر وأهل السنة » إلخ .

٧ – ويليه جذوة مباركة مما أفاده زين الدين الإمام ابن رجب فيما يتعلق فى حديث عائشة رضي الله عنها « **من أحدث** » إلخ ولمسلم: « **من عمل**

عملاً » إلخ وحديث العرباض بن سارية إلخ .
من كتاب « **جامع العلوم والحكم** » .

٨ – ويليه شرح حديث : « **بدأ الإسلام غريباً** » إلخ .
لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية قدس الله روحه .

٩ – ويليه « **أربع القواعد** » .
لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قدس الله روحه .

١٠ – ويليه « **كشف الشبهات** » .
لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قدس الله روحه .

١١ – ويليه « **ثلاثة الأصول وأدلتها** » .
لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قدس الله روحه .

١٢ – ويليه « **شروط الصلاة وأدلتها** » لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قدس الله روحه .

١٣ – ويليه « **كمال الشريعة الإسلامية وشمولها لكل ما يحتاجه البشر** » .
تأليف : العالم العلامة الرئيس العام للإشراف الديني بالمسجد الحرام الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد شكر الله سعيه وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

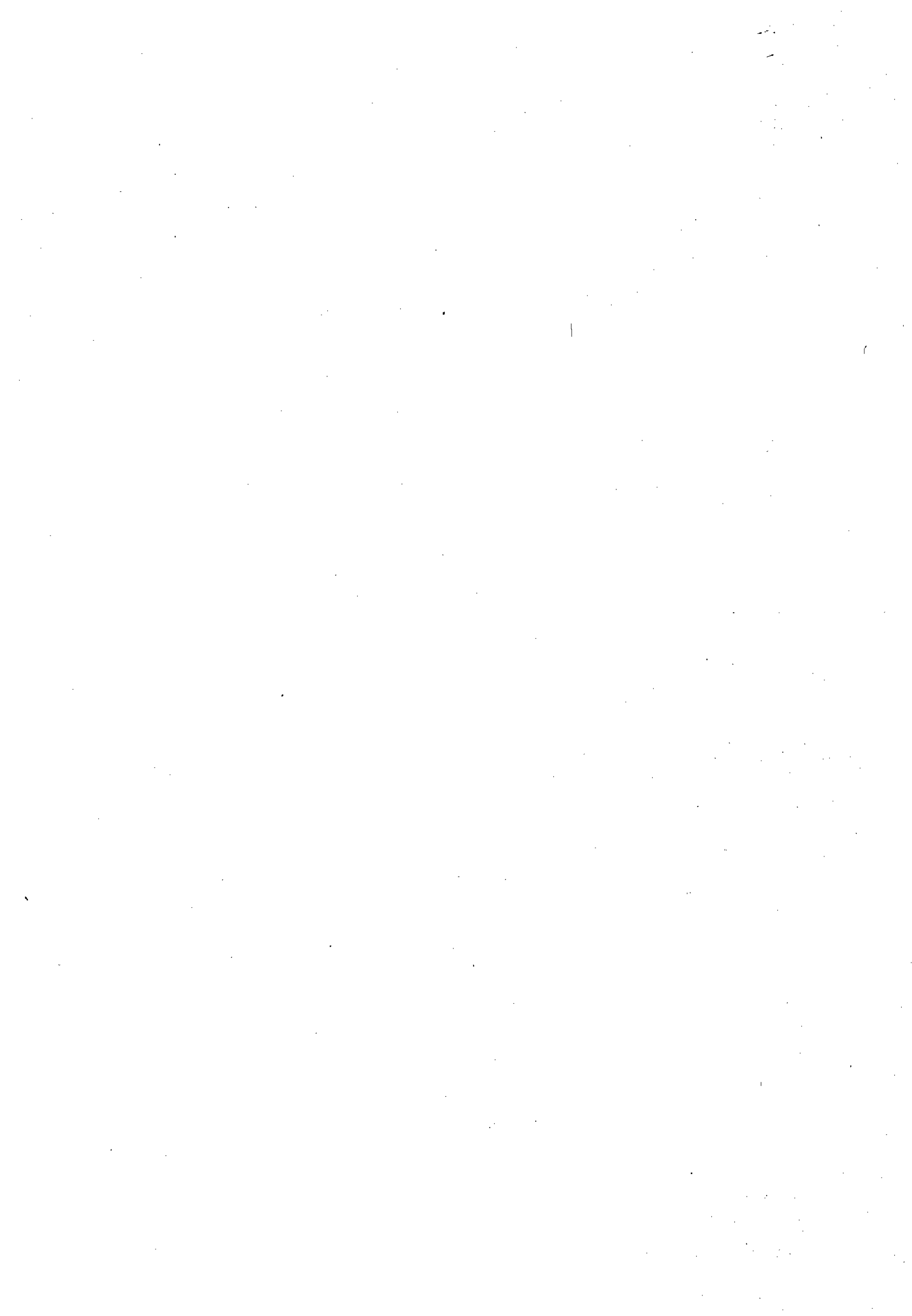
* * *

○ قول الله تعالى : ○

﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً ﴾ الآية

من كتاب « اقتضاء الصراط المستقيم »

لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ٥ - ٦



○ بسم الله الرحمن الرحيم ○

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ .

قال القرطبي : هذه الآية عظيمة عطفها على ما تقدم ؛ فإنه نهى وأمر وحذر عن اتباع غير سبيله على ما بينته الأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف ، و « أن » في موضع نصب أي أتلو أن هذا صراطي ، عن الفراء والكسائي ، ويجوز أن يكون خفضاً أي وصاكم به وبأن هذا صراطي .

قال : والصراط الطريق الذي هو دين الإسلام ومستقيماً نصب على الحال ، ومعناه : مستوياً قيماً لا اعوجاج فيه ؛ فأمر باتباع طريقه الذي طرقه على لِسان محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه ونهايته الجنة ، وتشعبت منه طرق ؛ فمن سلك الجادَّة نجا ، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي تميل انتهى .

وروى الإمام أحمد والنسائي والدارمي وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه : عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : خط رسول الله خطاً بيده ثم قال : « **هذا سبيل الله مستقيماً** » ثم خط خطوطاً على يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال : « **وهذه السبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه** » ثم قرأ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ الآية.

وعن مجاهد ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ قال : البدع والشهوات .

قال ابن القيم رحمه الله : ولنذكر في الصراط المستقيم قولاً وجيزاً ؛ فإن الناس قد تنوعت عباراتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته ، وحقيقته شيء واحد ؛ وهو طريق الله الذي نصبه لعباده موصلاً إليه ، ولا طريق إليه سواه ؛ بل الطرق

كلها مسدودة على الخلق إلا طريقه الذي نصبه على ألسُن رسله ، وجعله موصلاً لعباده إليه ؛ وهو إفراده بالعبادة ، وإفراد رسله بالطاعة ، فلا يشرك به أحداً في عبادته ، ولا يشرك برسوله صلى الله عليه وسلم أحداً في طاعته ؛ فيجرد التوحيد ويجرد مُتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فأي شيء فسر به الصراط المستقيم فهو داخل في هذين الأصلين ، ونكتة ذلك أن تحبه بقلبك وترضيه بجهدك كله فلا يكون في قلبك موضع إلا معموراً بحبه ولا يكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته ؛ فالأول : يحصل بتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله . والثاني : يحصل بتحقيق شهادة أن محمداً رسول الله ، وهذا هو الهدى ودين الحق ، وهو معرفة الحق والعمل به ، وهو معرفة ما بعث الله به رسوله والقيام به ، وقل ما شئت من العبادات التي هذا أُرضيَّتها وقطب رحاها .

قال : وقال سهل بن عبد الله : عليكم بالأثر والسنة فإني أخاف أنه سيأتي عن قليل زمان إذا ذكر إنسان النبي صلى الله عليه وسلم ، والاقتداء به في جميع أحواله ذمُّوه ونفّروا عنه وتبرأوا منه وأذلُّوه وأهانوه .

● **قال في اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه:**

أمور الصراط المستقيم وارتباطها ببعضها وليس الغرض هنا تفصيل الأمور التي وقعت في الأمة مما تضارع طريق المغضوب عليهم أو الضالين ، وإنما الغرض أن تتبين ضرورة العبد وفاقته إلى هداية الصراط المستقيم ، وإن ينفتح لك باب إلى معرفة الانحراف لتحذره .

ثم إن الصراط المستقيم هو أمور باطنة في القلب من اعتقادات وإرادات وغير ذلك ، وأمور ظاهرة من أقوال وأفعال قد تكون عبادات ، وقد تكون أيضاً عادات في الطعام ، واللباس ، والنكاح ، والاجتماع ، والافتراق ، والسفر ، والإقامة ، والركوب ، وغير ذلك .

وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ولابد ارتباط ومناسبة ، فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أموراً ظاهرة وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شمولاً وأحوالاً .

وقد بعث الله عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالحكمة التي هي سنته ، وهي الشرّعة والمنهاج الذي شرعه له فكان من هذه الحكمة أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يباين سبيل المغضوب عليهم والضالين ، وأمر بمخالفتهم في الهدي الظاهر ، وإن لم يظهر لكثير من الخلق في ذلك مفسدة لأمور :

● **(منها)** : أن المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسباً وتشاكلاً بين المتشابهين يقود إلى الموافقة في الأخلاق والأعمال وهذا أمر محسوس؛ فإن اللابس لثياب أهل العلم مثلاً يجد من نفسه نوع انضمام إليهم ، واللابس لثياب الجند المقاتلة مثلاً يجد في نفسه نوع تخلق بأخلاقهم ويصير طبعه مقتضياً لذلك إلا أنْ يمنعه من ذلك مانع .

● (ومنها) : أن المخالفة في الهدي الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب وأسباب الضلال ، والانعطاف إلى أهل الهدي والرضوان وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين ، وكلما كان القلب أتمَّ حياة وأعرف بالإسلام (الذي هو الإسلام لسْتُ أعْني مجرّد التّوسمُّ به ظاهراً أو باطناً بمجرد الاعتقادات التقليدية من حيث الجملة) كان إحسانهُ بمفارقة اليهود والنصارى باطناً وظاهراً أتَمَّ وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد .

(منها) : أن مشاركتهم في الهدى الظاهر توجب الاختلاط الظاهر حتى يرتفع التمييز ظاهراً بين المهديين المرضيين وبين المغضوب عليهم والضالين إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية . هذا إذا لم يكن ذلك الهدي الظاهر إلا مباحاً محضاً لو تجرد عن مشابهتهم ؛ فأما إن كان من موجبات كفرهم فإنه يكون شعبة من شعب الكفر فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع ضلالهم ومعاصيهم فهذا أصل ينبغي أن يتفطن له والله أعلم .

○ فصل ○

(في ذكر الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع على الأمر بمخالفة الكفار والنهي عن التشبه بهم)

لما كان الكلام في المسألة الخاصة قد يكون مندرجاً في قاعدة عامة بدأنا بذكر بعض ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع على الأمر بمخالفة الكفار ، والنهي عن مشابهتهم في الجملة ، سواءً كان ذلك عاماً في جميع الأنواع المخالفة أو خاصاً ببعضها ، وسواءً كان أمر إيجاب أو أمر استحباب ، ثم أتبعنا ذلك بما يدل على النهي عن مشابهتهم في أعيادهم خصوصاً ، وهنا نكتة قد نبهت عليها في هذا الكتاب ؛ وهي : أن الأمر بموافقة قوم ، أو مخالفتهم قد يكون لأن نفس قَصْد موافقتهم أو نفسَ موافقتهم مصلحة ، وكذلك نفسُ قصد مخالفتهم أو نفس

مخالفتهم مصلحة ؛ بمعنى أن ذلك الفعل يتضمن مصلحة للعبد أو مفسدة ، وإن كان ذلك الفعل الذي حصلت به الموافقة أو المخالفة لو تجرد عن الموافقة والمخالفة لم يكن فيه تلك المصلحة أو المفسدة .

ولهذا نحن ننتفع بنفس متابعتنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والسابقين من المهاجرين والأنصار في أعمال لولا أنهم فعلوها لربما قد كان لا يكون لنا فيها مصلحة لما يورث ذلك من محبتهم وائتلاف قلوبنا بقلوبهم ، وإن كان ذلك يدعونا إلى موافقتهم في أمور أخرى إلى غير ذلك من الفوائد .

كذلك قد نتضرر بموافقة الكافرين في أعمال لولا أنهم يفعلونها لم نتضرر بفعلها وقد يكون الأمر بالموافقة والمخالفة ؛ لأن ذلك الفعل الذي يوافق العبد فيه أو يخالف متضمن للمصلحة والمفسدة ولو لم يفعلوه ؛ لكن عُبِّرَ عنه بالموافقة والمخالفة على سبيل الدلالة والتعريف ؛ فتكون موافقتهم دليلاً على المفسدة ومخالفتهم دليلاً على المصلحة .

واعتبار الموافقة والمخالفة على هذا التقديم من باب قياس الدلالة وعلى الأول من باب قياس العلة ، وقد يجتمع الأمران أعني الحكمة الناشئة من نفس الفعل الذي وافقناهم أو خالفناهم فيه ومن نفس مشاركتهم فيه ، وهذا هو الغالب على الموافقة والمخالفة المأمور بهما ، والمنهي عنهما ، فلابد من التفطن لهذا المعنى فإن به يعرف معنى نهي الله لنا عن إتباعهم وموافقتهم مطلقاً ومقيداً .

واعلم أن دلالة الكتاب على خصوص الأعمال وتفاصيلها إنما يقع بطريق الإجمال ، والعموم ، أو الاستلزام ، وإنما السنة هي التي تفسر الكتاب وتبينه وتدل عليه وتعبر عنه .

○ (الآيات الآمرة بمخالفة أهل الكتاب) ○

فنحن نذكر من آيات الكتاب ما يدل على أصل هذه القاعدة في الجملة ثم نتبع ذلك الأحاديث المفسرة لمعاني ومقاصد الآيات بعدها .

قال الله سبحانه : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

أخبر سبحانه أنه أنعم على بني إسرائيل بنعم الدين والدنيا ؛ وأنهم اختلفوا بعد مجيء العلم بغياً من بعضهم على بعض ؛ ثم جعل محمداً صلى الله عليه وسلم على شريعة من الأمر شرعها له وأمره باتباعها ونهاه عن اتباع الذين لا يعلمون وقد دخل في الذين لا يعلمون كل من خالف شريعته و « أهواءهم » هي ما يهوونه وما عليه المشركون من هديهم الظاهر الذي هو من موجبات دينهم الباطل ، وتوابع ذلك فهم يهوونه وموافقتهم فيه اتباع لما يهوونه ، ولهذا يفرح الكافرون بموافقة المسلمين في بعض أمورهم ، ويسرون به ويودون أن لو بذلوا مالاً عظيماً ليحصل ذلك ، ولو فرض أن ليس الفعل من اتباع أهوائهم فلا ريب أن مخالفتهم في ذلك أحسم لمادة متابعتهم في أهوائهم ، وأعون على حصول مرضاة الله في تركها وأن موافقتهم في ذلك قد تكون ذريعة إلى موافقتهم في غيره ، فإن من حام حول الحمى أوشك أن يواقعه ، وأي الأمرين حصل المقصود في الجملة ، وإن كان الأول أظهر النهي عن اتباع أهوائهم .

ومن هذا الباب قوله سبحانه :﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾.

فالضمير في أهوائهم يعود – والله أعلم – إلى ما تقدم ذكره وهم الأحزاب الذين ينكرون بعض ما أنزل إليه فدخل في ذلك كل من أنكر شيئاً من القرآن

من يهوديٍّ أو نصراني أو غيرهما ، وقد قال : ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ ومتابعتهم فيما يختصون به من دينهم ، وتوابع دينهم اتباع لأهوائهم ؛ بل يحصل اتباع أهوائهم بما هو دون ذلك .

ومن هذا أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

فانظر كيف قال في الخبر : (ملتهم) وفي النهي : (أهواءهم) لأن القوم لا يرضون إلا باتباع الملة مطلقاً ، والزجر وقع عن اتباع أهوائهم في قليل أو كثير ، ومن المعلوم أن متابعتهم في بعض ما هم عليه من الدين نوع متابعة لهم في بعض ما يهوونه ، أو مَظَنَّةٌ لمتابعتهم فيما يهوونه كما تقدم .

ومن هذا الباب قوله سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾.

قال غير واحد من السلف : معناه لئلّا يحتج اليهود عليكم بالموافقة في القبلة ، فيقولوا : وافقونا في قبلتنا فيوشك أن يوافقونا في ديننا ، فقطع الله بمخالفتهم في القبلة هذه الحجة ؛ إذ الحجة اسم لكل ما يحتج به من حق وباطل ، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ وهم قريش فإنهم يقولون عادوا إلى قبلتنا فيوشك أن يعودوا إلى ديننا ، فبين سبحانه أن من حكمة نسخ القبلة وتغييرها ؛ مخالفة

الكافرين في قبلتهم ليكون ذلك أقطع لما يطمعون فيه من الباطل ، ومعلوم أن هذا المعنى ثابت في كل مخالفة وموافقة فإن الكافر إذا اتُّبع في شيء من أمره كان له من الحجة مثل ما كان ، أو قريب مما كان لليهود من الحجة في القبلة .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾.

وهم اليهود والنصارى الذين افترقوا على أكثر من سبعين فرقة ، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن متابعتهم في نفس التفرق والاختلاف ؛ مع أنه صلى الله عليه وسلم قد أخبر (أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة) مع أن قوله (لا تكن لمثل فلان) قد يعلم مماثلته بطريق اللفظ أو المعنى ، وإن لم يعم دل على أن جنس مخالفتهم وترك مشابهتهم أمر مشروع ، ودل على أنه كلما بعد الرجل عن مشابهتهم فيما لم يشرع لنا كان أبعد عن الوقوع في نفس المشابهة المنهى عنهما وهذه مصلحة جليلة .

وقال سبحانه لموسى وهارون : ﴿ فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

وما هم عليه من الهدى والعمل هو من سبيل غير المؤمنين ؛ بل من سبيل المفسدين والذين لا يعلمون ، وما يُقدَّر عدم اندراجه في العموم فالنهي ثابت عن جنسه فيكون مفارقة الجنس بالكلية أقرب إلى ترك المنهي عنه ، ومقاربته في مظنة وقوع المنهي عنه .

قال سبحانه : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ .

ومتابعتهم في هديهم هي من اتباع ما يهوونه أو مظنة لاتباع ما يهوونه ، وتركها معونة على ترك ذلك وحَسْمٌ لمادة متابعتهم فيما يهوونه . واعلم أن في كتاب الله من النهي عن مشابهة الأمم الكافرة ، وقصصهم التي فيها عبرة لنا بترك ما فعلوه كثير مثل قوله لَمَّا ذكر ما فعله بأهل الكتاب من المثلات ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ وقوله : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وأمثال ذلك ومنه ما يدل على مقصودنا ومنه ما فيه إشارة وتتميم للمقصود ؛ ثم متى كان المقصود أن مخالفتهم مشروعة في الجملة ، إذ كان هذا هو المقصود هنا ، وأما تمييز دلالة الوجوب أو الواجب عن غيرها وتمييز الواجب عن غيره فليس هو الغرض هنا ، وسنذكر إن شاء الله أن مشابهتهم في أعيادهم من الأمور المحرمة ؛ فإنه هو المسألة المقصودة هنا بعينها ، وسائر المسائل سواها إنما جلبها إلى هنا تقرير القاعدة الكلية العظيمة المنفعة .

قال الله عز وجل : ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ

نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.

بين الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات أخلاق المنافقين وصفاتهم وأخلاق المؤمنين وصفاتهم ، وكلا الفريقين مظهر للإسلام ووعد المنافقين المظهرين للإسلام مع هذه الأخلاق والكافرين المظهرين للكفر نار جهنم ، وأمر نبيه بجهاد الطائفتين ومنذ بعث الله عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهاجر إلى المدينة صار الناس ثلاثة أصناف : مؤمن ومنافق وكافر ، فأما الكافر وهو المظهر للكفر فأمره بيّن وإنما الغرض هنا متعلق بصفات المنافقين المذكورة في الكتاب والسنة فإنها هي التي تُخاف على أهل القبلة ، فوصف الله سبحانه المنافقين بأن بعضهم من بعض ، وقال في المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، وذلك لأن المنافقين تشابهت قلوبهم وأعمالهم وهم مع ذلك تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، فليست قلوبهم متوادّة متوالية إلا مادام الغرض الذي يؤمونه مشتركاً بينهم ، ثم يتخلّى بعضهم عن بعض بخلاف المؤمنين فإنه يحب المؤمن وينصره بظهر الغيب ، وإن تناءت بهم الديار وتباعد الزمان ، ثم وصف الله كل واحدة من الطائفتين بأعمالهم في أنفسهم وفي غيرهم وكلمات الله جوامع وذلك أنه لما كانت أعمال المرء المتعلقة بدينه قسمين أحدهما أن يعمل ويترك والثاني أن يأمر غيره بالفعل والترك ، ثم فعله إما أن يختص هو بنفعه أو ينفع به غيره فصارت الأقسام ثلاثة ليس لها رابع : أحدها ما يقوم بالعمل ولا يتعلق بغيره كالصلاة مثلاً ، والثاني ما يفعله

لنفع غيره كالزكاة ، والثالث ما يأمر غيره أن يفعله فيكون الغير هو العامل وحظه هو الأمر به .

فقال سبحانه في وصف المنافقين ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾ وبإزائه في وصف المؤمنين : ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ والمعروف اسم جامع لكل ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ، والمنكر اسم جامع لكل ما كرهه الله ونهى عنه .

ثم قال ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ .

قال مجاهد : يقبضونها عن الإنفاق في سبيل الله .

وقال قتادة : يقبضون أيديهم عن كل خير .

فمجاهد أشار إلى النفع بالمال ، وقتادة أشار إلى النفع بالمال والبدن ، وقبض اليد عبارة عن الإمساك كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ وفي قوله : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ وهي حقيقة عرفية ظاهرة من اللفظ أو هي مجاز مشهور ، وبإزاء قبض أيديهم قوله في المؤمنين : ﴿ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ فإن الزكاة وإن كانت قد صارت حقيقة شرعية في الزكاة المفروضة فإنها اسم لكل نفع للخلق من نفع بدني أو مالي ، فالوجهان هنا كالوجهين في قبض اليد .

ثم قال : ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ ونسيان الله ترك ذكره ، وبإزاء ذلك قال في صفة المؤمنين : ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فإن الصلاة أيضاً تعم الصلاة المفروضة والتطوع وقد يدخل فيها كل ذكر الله إما لفظاً وإما معنًى .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة ، وإن كنت في السوق .

وقال معاذ بن جبل : مدارسة العلم تسبيح .

ثم ذكر ما وعد الله به المنافقين والكفار من اللعنة ، ومن النار ، والعذاب المقيم في الآخرة ، وبإزاء ما وعد الله المؤمنين من الجنة والرضوان ومن الرحمة .

ثم في ترتيب الكلمات وألفاظها أسراراً كثيرة ليس هذا موضعها وإنما الغرض تمهيد قاعدة لما سنذكره إن شاء الله .

وقد قيل إن قوله : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ إشارة إلى ما هو لازم لهم في الدنيا والآخرة من الآلام النّفْسية غمّاً وحَزَناً وقسوة وظلمة قلب وجهلاً فإن للكفر والمعاصي من الآلام العاجلة الدائمة فالله به عليم ، ولهذا تجد غالب هؤلاء لا يُطيّبون عيشَهم إلا بما يزيل عقولهم ويلهي قلوبهم من تناول مسكراً ، ورؤية مُلْهٍ ، أو سماع مطرب ونحو ذلك ، وبإزاء ذلك قوله في المؤمنين : ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فإن الله يعجل للمؤمنين من الرحمة في قلوبهم وغيرها مما يجدونه من حلاوة الإيمان ، ويذوقونه من طعمه وانشراح صدورهم إلى غير ذلك من السرور بالإيمان ، والعلم النافع ، والعمل الصالح بما لا يمكن وصفه .

ثم قال سبحانه في تمام خبر المنافقين : ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا ﴾ وهذه الكاف قد قيل : إنها رفع خبر مبتدأ محذوف في تقديره أنتم كالذين من قبلكم .

وقيل : إنها نصب بفعل محذوف تقديره فعلتم كالذين من قبلكم ، كما قال النَّمِر بن توْلَب : كاليوم مطلوباً ولا طالباً ، أي لم أرَ كاليوم والتشبيه على هذين القولين في أعمال الذين من قبل ،

وقيل : إن التشبيه في العذاب .

ثمَ قيل : العامل محذوف أي لعنهم وعَذّبهم كما لعن الذين من قبلكم .

وقيل هو أجود ؛ بل العامل ما تقدم أي وعد الله المنافقين كوعد الذين من قبلكم ولعنهم كالذين من قبلكم ولهم عذاب مقيم كالذين من قبلكم ، فمحلها نصب ، ويجوز أن يكون رفعاً أي عذاب كعذاب الذين من قبلكم وحقيقة الأمر

على هذا القول أن الكاف تنازعها عاملان ناصبان أو ناصب ورافع من جنس قولهم : أكرمت وأكرمني زيد ، والنحويون لهم فيما إذا لم يختلف العامل كقولك أكرمت وأعطيت زيداً قولان :

○ (أحدهما) : لقول سيبويه وأصحابه أن العامل في الاسم هو أحدهما ، وأن الآخر خسر حذف معمولُه ، لأنه لا يرى اجتماع عاملين على معمول واحد .

○ (والثاني) : قول الفراء وغيره من الكوفيين أن الفعلين عملا في هذا الاسم وهو يرى أن العاملين يعملان في المعمول الواحد ، وعلى هذا اختلافهم في نحو قوله : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ وأمثاله ، فعلى قول الأولين يكون التقدير وعد الله المنافقين النار كوعد الذين من قبلكم ولهم عذاب مقيم كالذين من قبلكم أو كعذاب الذين من قبلكم ، ثم حذف اثنان من هذه المعمولات لدلالة الآخر عليهما ، وهم يستحسنون حذف الأولين وعلى القول الثاني يمكن أن يقال الكاف المذكورة بعينها هي المتعلقة بقوله : (وعد) وبقوله : (لعن) وبقوله : (ولهم عذاب مقيم) لأن الكاف لا يظهر فيها إعراب وهذا على القول بأن عمل الثلاثة النصبَ ظاهر ، وإذا قيل : إن الثالث يعمل الرفع فوجهه أن العمل واحد في اللفظ إذ التعلق تعلق معنوي لا لفظي ، وإذا عرفت أن من الناس من يجعل التشبيه في العمل ، ومنهم من يجعل التشبيه في العذاب والقولان متلازمان ؛ إذ المشابهة في الموجب تقتضي المشابهة في الموجَب والعكس ، فلا خلاف معنوي بين القولين وكذلك ما ذكرناه في اختلاف النحويين في وجوب الحذف وعدمه إنما هو اختلاف في تعليلات ومآخذ لا تقتضي اختلافاً لا في إعراب ، ولا في معنى ؛ فإن الأحسن أن تتعلق الكاف بمجموع ما تقدم من العمل والجزاء ؛ فيكون التشبيه فيها لفظياً ، وعلى القولين الأولين يكون قد دل على أحدهما لفظاً ، ودل على الآخر لزوماً ؛ وإن سلكت طريقه الكوفيين على هذا كان أبلغ وأحسن ؛ فإن لفظ الآية يكون قد دل على المشابهة في الأمرين من غير حذف ، وإلا فيضمر حالكم كحال الذين من قبلكم ونحو ذلك ، وهو قول من قدره أنتم كالذين من قبلكم ولا يسع هذا المكان بسطاً أكثر من هذا فإن الغرض متعلق بغيره .

وهذه المشابهة في هؤلاء في إزاء ما وصف الله به المؤمنين من قوله : ﴿ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ فإن طاعة الله ورسوله تنافي مشابهة الذين من قبلكم قال سبحانه : ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ﴾ فالخطاب في قوله : ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً ﴾ وقوله : ﴿ فَٱسْتَمْتَعْتُم ﴾ إن كان للمنافقين كان من باب خطاب التلوين والالتفات ، وهذا انتقال من الغيبة إلى الحضور كما في قوله : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ثم حصل الانتقال من الخطاب إلى الغيبة في قوله : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ﴾ وكما في قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا ﴾ وقوله : ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ فإن الضمير في قوله : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ﴾ الأظهر أنه عائد إلى المستمتعين الخائضين من هذه الأمة كقوله فيما بعد : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وإن كان الخطاب لمجموع المبعوث إليهم فلا يكون الالتفات إلا في الموضع الثاني .

وأما قوله : ﴿ فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَـٰقِهِمْ ﴾ ففي تفسير عبد الرزاق عن معمر عن الحسن في قوله : ﴿ فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَـٰقِهِمْ ﴾ قال : بدينهم . ويروى ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وروي عن ابن عباس : بنصيبهم من الآخرة في الدنيا .

وقال آخرون : بنصيبهم من الدنيا .

قال أهل اللغة : الخلاق هو النصيب والحظ كأنه ما خلق للإنسان أي ما قدر له كما يقال القَسْم لما قسم له والنصيب لما نُصب له أي أثبت ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾ أي من نصيب وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « **إنما يلبس الحرير من لا خلاق له في الآخرة** » .

والآية تعم ما ذكره العلماء جميعهم فإنه سبحانه قال : ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ

﴿ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا ﴾ فتلك القوة التي كانت فيهم كانوا يستطيعون أن يعملوا بها للدنيا والآخرة ، وكذلك أموالهم وأولادهم ، وتلك القوة والأموال والأولاد هو الخلاق ، فاستمتعوا بقوتهم وأموالهم وأولادهم في الدنيا ، ونفس الأعمال التي عملوها بهذه القوة والأموال هى دينهم وتلك الأعمال لو أرادوا بها الله والدار الآخرة لكان لهم ثواب في الآخرة عليها فتمتعهم بها أخذ حظوظهم العاجلة بها ، فدخل في هذا من لم يعمل إلا لدنياه سواء كان جنس العمل من العبادات أو غيرها .

ثم قال سبحانه : ﴿ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾ وفي (الذي) خاضوا وجهان أحسنهما أنها صفة لمصدرٍ كالخوض الذي خاضوه فيكون العائد محذوفاً كما في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾ وهو كثير فاشي في اللغة ، والثاني أنه صفة الفاعل أي كالفريق أو الصنف أو الجيل الذي خاضوه كما لو قيل : كالذي خاضوا . وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض لأن فساد الدين إما أن يقع في بالاعتقاد الباطل والتكلم به أو يقع في العمل بخلاف الاعتقاد الحق ، والأول هى البدع ونحوها والثاني هو فسق الاعمال ونحوها ، والأول هو من جهة الشبهات والثاني من جهة الشهوات ، ولهذا كان السلف يقولون : (احذروا من الناس صنفين صاحب هوى قد فتنه هواه وصاحب دنيا أعمته دنياه ، وكانوا يقولون : (احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون) فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يتبعونه وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم ووصف بعضهم أحمد بن حنبل فقال رحمه الله عن الدنيا : ما كان أصبره وبالماضين ما كان أشبهه أتته البدع فنفاها والدنيا فأباها وقد وصف الله أئمة المتقين فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ فبالصبر تترك الشهوات وباليقين تدفع الشبهات ومنه قوله في سورة العصر : ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ وقوله : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى

وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ ومنه الحديث المرسل عن النبي صلى الله عليه وسلم « **إن الله يحب البصير الناقد عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات** » .

فقوله سبحانه : ﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات وهو داء العصاة .

وقوله : ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ إشارة إلى اتباع الشبهات ، وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات وكثير ما يجتمعان ، فقلّ من تجد في اعتقاده فساداً إلا وهو ظاهر في عمله ، وقد دلت الآية على أن الذين كانوا من قبل استمتعوا وخاضوا وهؤلاء فعلوا مثل أولئك .

ثم قوله : ﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم﴾ ﴿وَخُضۡتُمۡ﴾ خبر عن وقوع ذلك في الماضي وهو ذم لمن يفعله إلى يوم القيامة ، كسائر ما أخبر الله به عن أعمال وصفات الكفار والمنافقين عند مبعث عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه ذم لمن يكون حاله حالهم إلى يوم القيامة وقد يكون خبراً عن أمر دائم مستمر لأنه ولو كان بضمير الخطاب فهو كالضمير في نحو قوله : ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ ﴿فَٱغۡسِلُواْ﴾ و﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ ﴿وَءَامِنُواْ﴾ كما أن جميع الموجودين في وقت النبي صلى الله عليه وسلم وبعده إلى يوم القيامة مخاطبون بهذا الكلام ؛ لأنه كلام الله وإنما الرسول مبلغ عن الله وهذا مذهب عامة المسلمين ، وإن كان من تكلم في أصول الفقه اعتقد أن ضمير الخطاب إنما يتناول الموجودين حين تبليغ الرسول وأن سائر الموجودين دخلوا إما بما علمناه بالاضطرار من استواء الحكم كما لو خاطبه النبي صلى الله عليه وسلم واحداً وإما بالسنة وإما بالإجماع وإما بالقياس فيكون كل من حصل منه هذا الاستمتاع والخوض مخاطباً بقوله : ﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم﴾ ﴿وَخُضۡتُمۡ﴾ وهذا أحسن القولين ، وقد توعد الله سبحانه هؤلاء المستمتعين الخائضين بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ وهذا هو المقصود هنا من هذه الآية وهو أن الله قد أخبرَ أن في هذه الأمة من استمتع بخلاقه كما استمتعت الأمم قبلهم ، وخاض

كالذي خاضوا وذمهم على ذلك وتوعدهم على ذلك ثم حضّهم على الاعتبار بمن قبلهم فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ الآية وقد قدمنا أن طاعة الله ورسوله في وصف المؤمنين بإزاء ما وصف به هؤلاء من مشابهة القرون المتقدمة ، وذم من يفعل ذلك وأمره بجهاد الكفار والمنافقين بعد هذه الآية . دليل على جهاد هؤلاء المستمتعين الخائضين ، ثم هذا الذي دل عليه الكتاب من مشابهة بعض هذه الأمة للقرون الماضية في الدنيا وفي الدين ، وذم من يفعل ذلك دلت عليه أيضاً سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأول هذه الآية على ذلك أصحابه رضي الله عنهم فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **لتأخُذُنَّ كما أخذتْ الأمم من قبلكم ذراعاً بذراع وشبراً بشبر وباعاً بباع حتى لو أن أحداً من أولئك دخل جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه** » قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً ﴾ الآية قالوا يا رسول الله كما صنعتْ فارس والروم وأهلُ الكتاب قال : « **فهل الناسُ إلا هُمْ** ».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية أنه قال : ما أشبه الليلة بالبارحة هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل سمتاً ، وهدياً تتبعون عملهم حَذْو الْقُذّةِ بِالْقُذّةِ غير أني لا أدري أتعبدون العجل أم لا .

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : المنافقون الذين منكم اليوم شرٌّ من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا : وكيف ؟ قال : أولئك كانوا يُخفون نِفاقهم وهؤلاء أعلنوه .

وأما السنة فجاءت بالإخبار بمشابهتهم في الدنيا ، وذمٌ ذلك والنهي عن ذلك ، وكذلك في الدين .

● **(فأما الأول)** : الذي هو الاستمتاع بالخلاق ففي الصحيحين عن عمرو بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح

إلى البَحْرين يأتي بجزيتها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو صَالح أهل البحرين وأمّر عليهم العلاءَ بن الحَضْرَمِيّ ، فقدم أبو عبيدة بمال من البَحْرين فسمعت الأنصارُ بقدوم أبي عبيدة فوافقوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما صلى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم انصرفَ فتعرَّضوا له فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ثم قال : « **أظنّكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين** » فقالوا : أجل يا رسول الله فقال : « **أبشروا وأَمِّلُوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أنْ تُبْسَط الدنيا عليكم كما بُسِطَتْ على من كان قبلكم فتنافسُوها كما تنافسُوها فَتُهلككم كما أهلكتهم** ».

فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يخاف على أمته فتنة الفقر وإنما يخاف بَسْطَ الدنيا وتنافسها وإهلاكها ، وهذا هو الاستمتاع بالخلاق المذكور في الآية .

وفي الصحيحين عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج يوماً فصلى على أهل أُحُدٍ صلاته على الميت ثم انصرَف إلى المنبر فقال : « **أنا فَرَطُكُم وأنا شهيد عليكم وإني والله لأنظر إلى حَوْضِي الآن وإني أعْطِيتُ مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها** » في رواية « **ولكن أخشى عليكم أن تنافسوا فيها وتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم** » قال عقبة : فكان آخر ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **إذا فتحت عليكم خزائن فارس والروم أيّ قوم أنتم؟** » قال عبد الرحمن ابن عوف : نكون كما أمرنا الله عز وجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **تنافسون ثم تحاسدون ثم تدابرون أو تباغضون أو غير ذلك ثم تنطلقون إلى مساكن المهاجرين فتحملوا بعضهم على رقاب بعض** » .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وجلسنا حوله فقال : « **إن مما أخافُ عليكم بعدي ما يُفتح من زهرَة الدنيا وزينتها** » فقال رجل أَوَيأتي الخيرُ بالشرِّ يا رسول الله ؟ قال : فسكت عنه رسولِ الله فقيل : ما شأنك تُكَلِّم رسول الله ولا يكلمك قال : ورأينا أنه يُنزل عليه فأفاق يمسح عنه الرُّحَضَاء وقال : « **أين هذا السائل** – وكأنه حَمِده – فقال : « **إنه لا يأتي الخير بالشر** » وفي رواية فقال : « **أين السائل آنفا أوَ خير هو ثلاثاً إن الخير لا يأتي إلا بالخيرِ وإن مما يُنْبِتُ الربيع ما يقتل حَبطاً أو يُلمُّ إلا آكلة الخَضِر فإنها أكلت حتى إذا امتدَّت خاصرتها استقبلتْ عينَ الشمس فَثَلَطتْ وبالت ثم رَتَعَتْ وإن هذا المال خَضِر حُلو ونِعْم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسلمين واليتيم وابن السبيل** » أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إنه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع ويكون عليه شاهدا يوم القيامة** » .

وروى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **إن الدنيا حُلوة خَضِرة وإن الله سبحانه مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء** » فحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة النساء معللاً بأن أولَ فتنة بني إسرائيل كانت في النساء وهذا نظير ما سنذكره من حديث معاوية عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إنما هلك بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم** » يَعْنِى وَصْلَ الشعر وكثير من مشابهات أهل الكتاب في أعيادهم إنما يدعو إليها النساء .

● (**وأما الخوض كالذي خاضوا**) فروينا من حديث الثوري وغيره عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعُم الأفريقي عن عبد الله بن يزيد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حَذْو النَّعْل بالنعل حتى إذا كان منهم من أتى أمَّه علانية كان من أمتي من يصنع ذلك وإن بني إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة**

وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة » قالوا : من هي يا رسول الله قال : « **ما أنا عليه اليوم وأصحابي** » رواه أبو عيسى الترمذي وقال : هذا حديث غريب مُفَسَّر نعرفه إلا من هذا الوجه .

وهذا الافتراق مشهور عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وسعد ومعاوية وعمرو بن عوف وغيرهم ، وإنما ذكرت حديث ابن عمرو لما فيه من المشابهة .

فعن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة** » رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة** » يعني الأهواء « **كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة** » .

وقال : « **إنه سيخرج من أمتي أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكَلَبُ بصاحبه فلا يبقى من عرقٍ ولا مفصلٍ إلا دخله والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم لَغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به** » هذا حديث محفوظ من حديث صفوان بن عمرو عن الأزهر بن عبد الله الحرازي وعن أبي عامر عبد الله بن يحيى عن معاوية ورواه عنه غير واحد ، منهم أبو اليمان وبقية وأبو المغيرة رواه أحمد وأبو داود في سننه ، وقد روى ابن ماجه في هذا المعنى من حديث صفوان بن عمرو عن راشد بن سعد عن عوف بن مالك الأشجعي ، ويروى من وجوه أخر .

فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بافتراق أمته على ثلاث وسبعين فرقة واثنتان وسبعون لا ريب أنهم الذين خاضوا كخوض الذين من قبلهم ثم هذا

الاختلاف أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم إما في الدين فقط وإما في الدين والدنيا ثم قد يؤول إلى الدنيا ، وقد يكون الاختلاف في الدنيا فقط ، وهذا الاختلاف الذي دلت عليه هذه الأحاديث هو مما نهى الله عنه في قوله سبحانه : ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ وقوله : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وهو موافق لما رواه مسلم في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه أقبل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه من العالية حتى إذا مَرَّ بمسجد بني معاوية ، دخل فركع فيه ركعتين ، وصلينا معه ودعا ربَّهُ طويلاً ثم انصرف إلينا فقال : **سألتُ ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسَّنة فأعطانيها وسألت ربي أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها** » .

وروى أيضاً في صحيحه عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إن الله زَوَى لي الأرضَ فرأيتُ مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة وأن لا يسلط عليهم عدواً من سواء أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال : يا محمد إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يُهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً** » ورواه البرقاني في صحيحه وزاد : « **وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين وإذ وقع عليهم السيف لا يرفع إلى يوم القيامة ولا تقوم الساعة حتى يلحقَ حيٌّ من أمتي بالمشركين وحتى يعتد فِئامٌ من أمتي بالأوثان وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم**

من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى » وهذا المعنى محفوظ عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه يشير به إلى أن الفرقة والاختلاف ؛ لابد من وقوعهما في الأمة ، وكان يحذر أمته منه لينجو من الوقوع فيه من شاء الله له السلامة كما روى النَّزّالُ بنُ سَبْرة عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت رجلاً قرأ آية سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ خلافها فأخذتُ بيده فانطلقت به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فعرفت في وجهه الكراهية وقال : « **كِلاكُما محسن ولا تختلفوا فإن مَنْ كان قبلكم اختلفوا فهلكوا** » رواه مسلم . نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الاختلاف الذي فيه جَحْدُ كل واحد من المختلفين ما مع الآخر من الحق لأن كلا القارئين كان محسناً فيما قرأه وعلل ذلك بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا ولهذا قال حُذيفة لعثمان : أدرك هذه الأمةَ لا تختلف في الكتاب كما أختلف فيه الأمم قبلهم لما رأى أهل الشام وأهلَ العراق يختلفون في حروف من القرآن الاختلاف الذي نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأفاد ذلك شيئين أحدهما تحريم الاختلاف في مثل هذا ، والثاني الاعتبار بمن كان قبلنا والحذر من مشابهتهم .

واعلم أن أكثر الاختلاف بين الأمة الذي يورث الأهواء تجده من هذا الضرب ، وهو أن يكون كل واحد من المختلفين مصيباً فيما يثبته أو في بغضه ، مخطئاً في نفي ما عليه الآخر كما أن القارئين كل منهما كان مصيباً في القراءة بالحرف الذي علمه ، مخطئاً في نفي حرف غيره فإن أكثر الجهل إنما يقع في الذي هو الجحود والتكذيب لها في الإثبات لأن إحاطة الإنسان بما يثبته أيسر من إحاطته بما ينفيه ، ولهذا نهيت هذه الأمة أن تضرب آيات الله بعضها ببعض ؛ لأن مضمون الضرب الإيمان بإحدى الآيتين ، والكفر بالأخرى إذا اعتقد أن بينهما تضاداً إذ الضدان لا يجتمعان .

ومثل ذلك ما رواه مسلم عن عبد الله بن رباح الأنصاري أن عبد الله بن عمرو قال : هجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فسمعتُ أصوات رجلين اختلفا في آية فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف في وجهه

الغضبُ فقال : « **إنما هلك من كان قبلكم من الأمم باختلافهم في الكتاب** » فعلل غضبه صلى الله عليه وسلم بأن الأختلاف في الكتاب هو كان سبب هلاك من قبلنا وذلك يوجب مجانبة طريقهم في هذا عيناً ، وفي غيره نوعاً.

والاختلاف على ما ذكره الله في القرآن قسمان أحدهما أنه يذم الطائفتين جميعاً كما في قوله : ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ** ﴾ فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف وكذلك قوله : ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ** ﴾ وكذلك قوله ﴿ **وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ** ﴾ وقوله : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ** ﴾ .

وكذلك وصف اختلاف النصارى بقوله : ﴿ **فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ** ﴾ .

ووصف اختلاف اليهود بقوله : ﴿ **وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ** ﴾ وقال : ﴿ **فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** ﴾ وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، كما وصف أن الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة قال : « **كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة** » وفي الرواية الأخرى : « **من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي** » فبين أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين إلا فرقة واحدة وهم أهل السنة والجماعة ، وهذا الاختلاف المذموم من الطرفين يكون سببه فساد النّية لما في النفوس من البغي والحسد وإرادة العلو في الأرض بالفساد ونحوه ذلك ، فيحب بذلك ذم قول غيره أو فعله أو غلبته ليتميز عليه ، أو يحب قول مَنْ يوافقه في نسب ، أو مذهب أو بلد أو صداقة ونحو ذلك كما في قيام قوله من حصول الشرف والرئاسة له وما أكثر هذا في بني آدم وهذا ظلم ، ويكون مسببه تارة أخرى جهل المختنفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه أو الجهل بالدليل الذي يرشد به أحدهما الآخر ، أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق

بالحكم ، أو في الدليل وإن كان عالماً بما مع نفسه من الحق حكماً ودليلاً ، والجهل والظلم هما أصل كل شر كما قال سبحانه : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

أما أنواع الاختلاف فهي الأصل قسمان : اختلاف تنوع واختلاف تضاد . واختلاف التنوع على وجوه :

● **(منه)** : ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقاً مشروعاً كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة حتى زجرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاختلاف وقال : « **كِلاكُما محسن** » ،

ومثله اختلاف الأنواع في صفة الأذن والإقامة ، والاستفتاح والتشهدات ، وصلاة الخوف ، وتكبيرات العيد ، وتكبيرات الجنازة إلى غير ذلك مما شرع جميعه ، وإن كان قد يقال : إن بعض أنواعه أفضل ثم نجد لكثير من الأمة في ذلك من الاختلاف ما أوجب اقتتال طوائف منهم ، كاختلافهم على شفع الإقامة وإيتارها ونحو ذلك ، وهذا عين المحرم ومن لم يبلغ هذا المبلغ فتجد كثيراً منهم في قلبه من الهوى لأحد هذه الأنواع والإعراض عن الآخر أو النهي عنه ما دخل به فيما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم .

● **(ومنه)** : ما يكون كل من القولين هو في الواقع في معنى القول الآخر لكن العبارتين مختلفتان كما قد يختلف كثير من الناس في ألفاظ الحدود والتعريفات وصيغ الأدلة والتعبير عن المسميات وتقسيم الأحكام وغير ذلك ، ثم الجهل أو الظلم هو الذي يتحمل على حمد أحد المقالتين وذم الأخرى :

● **(ومنه)** : ما يكون المعنيان غَيْرين لكن لا يتنافيان فهذا قول صحيح وذاك قول صحيح ، وإن لم يكن معنى أحدهما معنى الآخر ، وهذا كثير في المنازعات جداً .

● **(ومنه)** : ما يكون طريقتان مشروعتان ، ولكن قد سلك رجلٌ أو قوم

هذه الطريقة وآخرون قد سلكوا الأخرى ، وكلاهما حسن في الدين ، ثم الجهل أو الظلم يحمل على ذم أحدهما أو تفضيله بلا قصد صالح أو بلا علم أو بلا نية .

وأما اختلاف التضاد فهو القولان المتنافيان إما في الأصول واما في الفروع عند الجمهور الذين يقولون : المصيب واحد ، وإلا فمن قال كل مجتهد مُصيب فعنده هو من باب اختلاف التنوع ، لا اختلاف التضاد ، فهذا الخطبُ فيه أشد لأن القولين يتنافيان ، لكن نجد كثيراً من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذي مع منازعه فيه حق ما ، أو معه دليل يقتضي حقاً ما ، فيرد الحق في هذا الأصل كله حتى يبقى هذا مبطلاً في البعض كما كان الأول مبطلاً في الأصل كما رأيته لكثير من أهل السنة في مسائل الصفات والصحابة وغيرهم وأما أهل البدع فالأمر فيهم ظاهر ، وكما رأيته لكثير من الفقهاء أولاً أكثر المتأخرين في مسائل الفقه وكذلك رأيتُ منه كثيراً بين بعض المتفقهة وبعض المتصوفة ، وبين فرق المتصوفة ، ونظائره كثيرة ومن جعل الله له هداية ونوراً رأى من هذا ما يتبين له به منفعة ما جاء في الكتاب والسنة من النهي عن هذا وأشباهه . وإن كانت القلوب الصحيحة تنكر هذا ابتداء لكن نور على نور ومن لم يجعل الله له نور فما له من نور .

وهذا القسم الذي سميناه اختلاف التنوع كل واحد من المختلفين مصيب فيه بلا تردد لكن الذم على من بغى على الآخر فيه وقد دل القرآن على حمد كل واحدة من الطائفتين في مثل هذا إذا لم يحصل من إحداها بغي كما في قوله : ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وقد كان الصحابة في حصار بني النضير ، اختلفوا في قطع الأشجار والنخيل ، فقطع قوم وترك آخرون . وكما في قوله :﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فخصّ سليمان بالفهم وأثنى عليهما بالعلم والحكم ، وكما في إقرار النبي صلى الله عليه وسلم يوم بني قريظة ، وقد كان أمر المنادي ينادي لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة من صلى العصر في وقتها ومن أخّرها إلى

أن وصل إلى بني قريظة وكما في قوله صلى الله عليه وسلم : « **إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا أجتهد ولم يُصب فله أجر** » ونظائره كثيرة ، وإذا جعلت هذا قسماً آخر صار الاختلاف ثلاثة أقسام ، وأما القسم الثاني من الاختلاف المذكور في كتاب الله فهو ما حمد فيه إحدى الطائفتين وهم المؤمنون وذم فيه الأخرى كما في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ فقوله : ﴿ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ حمد لإحدى الطائفتين وهم المؤمنون وذم للأخرى ، وكذلك قوله : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ ﴾ الآية مع ما ثبت في الصحيح عن أبي ذرٍ رضي الله عنه أنها نزلت في المقتتلين يوم بَدْرٍ : عليّ وحمزة وعُبيدة بن الحارث والذين بارزوهم من قريش وهم عتبة وشيبة والوليد بن عُتبة . وأكثر الاختلاف الذي يؤول إلى الأهواء بين الأمة من القسم الأول وكذلك آل إلى سفك الدماء واستباحة الأموال والعداوة والبغضاء لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق ولا تنصفها بل تزيد على ما مع نفسها من الحق زيادات من الباطل والأخرى كذلك ، وكذلك جعل الله مصدر الاختلاف والبغي في قوله : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ لأن البغي مجاوزة الحدّ وذكر هذا في غير موضع من القرآن ليكون عِبرة لهذه الأمة .

وقريب من هذا الباب ما خرَّجاه في الصحيحين عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « **ذروني ما تركتكم فإنما**

هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائِهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » فأمرهم بالإمساك عما لم يؤمروا به معللاً ذلك بأن سبب هلاك الأولين إنما كان كثرة السؤال ، ثم الاختلاف على الرسل بالمعصية كما أخبرنا الله عن بني إسرائيل من مخالفتهم أمر موسى في الجهاد وغيره ، وفي كثرة سؤالهم عن صفات البقرة التي أمرهم بذبحها ؛ لكن هذا الاختلاف على الأنبياء هو والله أعلم مخالفة للأنبياء كما يقال اختلف الناس على الأمير إذا خالفوه ، والاختلاف الأول مخالفة بعضهم بعضاً وإن كان الأمران متلازمين ، أو أن الاختلاف على الأنبياء هو الاختلاف فيما بينهم فإن اللفظ يحتمله ، ثم الاختلاف كله قد يكون في التنزيل والحروف كما في حديث ابن مسعود ، وقد يكون في التأويل كما يحتمله حديث عبد الله بن عمرو ؛ فإن حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن نفراً كانوا جلوساً بباب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : ألم يقل الله كذا وكذا ، وقال بعضهم : ألم يقل الله كذا وكذا فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج فكأنما فُقِيء في وَجْهِهِ حبُ الرُّمّان فقال : « **أبهذا أمرتم أو بهذا بُعثتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض إنما ضلّت الأمم قبلكم بمثل هذا إنكم لستم مما ههنا في شيء انظروا الذي أمرتكم به فاعملوا به والذي نهيتكم عنه فانتهوا عنه** » .

وقال أحمد : حدثنا يونس حدثنا حماد بن سلمة عن حميد ومطرٍ الورّاق وداود بن أبي هند أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم يتنازعون في القدر وذكر الحديث .

وقال أحمد : حدثنا أنس بن عياض حدثنا أبو حازم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحبُّ أنّ لي به حُمْرَ النَّعَم أقبلتُ أنا وأخي وإذا مشيخةٌ من أصحاب رسول الله جلوس عند باب من أبوابه فكرهنا أن نفرق بينهم فجلسنا حجرة إذ ذكروا آية من القرآن ، فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضباً قد احمر وجهه يرميهم بالتراب . ويقول : « **مهلاً يا قوم بهذا أهلكت**

الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، إن القرآن لم ينزَّل ليُكَذِّبَّ بعضه بعضاً وإنما نزل يصدق بعضه بعضاً فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه » .

وقال أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا داود بن أبي هند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم والناس يتكلمون في القدر قال فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب قال : فقال لهم : « **ما لكم تضربون كتابَ الله بعضَه ببعض بهذا هلك من كان قبلكم** » قال : فما غَبَطْتُ نفسي بمجلس فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم أشهده ما غَبَطْتُ نفسي لذلك المجلس إذ لم أشهده .

هذا حديث محفوظ ، عن عمرو بن شعيب ، رواه عنه الناس ورواه ابن ماجة في سننه من حديث أبي معاوية ، كما سقناه .

وقد كتب أحمد في رسالته إلى المتوكل هذا الحديث ، وجعل يقول لهم في مناظرته يوم الدار إنا قد نهينا أن نضرب كتاب الله بعضه في بعض . وهذا لعلمه رحمه الله بما في خلاف هذا الحديث من الفساد العظيم :

وقد روى هذا المعنى الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال : حديث حسن غريب ، قال : وفي الباب عن عمر ، وعائشة ، وأنس .

وهذا باب واسع لم نقصد له ههنا وإنما الغرض التّنبيه على الأمة من موافقة الأمم قبلها ، إذ الأمر في هذا الحديث كما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم أصل هلاك بني آدم إنما كان التنازع في القدر ، وعنه نشأ مذهب المجوس القائلين بالأصلين النور والظلمة ، ومذهب الصابئة وغيرهم القائلين بقدم العالم ، ومذاهب كثير من مجوس هذه الأمة وغيرهم ومذاهب كثير ممن عطل الشرائع ، فإن القوم تنازعوا في علة فعل الله سبحانه وتعالى لما فعله فأرادوا أن يثبتوا شيئاً يستقيم لهم به تعليل فعله بمقتضى قياسه سبحانه على المخلوقات فوقعوا فى غاية الضلال؛ إما بأن زعموا أن فعله ما زال لازماً له؛ وإما بأن زعموا أن الفاعل

اثنان؛ وإما بأن زعموا بأنه يفعل البعض والخلق يفعلون البعض؛ وإما بأن ما فعله لم يأمر بخلافه، وما أمر به لم يُقَدِّر خلافه، وذلك حين عارضوا بين فعله وأمره حتى أقر فريق بالقدر وكذبوا بالأمر، وأقر فريق بالأمر وكذبوا بالقدر حين اعتقدوا جميعاً أن اجتماعهما محال. وكل منهما مبطل بالتكذيب بما صدق به الآخر، وأكثر ما يكون ذلك لوقوع المنازعة فى الشيء قبل إحكامه وجمع حواشيه وأطرافه ولهذا قال: «**ما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه**».

والغرض من ذكر هذه الأحاديث هو التنبيه من الحديث والسنة على مثل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ﴾.

ومن ذلك ما روى الزهري عن سنان بن أبي سنان الدؤلي عن أبي واقد الليثي أنه قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين ونحن حديثو عهد بكفر وللمشركين سِدْرَة يعكفون عندها ويُنِيطون بها أسلحتهم يقالُ: لها ذاتُ أنواط، فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**الله أكبر إنها السنن قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ لتركبن سنن من كان قبلكم**» رواه مالك والنسائي والترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح ولفظه «**لتركبن سُنَّةَ من كان قبلكم**».

وقد قدمتُ ما خرجاه فى الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لتتبعنَّ سَنَن من كان قبلكم حَذْو القُذةِ بالقذّة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**» قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: **فمن**».

وما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لتأخذ أمتي مأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع**» قالوا: فارس والروم قال: «**فمن الناس إلا أولئك**».

وهذا كله خرج منه مخرج الخبر عن وقوع ذلك والذم لمن يفعله كما كان

يخبر عما يفعله الناس بين يدي الساعة من الأشراط والأمور المحرمات؛ فعلم أن مشابهة هذه الأمة لليهود والنصارى وفارس والروم ما ذمه الله ورسوله وهو المطلوب.

ولا يقال: فإذا كان الكتاب والسنة قد دلَّا على أنه لا يزال فى هذه الأمة طائفة متمسكة بالحق الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة؛ وأنها لا تجتمع على ضلالة ففى النهي عن ذلك تكثير لهذه الطائفة المنصورة وتثبيتها وزيادة إيمانها فنسأل الله المجيب أن يجعلنا منها، وأيضاً لو فرض أن الناس لا يترك أحد منهم هذه المشابهة المنكرة لكان فى العلم بها معرفة القبيح والإيمان بذلك ، فإن نفس العلم والإيمان بما كرهه الله خير وإن لم يعمل به ؛ بل فائدة العلم والإيمان أعظم من فائدة مجرد العمل الذي لم يقترن به علم . فإن الإنسان إذا عرف المعروف ، وأنكر المنكر كان خيراً من أن يكون ميت القلب لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ؛ ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان** » رواه مسلم ؛ وفى لفظ: « **ليس وراء ذلك من الإيمان حَبَّة خَرْدَل** » وإنكار القلب هو الإيمان بأن هذا منكر وكراهته لذلك، فإذا حصل هذا كان فى القلب إيمان وإذا فقد القلبُ معرفة هذا المعروف وإنكار هذا المنكر ارتفع هذا الإيمان من القلب . وأيضاً فقد يستغفر الرجل من الذنب مع إصراره عليه أو يأتي بحسنات تمحوه أو تمحو بعضه ، وقد تقلل منه وقد تُضْعِف هِمَّته لطلبه إذا علم أنه منكر ؛ ثم لو فُرِض أنا علمنا أن الناس لا يتركون ولا يعترفون بأنه منكر لم يكن ذلك مانعاً من إبلاغ الرسالة وبيان العلم ؛ بل ذلك لا يُسقط وجوبَ الإبلاغ ولا وجوب الأمر والنهي في إحدى الروايتين عن أحمد وقول كثير من أهل العلم على أن هذا ليس موضع استقصاء ذلك . ولله الحمد على ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من أنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرة على الحق حتى يأتي أمر الله . وليس هذا الكلام من خصائص هذه المسألة بل هو وارد في كل منكر قد أخبر الصادق بوقوعه .

ومما يدل من القرآن على النهي عن مشابهة الكفار قوله سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

قال قتادة وغيره: كانت اليهود تقوله استهزاءً فكره الله للمؤمنين أن يقولوا مثل قولهم ، وقال أيضاً : كانت اليهود تقول للنبي صلى الله عليه وسلم : راعنا سَمْعَك يستهزؤون بذلك وكانت في اليهود قبيحة .

وروي عن عطية العوف قال : كان يأتي ناس من اليهود فيقولون : راعِنا سَمْعَك ، حتى قالها ناس من المسلمين فكره الله لهم مقالة اليهود .

وقال عطاء : كانت لغة في الأنصار في الجاهلية .

وقال أبو العالية : إن مشركي العرب كانوا إذا حَدَّث بعضهم بعضاً يقول أحدهم لصاحبه : راعني سَمْعك فنهوا عن ذلك . وكذلك قال الضحاك .

فهذا كله يبين أن هذه الكلمة نُهي المسلمون عن قولها ؛ لأن اليهود كانوا يقولونها وإن كانت من اليهود قبيحة ومن المسلمين لم تكن قبيحة لما كانت مشابهتهُم فيها من مشابهة الكفار وطريقهم إلى بلوغ غرضهم .

وقال سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ومعلوم أن الكفار فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كما قال سبحانه : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ وقال : ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ وقال : ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وقال عن اليهود : ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وقد قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ .

وذلك يقتضي تبرؤه منهم في جميع الأشياء ، ومن تابع غيره في بعض أموره فهو منه في ذلك الأمر ؛ لأن قول القائل: أنا من هذا وهذا مني أي أنا من نوعه وهو من نوعي ؛ لأن الشخصين لا يتحدان إلا بالنوع كما في قوله تعالى : ﴿ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ ، وقوله عليه الصلاة والسلام لعلي « **أنت مني وأنا منك** » فقول القائل لست من هذا في شيء أي لست مشاركاً له في شيء ؛ بل أنا متبريء من جميع أموره ، وإذا كان الله قد برأ رسوله صلى الله عليه وسلم من جميع أمورهم ؛ فمن كان متبعاً للرسول صلى الله عليه وسلم حقيقة كان متبرئاً منهم كتبرئه صلى الله عليه وسلم منهم ؛ ومن كان موافقاً لهم كان مخالفاً للرسول بقدر موافقته لهم . فإن الشخصين المختلفين من كل وجه في دينهما كلما شابهتَ أحدهما خالفت الآخر .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾ وقد روى مسلم في صحيحه عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ **لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ** ﴾ الآيات . اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الرُّكب فقالوا : أيْ رسولَ الله كلفنا ما نُطيق من الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد نزلت عليك

هذه الآية ولا نطيقها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** » فلما اقترأها القوم وذلّت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى في أثرها : ﴿ **ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ** ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله : ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا** ﴾ قال : نعم ﴿ **رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا** ﴾ قال : نعم ﴿ **رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ** ﴾ قال : نعم ﴿ **وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ** ﴾ قال : نعم .

فحذرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يتلقوا أمر الله بما تلقاه أهل الكتابين وأمرهم بالسمع والطاعة فشكر لهم الله ذلك حتى رفع عنهم الآصار والأغلال التي كانت على من كان قبلهم .

وقال الله في صفته صلى الله عليه وسلم : ﴿ **وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ** ﴾ فأخبر الله سبحانه أن رسوله عليه الصلاة والسلام يضع الآصار والأغلال التي كانت على أهل الكتاب ولما دعا المؤمنون بذلك أخبرهم الرسول أن الله قد استجاب دعاءهم وهذا وإن كان رفعاً للإيجاب والتحريم فإن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته ، قد صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يكره مشابهة أهل الكتابين في هذه الآصار والأغلال وزجر أصحابه عن التبتُّل وقال: « **لا رهبانية في الإسلام** » وأمر بالسَّحُور ونهى عن المواصلة وقال فيما يعيب على أهل الكتابين ويحذرنا عن موافقتهم : « **فتلك بقاياهم في الصوامع** » وهذا باب واسع جداً .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ**

﴿ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ وقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ يعيب بذلك المنافقين الذين تولوا اليهود إلى قوله : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ – إلى قوله – أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ – إلى قوله – وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ – إلى قوله – وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾ الآيات فعقد سبحانه الموالاة بين المهاجرين والأنصار ، وبين من آمن من بعدهم وهاجروا وجاهدوا إلى يوم القيامة ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، والجهاد باق إلى يوم القيامة فكل شخص يمكن أن يقوم به هذان الوصفان ؛ إذ كان كثير من النفوس اللينة يميل إلى هجر السيئات دون الجهاد ، والنفوس القوية قد تميل إلى الجهاد دون هجر السيئات وإنما عقد الله الموالاة لمن جمع بين الوصفين وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا به إيماناً صادقاً .

وقال : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ ونظائر هذا في غير موضع من القرآن يأمر سبحانه بموالاة المؤمنين حقّاً الذين هم حزبه وجنده ويخبر أن هؤلاء لا يوالون الكافرين ولا يوادونهم والموالاة والموادة وإن كانت متعلقة بالقلب لكن المخالفة في الظاهر أهون على المؤمن من مقاطعة الكافرين ومباينتهم ومشاركتهم في الظاهر إن لم تكن ذريعة وسبباً قريباً أو بعيداً إلى نوع مّا من الموالاة والموادة فليس فيها مصلحة المقاطعة والمباينة مع أنها تدعو إلى نوع مّا من المواصلة كما توجبه الطبيعة وتدل عليه العادة ، ولهذا كان السلف رضي الله عنهم يستدلون بهذه الآيات على ترك

الاستعانة بهم في الولايات فروى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قلت لعمر رضي الله عنه : إن لي كاتباً نصرانياً قال مالك : قاتلك الله أما سمعت الله يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ ألا اتخذتَ حنيفاً قال : قلت : يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه قال : لا أكرمهم إذ أهانهم الله ولا أعزهم إذ أذلهم الله ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله .

ولما دل عليه معنى الكتاب جاءت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه الراشدين التي أجمع الفقهاء عليها بمخالفتهم وترك التشبه بهم .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم** » أمر بمخالفتهم وذلك يقتضي أن يكون جنس مخالفتهم أمراً مقصوداً للشارع لا أنه إن كان الأمر بجنس المخالفة حصل المقصود وإن كان الأمر بالمخالفة في تغيير الشّعر فقط فهو لأجل ما فيه من المخالفة فالمخالفة إما عِلَّة مفردة أو علة أخرى أو بعض علة وعلى جميع التقديرات تكون مأموراً بها مطلوبة للشارع لأن الفعل المأمور به إذا عبّر عنه بلفظ مشتق من معنى أعمَّ من ذلك الفعل فلابد أن يكون ما منه الاشتقاق أمراً مطلوباً لا سيما إن ظهر لنا أن المعنى المشتقَّ منه معنى مناسبٌ للحكمة كما لو قيل للضيف : أكرمه بمعنى أطعمه وللشيخ الكبير : وقِّره بمعنى اخفض صوتك له أو نحوه وذلك لوجوه:

○ (**أحدها**): أن الأمر إذا تعلق باسم مفعول مشتق من معنى كان ذلك المعنى علّةً للحكم كما في قوله عز وجل : ﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وقوله : ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ وقول النبي صلى الله عليه وسلم: « **عودوا المريض وأطعموا الجائع وفكوا العاني** » وهذا كثير معلوم فإذا كان نفس العمل المأمور به مشتقّاً من معنى أعمَّ منه كان نفس الطلب والاقتضاء قد عُلِّق بذلك المعنى الأعم فيكون مطلوباً بطريق الأولى .

○ (**الوجه الثاني**): أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقّاً منها أو كان كل واحد منهما مشتقّاً من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضائقة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمراً مطلوباً للأمر مقصوداً له كما في قوله : ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ﴿ وَأَحۡسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ وفي قوله : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وفي قوله : ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ ﴾ وفي قوله : ﴿ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ ﴾ فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة ؛ بل هي نفس المأمور به ثم المأمور به أجناس لايمكن أن تقع إلا معينة ؛ وبالتعيين تقترن بهما أمور غير مقصودة الفعل للآمر لكن لا يمكن العبد إيقاع الفعل المأمور به إلا مع أمور معينة له فإنه إذا قال : ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ فلابد إذا أعتق العبدُ رقبةً أن يقترن بهذا المطلق تعيين من سواد أو بياض أو طول أو قصر أو عربية أو عجمية أو غير ذلك من الصفات ؛ لكن المقصود هو المطلق المشترك من هذه المعينات . وكذلك إذا قيل : « **اتقوا الله وخالفوا اليهود** » فإن التقوى تارة تكون بفعل واجب من صلاة أو صيام ، وتارة تكون بترك محرم من كفر أو زنا أو نحو ذلك . فخصوص ذلك الفعل إذا دخل في التقوى لم يمنع دخول غيره فإذا رؤي رجلٌ همّ بزناً فقيل له : اتق الله كان أمراً له بعموم التقوى داخلاً فيه الأمر بخصوص ترك ذلك الزنا ، لأن سبب اللفظ العام لابد أن يدخل فيه .

كذلك إذا قيل : « **إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم** » كان أمراً بعموم المخالفة داخلاً فيه المخالفة بصبغ اللحية لأنه سبب اللفظ العام وسببه أن الفعل فيه عموم وإطلاق لفظي ومعنوي ، فيجب الوفاء به وخروجه على سبب يوجب أن يكون داخلاً فيه لا يمنع أن يكون غيره داخلاً فيه .

وإن قيل : إن اللفظ العام يقر على سببه ؛ لأن العموم ههنا من جهة المعنى فلا يَقبل من التخصيص ما يقبله من العموم اللفظي فإن قيل : الأمر بالمخالفة أمر

بالحقيقة المطلقة وذلك لا عموم فيه ؛ بل يكفي فيه المخالفة في أمرٍ مّا وكذلك سائر ما يذكرونه فمن أين اقتضى ذلك المخالفة في غير ذلك الفعل المعين ؟

قلت : هذا سؤال قد يورده بعض المتكلمين في عامة الأفعال المأمور بها ويُلبِّسون بها على الفقهاء وجوابه من وجهين :

○ (**أحدهما**) : أن التقوى والمخالفة ونحو ذلك من الأسماء والأفعال المطلقة قد يكون العموم فيها من جهة عموم الكل لأجزائه لا من جهة عموم الجنس لأنواعه فإن العموم ثلاثة أقسام :

(**عموم الكل لأجزائه**) وهو ما لا يصدق فيه الاسم والعام ولا أفراده على جزئه .

(**والثاني: عموم الجمع لأفراده**) وهو ما يصدق فيه أفراد الاسم العام على آحاده .

(**والثالث: عموم الجنس لأنواعه وأعيانه**) وهو ما يصدق فيه أفراد الاسم العام على أفراده .

○ (**فالأول**) : عموم الكل لأجزائه في الأعيان والأفعال والصفات كما في قوله تعالى : ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ فإن اسم الوجه يعمّ الخد والجبين والجبهة ونحو ، ذلك وكل واحد من هذه الأجزاء ليس هو الوجه ، فإذا غسل بعض هذه الأجزاء لم يكن غاسلاً للوجه ؛ لانتفاء المسمى بانتفاء جزئه .

وكذلك في الصفات والأفعال :

(إذا قيل) : صل فصلى ركعة وخرج بغير سلام .

(أو قيل) : صم فصام بعض يوم لم يكن ممتثلاً لانتفاء معنى الصلاة المطلقة والصوم المطلق .

(وكذلك إذا قيل) : أكرم هذا الرجل فأطعمه وضربه ؛ لم يكن ممتثلاً ؛ لأن الإكرام المطلق يقتضي فعل ما يَسُرُّهُ وترك ما يَسُوْه ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه** » فلو أطعمه بعض

كفايته وتركه جائعاً لم يكن مكرماً له لانتفاء أجزاء الإكرام .

(ولا يقال) : الإكرام حقيقة مطلقة وذلك يحصل بإطعام أي شيء ولو لقمة .

(وكذلك إذا قال) : خالفوهم ، فالمخالفة المطلقة تنافي الموافقة في بعض الأشياء أو في أكثرها على طريق التساوي لا المخالفة المطلقة ضد الموافقة المطلقة فيكون الأمر بأحدهما نهياً عن الآخر .

(ولا يقال) : إذا خالف في شيء مّا فقد حصلت المخالفة كما لا يقال إذا وافقه في شيء مّا فقد حصلت الموافقة وسر ذلك الفرق بين مفهوم اللفظ المطلق ، وبين المفهوم المطلق من اللفظ ؛ فإن اللفظ يستعمل مطلقاً ومقيداً فإذا أخذت المعنى المشترك بين جميع موارده مطلقها ومقيدها ؛ كان أعم من المعنى المفهوم منه عند إطلاقه ، وذلك المعنى المطلق يحصل بحصول بعض مسميات اللفظ في أي استعمالاته حصل من استعمالاته المطلقة أو المقيدة ، وأما معناه في حال إطلاقه فلا يحصل بعض معانيه عند التقييد ، بل يقتضي أموراً كثيرةً لا يقتضيها اللفظ المقيد فكثيراً ما يغلط الغالطون هنا ألا ترى أن الفقهاء يفرقون بين الماء المطلق وبين المائية المطلقة الثابتة في المني والمتغيرات وسائر المايعات. فأنت تقول عند التقييد أكرم الضيف بإعطائه هذا الدرهم فهذا إكرام مقيد ، فإذا قلت : إكرام الضيف كنت آمراً بمفهوم اللفظ المطلق وذلك يقتضي أموراً لا تحصل بحصول إعطائه الدرهم فقط .

○ **(وأما القسم الثاني من أقسام العموم)**: فهو عموم الجنس لأعيانه كما يعم قوله صلى الله عليه وسلم : « **لا يقتل مسلم بكافر** » جميع أنواع قتل المسلم الكافر إذا تبين هذا فالمخالفة المطلقة لا تحصل بالمخالفة في شيء مّا إذا كانت الموافقة قد حصلت في أكثر منه ؛ وإنما تحصل بالمخالفة في جميع الأشياء أو في غالبها إذ المخالفة المطلقة ضد الموافقة المطلقة فلا يجتمعان ؛ بل الحكم للغالب وهذا تحقيق جيد لكنه مبني على مقدمة وهي أن المفهوم من لفظ المخالفة عند الإطلاق يعم المخالفة

في عامة الأمور الظاهرة فإن خفي هذا الموضع المعين فخذ في الوجه الثاني وهو العموم المعنوي وهو أن المخالفة مشتقة فإنما أمر بها لمعنى كونها مخالفة كما تقدم تقريره وذلك ثابت في كل فرد من أفراد المخالفة فيكون العموم ثابتاً من جهة المعنى المعقول وبهذين الطريقين يتقرر العموم في قوله تعالى : ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾وغير ذلك من الأفعال ، وإن كان أكثر الناس إنما يفزعون إلى الطريق الثاني ، وقلّ منهم من يتفطن للطريق الأول وهذا أبلغ إذا صح .

ثم تقول : هب أن الإجزاء يحصل بأيٍّ شيء يسمّى مخالفة لكن الزيادة على القدر المجزيء مشروعة إذا كان الأمر مطلقا كما في قوله : ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ ﴾ونحو ذلك من الأوامر المطلقة .

(**الوجه الثالث في أصل التقرير**) : أن العدول بالأمر عن لفظ الفعل الخاص إلى لفظ أعم منه معنى ؛ كالعدول به عن لفظ : (أطعمه) إلى لفظ : (أكرمه) وعن لفظ أعم منه لفظ (فاصْبغوا) إلى لفظ (فخالفوهم) لابد له من فائدة وإلا فمطابقة اللفظ للمعنى أولى من إطلاق اللفظ العام وإرادة الخاص وليست هنا فائدة تظهر إلا تعلق القصد بذلك المعنى العام المشتمل على هذا الخاص وهذا بين عند التأمل .

(**الوجه الرابع**) : أن العلم بالعام عامًّا يقتضي العلم بالخاص والقصد للمعنى العام عاماً يوجب القصد للمعنى الخاص ؛ فإنك إذا علمت أن كل مسكر خمر وعلمت أن النبيذ مسكر ؛ كان علمك بذلك الأمر العام وبحصوله في الخاص موجباً لعلمك بوصف الخاص . كذلك إذا كان قصدك طعاماً مطلقاً أو مالاً مطلقاً وعلمت وجود طعام معين أو مالٍ معينٍ في مكان حصل قصدك له ؛ إذ العلم والقصد يتطابقان في مثل هذا ، والكلام يبين مراد المتكلم ومقصوده ، فإذا أمر بفعل باسم دال على معنى عام مريداً به فعلاً خاصّاً كان ما ذكرناه من الترتيب الحكمي يقتضي أنه قاصد بالأولى لذلك المعنى العام ، وأنه إنما قصد ذلك الفعل الخاص لحصوله به ففي قوله : (أكرمه) طلبان طلب للإكرام المطلق ، وطلب لهذا الفعل الذي يحصل به المطلق ، وذلك لأن حصول المعين مقتض لحصول

المطلق وهذا معنى صحيح إذا صادف فطنة من الإنسان وذكاء انتفع به في كثير من المواضع وعلم به طريق البيان والدلالة .

بقي أن يقال هذا يدل على أن جنس المخالفة أمر مقصود للشارع وهذا صحيح لكن قصد الجنس قد يحصل الاكتفاء فيه بالمخالفة في بعض الأمور فما زاد على ذلك لا حاجة إليه .

قلت : إذا ثبت أن الجنس مقصود في الجملة كان ذلك حاصلاً في كل فرد من أفراده ، ولو فرض أن الوجوب سقط بالبعض يرفع حكم الاستحباب عن الباقي ، وأيضاً فإن ذلك يقتضي النهي عن موافقتهم لأنه من قصد مخالفتهم بحيث أمرنا بإحداث فعل يقتضي مخالفتهم فيما لم تكن الموافقة فيه من فعلنا ولا قصدنا فكيف لا ينهانا عن أن نفعل فعلاً فيه موافقتهم سواء قصدنا موافقتهم أو لم نقصدها .

(**الوجه الخامس**) : أنه رتب الحكم على الوصف بحرف الفاء فيدل هذا الترتيب على أنه علة له من غير وجه حيث قال : « **إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم** » فإنّه يقتضي أن علة الأمر بهذه المخالفة كونهم لا يصبغون ؛ فالتقدير : اصبغوا فإنهم لا يصبغون ، وإذا كان علة الأمر بالفعل عدم فعلهم له دل على أن قصد المخالفة لهم ثابت بالشرع وهو المطلوب ، يوضح ذلك أنه لو لم يكن لقصد مخالفتهم تأثير في الأمر بالصبغ لم يكن لذكرهم فائدة ولا حَسُن تعقيبه به ، وهذا وإن دل على أن مخالفتهم أمر مقصود للشرع فذلك لا ينبغي أن تكون في نفس الفعل الذي خولفوا فيه مصلحة مقصودة مع قطع النظر عن مخالفتهم ؛ فإن هنا شيئين :

○ (**أحدهما**) : أن نفس المخالفة لهم في الهدي الظاهر مصلحة ومنفعة لعباد الله المؤمنين لما في مخالفتهم من المجانبة والمباينة التي توجب المباعدة عن أعمال أهل الجحيم وإنما يظهر بعض المصلحة لمن تنور قلبه حتى رأى ما اتصف به المغضوب عليهم والضالون من مرض القلب الذي ضرره أشد من ضرر أمراض الأبدان .

○(**والثاني**) : أن نفس ما هم عليه من الهدي والخلق قد يكون مضرّاً أو منقصاً فينهي عنه ويؤمر بُضده لما فيه من المنفعة والكمال ، وليس شيء من أمورهم إلا وهو إما مضر أو ناقص ؛ لأن ما بأيديهم من الأعمال المبتدعة والمنسوخة ونحوها مضرة وما بأيديهم مما لم ينسخ أصله فهو يقبل الزيادة والنقص فمخالفتهم فيه بأن يشرع ما يحصله على وجه الكمال ولا يتصور أن يكون شيء من أمورهم كاملاً قط ، فإذاً المخالفة لهم فيها منفعة وصلاح لنا في كل أمورنا حتى ما هم عليه من إتقان أمور دنياهم قد يكون مطل بآخرتنا أو بما هو أهم منه من أمر دنيانا فالمخالفة فيه صلاح لنا . وبالجملة فالكفر بمنزلة مرض القلب أو أشد ، ومتى كان القلب مريضاً لم يصح شيء من الأعضاء صحة مطلقة ، وإنما الصلاح أن لا تشابه مريض القلب في شيء من أموره ، وإن خفي عليك مرض ذلك العضو ؛ لكن يكفيك أن فساد الأصل لابد أن يؤثر في الفرع ومن انتبه لهذا قد يعلم بعض الحكمة التي أنزلها الله فإن مَنْ في قلبه مرض قد يرتاب في الأمر بنفس المخالفة لعدم استبانته لفائدته أو يتوهم أن ذلك من جنس أمر الملوك والرؤساء القاصدين للعلو في الأرض ، ولعمري إن النبوة غاية الملك الذي يؤتيه الله من يشاء وينزعه ممن يشاء ، ولكن ملك النبوة هو غاية صلاح من أطاع الرسول من العباد في معاشه ومعاده ، وحقيقة الأمر أن جميع أعمال الكافِر وأموره لابد فيهما من خلل يمنعها أن تتم له منفعة بها ، ولو فرض صلاح شيء من أموره على التمام لاستحق بذلك ثواب الآخرة ، ولكن كل أموره إما فاسدة وإما ناقصة ؛ فالحمد لله على نعمة الإسلام التي هي أعظم النعم وأمّ كل خير كما يحب ربُّنا ويرضى .

فقد تبين أن نفس مخالفتهم أمر مقصود للشارع في الجملة ، ولهذا كان الإمام أحمد بن حنبل وغيره من الأئمة رضي الله عنهم يعللون الأمر بالصبغ بعلة المخالفة .

قال حنبل : سمعت أبا عبد الله يقول : ما أحب لأحد إلا أن يغير الشَّيب ولا يتشبه بأهل الكتاب لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « **غيروا الشيب ولا تشبهوا بأهل الكتاب** » .

وقال إسحٰق بن إبراهيم : سمعت أبا عبد الله يقول لأبي : يا أبا هاشم اختضب ولو مرة واحدة فأحب لك أن تختضب ولا تشبه باليهود .

وهذا اللفظ الذي احتج به أحمد قد رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود** » قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وقد رواه النسائي من حديث محمد بن كناسة عن هشام عن عروة عن عثمان بن عروة عن أبيه عن الزبير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود** » ورواه أيضاً من حديث عروة عن عبد الله بن عمر لكن قال النسائي : كلاهما ليس بمحفوظ ، وقال الدارقطني : المشهور عن عروة مرسلاً .

وهذا اللفظ أدل على الأمر بمخالفتهم والنهي عن مشابهتهم ؛ فإنه إذ نهى عن التشبه بهم في بقاء بياض الشيب الذي ليس من فعلنا فلأن ينهى عن إحداث التشبه بهم أولى ولهذا كان هذا التشبه بهم يكون محرماً بخلاف الأول .

وأيضاً ففي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **خالفوا المشركين أحفوا الشارب واعْفُوا اللحى** » رواه البخاري ومسلم وهذا لفظه : (فأمر بمخالفة المشركين مطلقاً ثم قال : « **احفوا الشوارب واعفوا اللحى** » مقصُود هذه الجملة الثانية بدل من الأولى فإن الإبدال يقع في الجمل كما يقع في المفردات كقوله : ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ فهذا الذبح والاستحياء هو سوء العذاب ، كذلك هنا هذا هو المخالفة للمشركين المأمور بها هنا لكن الأمر بها أولاً فلفظ (مخالفة المشركين) دليل على أن جنس المخالفة أمر مقصود للشارع وإن عينت هنا في هذا الفعل ؛ فإن تقديم المخالفة علة تقديم العام على الخاص كما يقال : أكرم ضيفك أطعمه وحادثه ، فأمرك بالإكرام أولاً دليل على أن إكرام الضيف مقصود ، ثم عينت الفعل الذي يكون إكراماً له في ذلك الوقت والتقرير من هذا الحديث شبيه

بالتقرير من قوله : « **لا يصبغون فخالفوهم** » .

وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **جُزُّوا الشوارب وأرخوا اللحى خالفوا المجوس** » فعقب الأمر بالوصف بالمشتق المناسب وذلك دليل على أن مخالفة المجوس أمر مقصود للشارع ، وهو العلة في هذا الحكم أو علة أخرى أو بعض علة وإن كان الأظهر عند الإطلاق أنه علة تامة ولهذا لما فهم السلف كراهة التشبه بالمجوس في هذا وغيره كرهوا أشياء غير منصوبة بعينها عن النبي صلى الله عليه وسلم من هدي المجوس .

وقال المروزي : سألت أبا عبد الله يعني أحمد بن حنبل عن حلق القفا فقال : هو من فعل المجوس ومن تشبه بقوم فهو منهم .

قال أيضاً : قيل لأبي عبد الله : تكره للرجل أن يحلق قفاه أو وجهه فقال : أما أنا فلا أحلق قفاي وقد روي فيه حديث مرسل عن قتادة في كراهيته وقال : إن حلق القفا من فعل المجوس قال : وكان أبو عبد الله يحلق قفاه وقت الحجامة وقال أحمد أيضا : لا بأس أن يحلق قفاه قبل الحجامة .

وقد روى عنه ابن منصور قال : سألت أحمد عن حلق القفا فقال : لا أعلم فيه حديثاً إلا ما يروى عن إبراهيم أنه كره قردايرقوس[1] ذكر الخلال هذا وعميرة .

وذكر أيضاً بإسناده عن الهيثم بن حميد قال : حف القفا من شكل المجوس .

وعن المعتمر بن سليمان التيمي قال : كان أبي إذا جَزَّ شَعره لم يحلق قفاه . قيل له : لم ؟ قال : كان يكره أن يتشبه بالعجم .

والسلف تارة يعللون الكراهة بالتشبه بأهل الكتاب ، وتارة بالتشبه

---

(١) كذا في الأصل ولعلها اسم فارسي لنوع من الحلاقة كان معروفاً عندهم .

بالأعاجم ، وكلا العلتين منصوص في السنة مع أن الصادق صلى الله عليه وسلم قد أخبر بوقوع المشابهة لهؤلاء وهؤلاء كما قدمنا بيانه .

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم** » رواه أبو داود . وهذا مع أن نزع اليهود نعالهم مأخوذ عن موسى عليه السلام لما قيل له : ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾.

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **فَصْلُ ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أَكْلَة السّحر** » رواه مسلم في صحيحه وهذا يدل على أن الفصل بين العبادتين أمر مقصود للشارع وقد صرح بذلك فيما رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **لا يزال الدين ظاهراً ما عجَّلَ الناسُ الفِطر** » لأن اليهود والنصارى يؤخرون وهذا نص في أن ظهور الدين الحاصل بتعجيل الفطر هو لأجل مخالفة اليهود والنصارى وإذا كانت مخالفتهم سبباً لظهور الدين ؛ فإنما المقصود بإرسال الرسل أن يظهر دين الله علي الدين كله فتكون نفس مخالفتهم من أكبر مقاصد البعثة ، وهكذا روى أبو داود من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **لا تزال أمتي بخير** – أو قال – **على الفطرة ما لم يؤخر المغرب إلى أن تشتبك النجوم** » ورواه ابن ماجة من حديث العباس ، ورواه الإمام أحمد من حديث السائب بن يزيد وقد جاء مفسراً تعليله « **ولا يزالون بخير ما لم يؤخروا المغرب إلى طلوع النجوم مضاهاة لليهود وما لم يؤخر الفجر إلى محَاقِ النجوم مضاهاة للنصرانية** » .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا أبو معاوية حدثنا الصلت بن بهرام عن الحارث بن وهب عن عبد الرحمن الصنابحي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **لا تزال أمتي على مُسْكَة ما لم ينتظروا بالمغرب اشتباك النجوم مضاهاة لليهود وما لم ينتظروا بالفجر محاق النجوم مضاهاة للنصرانية وما لم يكلوا الجنائز إلى أهلها** » .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا عبيد الله ابن إياد بن لقيط عن أبيه عن ليلى امرأة بشر بن الخصاصية قالت : أردت أن أصوم يومين مواصلة فنهاني عنه بشر وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاني عن ذلك وقال : « **إنما يفعل ذلك النصارى صوموا كما أمركم الله وأتموا الصوم كما أمركم الله** ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ **فإذا كان الليل فأفطروا** » وقد رواه أحمد في المسند . فعلل النهى عن الوصال بأنه صوم النصارى وهو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويشبه أن يكون من رهبانيتهم التي ابتدعوها .

وعن حماد عن ثابت عن أنس رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يواكلوها ولم يجامعوها في البيوت فسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾ إلى آخر الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **اصنعوا كل شي إلا النكاح** » فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه فجاء أسيد ابن حُضَير وعَبّاد بن بِشر فقالا : يا رسول الله إن اليهود تقول كذا وكذا أفلا نجامعهن فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننا أن قد وجد عليهما فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل في أثرهما فسقاهما فعرفنا أنه لم يجد عليهما » رواه مسلم فهذا الحديث يدل على كثرة ما شرعه لنبيه من مخالفة اليهود بل على أنه خالفهم في عامة أمورهم حتى قالوا : ما يريد أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه .

ثم إن المخالفة كما سنبينها تارة تكون في أصل الحكم وتارة في وصفه ، ومجانبة الحائض لم يخالفوا في أصلها بل خالفوا في وصفها حيث شرع الله مقاربة الحائض في غير محل الأذى فلما أراد بعض الصحابة أن يتعدى فى المخالفة إلى ترك ما شرعه الله تغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا الباب باب الطهارة كان على اليهود فيه أغلال عظيمة فابتدع النصارى ترك ذلك كله بلا شرع من الله حتى إنهم لا ينجسون شيئاً فهدى الله الأمة الوسط بما شرعه لها إلى الوسط من ذلك ، وإن كان ما كان عليه اليهود كان أيضاً مشروعاً فاجتناب ما لم يشرع

الله اجتنابه مقاربة لليهود ، وملابسة ما شرع الله اجتنابه مقاربة للنصارى ، وخير الهدي هـدي محمد صلى الله عليه وسلم .

وعن أبي أمامة عن عمرو بن عَبَسَة قال : كنتُ وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة فإنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان قال : فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً فقعدت على راحلتي فقدمت عليه فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفياً جُرآء عليه قومُه فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له : ما أنت ؟ فقال : « **أنا نبي** » فقلت : وما نبي ؟ فقال : « أرسلني الله » فقلت : بأي شيء **أرسلك** ؟ قال : « **أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحَّد الله لا يشرك به شيء** » فقلت له : فمن معك على هذا ؟ قال : « **حر وعبد** » قال : ومعه يومئذ أبو بكر وبلال فقلت : إني متبعك قال : « **إنك لن تستطيع ذلك يومك هذا ألا ترى حالي وحال الناس ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرتُ فأتني** » قال : فذهبت إلى أهلي وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وكنت في أهلي فجعلت أستخبر الأخبار وأسأل الناس ، حتى قدم نفر من أهل يثرب أي من أهل المدينة فقلت : ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة ؟ فقالوا : الناس إليه سراع وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك فقدمت المدينة فدخلت عليه فقلت : يا رسول الله أتعرفني قال : « **نعم أنت الذي لقيتني بمكة** » فقلت : يا رسول الله أخبرني عما علمك الله وأجهله ، أخبرني عن الصلاة قال : « **صل صلاة الصبح ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس حتى ترتفع فإنها تطلع حين تطلع بين قَرْني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار ، ثم صل فإن الصلاة مشهودة محضورة حتي يستقل الظل بالرمح ثم أقصر عن الصلاة فإن حينئذ تُسَجَّر جهنم ، فإذا أقبل الفيءُ فصلِّ فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى تصلى العصر ، ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس ، فإنها تغرب بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار** »وذكر الحديث . رواه مسلم ؛ فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت الغروب معللاً ذلك النهي بأنها تطلع وتغرب بين قرني شيطان وأنه حينئذ يسجد لها الكفار ، ومعلوم

أن المؤمن لا يقصد السجود إلا لله تعالى وأكثر الناس لا يعلمون أن طلوعها وغروبها بين قرني شيطان ولا أن الكفار يسجدون لها ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة في هذا الوقت حسماً لمادة المشابهة بكل طريق ويظهر بعض فائدة ذلك بأن من الصابئة المشركين ممن يظهر الإسلام يعظم الكواكب ويزعم أنه يخاطبها بحوائجه ويسجد لها وينحر ويذبح وقد صنف بعض المنتسبين إلى الإسلام[1] في مذهب المشركين من الصابئة والبراهمة كتباً في عبادة الكواكب توسلاً بذلك زعموا إلى مقاصد دنيوية من الرئاسة وغيرها وهي من السحر الذي كان عليه الكنعانيون الذي كان ملوكهم النماردة الذي بعث الله الخليل صلوات الله وسلامه عليه بالحنيفية وإخلاص الدين كله لله إلى هؤلاء المشركين ، فإذا كان في هذه الأزمنة من يفعل مثل هذا تحققت حكمة الشارع صلوات الله عليه وسلامه في النهي عن الصلاة في هذه الأوقات سدًّا للذريعة ، وكان فيه تنبيه على أن كل ما يفعله المشركون من العبادات ونحوها مما يكون كفراً ومعصية بالنية ينهى المؤمنون عن ظاهره وإن لم يقصدوا به قصد المشركين سدًّا للذريعة وحَسْماً للمادة ، ومن هذا الباب أنه صلى الله عليه وسلم إذا صلى إلى عود أو عمود جعله إلى حاجبه الأيمن أو الأيسر ولم يَصْمِد له صَمْداً ولهذا نهى عن الصلاة إلى ما عُبد من دون الله في الجملة وإن لم يكن العابد يقصد ذلك ؛ ولهذا ينهى عن السجود لله بين يدي الرجل وإن لم يقصد الساجد ذلك لما فيه من مشابهة السجود لغير الله ؛ فانظر كيف قطعت الشريعة المشابهة في الجهات وفي الأوقات ، وكما لا يصلى إلى القبلة التي يصلون إليها كذلك لا يصلى إلى ما يصلون له ؛ بل هذا أشد فساداً فإن القبلة شريعة من الشرائع قد تختلف باختلاف شرائع الأنبياء أما السجود لغير الله وعبادته فهو محرم في الدين الذي اتفقت عليه رسل الله كما قال تعالى : ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه رأى رجلاً يتكيء على يده اليسرى

(١) كالفخر الرازي الذي ألف كتاب السر المكتوم في مخاطبة النجوم .

وهو قاعد في الصلاة فقال له : لا تجلس هكذا فإن هكذا يجلس الذين يُعَذَّبون . وفي رواية : تلك صلاة المغضوب عليهم ، وفي رواية : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجلس الرجلُ في الصلاة وهو معتمد على يده . روى هذا كله أبو داود ففي هذا الحديث النهي عن هذه الجلسة معللاً بأنها جلسة المعذبين وهذه مبالغة في مجانبة هديهم .

وأيضاً فقد روى البخاري عن مسروق عن عائشة أنها كانت تكره أن يجعل المصلي يده في خاصرته وتقول : إن اليهود تفعله .

ورواه أيضاً من حديث أبي هريرة قال : نهى عن التّخَصُّر في الصلاة وفي لفظ : نهى أن يصلي الرجل مختصراً . قال : وقال هشام وأبو هلال عن ابن سيرين عن أبي هريرة نهى النبي صلى الله عليه وسلم . وهكذا رواه مسلم في صحيحه : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن زياد بن صبيح قال : صليت إلى جنب ابن عمر فوضعت يدي على خاصرتي فلما صلى قال : هذا الصَّلْب في الصلاة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عنه رواه أحمد وأبو داود والنسائي .

وأيضاً عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال : اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلينا وراءه وهو قاعد وأبو بكر يسمع الناس تكبيره فالتفت إلينا فرآنا قياماً فأشار إلينا فقعدنا فصلينا بصلاته قعوداً فلما سَلَّم قال : «**إن كدتم آنفاً تفعلون فعل فارس والروم يقومون على ملوكهم وهم قعود فلا تفعلوا ائتموا بأئمتكم إن صلى قائماً فصلوا قياماً وإن صلى قاعداً فصلوا قعوداً** » رواه مسلم وأبو داود من حديث الليث عن أبي الزبير عن جابر .

ورواه أبو داود وغيره من حديث الأعمش عن أبي سفيان طلحة بن نافع القرشي عن جابر قال : ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرساً بالمدينة فصرعه على جَذْم نخلة فانفكت قدمه فأتيناه نعوده فوجدناه في مَشْرُبة لعائشة يُسبِّح جالساً قال : فقمنا خلفه فسكت عنا ثم أتيناه مرة أخرى نعوده فصلى المكتوبة

جالساً فقمنا خلفه فأشار إلينا فقعدنا قال : فلما قضى الصلاة قال : « **إذا صلى الإمام جالساً فصلوا جلوساً وإذا صلى الإمام قائماً فصلوا قياماً ولا تفعلوا كما يفعل أهل فارس بعظمائها** » وأظن في غير رواية أبي داود : « **وتعظمونى كما يعظم الأعاجم بعضها بعضاً** » . في هذا الحديث أنه أمرهم بترك القيام الذي هو فرض في الصلاة وعلل ذلك بأن قيام المأمومين مع تعود الإمام يشبه فعل فارس والروم بعظمائهم في قيامهم وهم قعود ، ومعلوم أن المأموم إنما نوى أن يقوم لله لا لإمامه ، وهذا تشديد عظيم في النهى عن القيام للرجل القاعد ونهي أيضاً عما يلهيه ذلك وإن لم يقصد به ذلك ، ولهذا نهى عن السجود لله بين يدي الرجل ، وعن الصلاة إلى ما عبد من دون الله كالنار ونحوها .

وفي هذا الحديث أيضاً نهى عما يشبه فعل فارس والروم وإن كانت نيتنا غير نيتهم ، لقوله : « **فلا تفعلوا** » فهل بعد هذا في النهي عن مشابهتهم في مجرد الصورة غاية ، ثم هذا الحديث سواء كان مُحْكَماً في قعود الإمام أو منسوخاً فإن الحجة منه قائمة لأن نسخ القعود لا يدل على فساد تلك العلة وإنما يقتضي أنه قد عارضها ما ترجح عليها مثل كون القيام فرضاً في الصلاة فلا يسقط الفرضُ بمجرد المشابهة الصورية ، وهذا محل اجتهاد المشابهة الصورية ، فإذا لم تسقط فرضاً فإن تلك العلة التي علل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون سليمة عن معارض أو عن نسخ لأن القيام في الصلاة ليس بمشابهة في الحقيقة فلا يكون محذوراً ، فالحكم إذا علل بعلة ثم نسخ مع بقاء العلة فلابد أن يكون غيرها ترجح عليها وقت النسخ أو ضعف تأثيرها أما أن تكون في نفسها باطلة فهذا محال هذا كله لو كان الحكم هنا منسوخاً فكيف والصحيح أن هذا الحديث محكم قد عمل به غير واحد من الصحابة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كونهم علموا بصلاتهم في مرضه الذي تُوفِّي فيه ، وقد استفاض عنه صلى الله عليه وسلم الأمر به استفاضة صحيحة صريحة يمتنع معها أن يكون حديث مرض موته ناسخاً له على ما هو مقرر في غير هذا الموضع إما بجواز الأمرين إذ فعل القيام لا ينافي فعل القعود ، وإما بالفرق بين المبتدي للصلاة قاعداً ، وبين الصلاة

التي ابتدأها الإمام قائماً ؛ لعدم دخول هذه الصلاة في قوله : « **وإذا صلى قاعداً** » ، ولعدم المفسدة التي علل بها ؛ ولأن بناء فعل آخر الصلاة على أولها أولى من بنائها على صلاة الإمام ، ونحو ذلك من الأمور المذكورة في غير هذا الموضع .

وأيضاً فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اتبع جنازة لم يقعد حتى توضع في اللحد فتعرَّض حَبْرٌ فقال : هكذا نصنعُ يا محمد قال : فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « **خالفوهم** » رواه أبو داود وابن ماجة والترمذي وقال الترمذي : بشر بن رافع ليس بالقوى في الحديث .

قلت : قد اختلف العلماء في القيام للجنازة إذا مرَّت ومعها شيعت . وأحاديث الأمر بذلك كثيرة مستفيضة ومن اعتقد نسخها أو نسخ القيام للمارة فعمدته حديث علي وحديث عبادة هذا وإن كان القول بهما كليهما ممكناً لأن المشَيِّع يقوم لها حتى توضَعَ عن أعناق الرجال لا في اللحد فهذا الحديث إما أن يقال به جمعاً بينه وبين غيره أو يكون ناسخاً لغيره ، وقد علل بالمخالفة ومن لا يقول به يضعفه وذلك لا يقدح في الاستشهاد والاعتضاد به على جنس المخالفة .

وقد روى البخاري عن عبد الرحمن بن القاسم أن القاسم كان يمشي بين يدي الجنازة ولا يقوم لها ويخبر عن عائشة أنها قالت : كان أهل الجاهلية يقومون لها يقولون إذا رأوها كنتِ في أهلك ما كنت مرتين . فقد استدل من كره القيام بأنه كان فعل الجاهلية وليس الغرض هذا الكلام في عين هذه المسألة .

وأيضاً فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**اللحد لنا والشقّ لغيرنا** » رواه أهل السنن الأربعة .

وعن جرير بن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **اللحد لنا والشق لغيرنا** » رواه أحمد وابن ماجة وفي رواية لأحمد : « **والشق لأهل الكتاب** » وهو مروي من طرق فيها لين لكن يعضد بعضها .

بعضاً وفيه التنبيه على مخالفتنا لأهل الكتاب حتى في وضع الميت في أسفل القبر .

وأيضاً عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ليس منا من ضرب الخدود وشقَّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية** » ودعوى الجاهلية ندب الميت وتكون دعوى الجاهلية في المصيبة .

ومنها قوله فيما رواه أحمد عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **من تَعَزَّ بعزاء الجاهلية فأعِضُّوه بهَنِ أبيه ولا تَكْنُوا**[1] » وأيضاً عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة** » وقال : « **النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب** » رواه مسلم . ذم في هذا الحديث من دعا بدعوى الجاهلية ، وأخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذمّاً لمن لم يتركه ، وهذا كله يقتضي بأن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام ، وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها ، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم وهذا كقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فإن ذلك ذم للتبرج وذم لحال الجاهلية الأولى ، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة ومنه قوله لأبي ذر رضي الله عنه لما عَيّر رجلاً بأمه : « **إنك امرؤ فيك جاهلية** » فإنه ذم لذلك الخُلق والأخلاق الجاهلية التي لم يجيء بها الإسلام ومنه قوله تعالى : ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن إضافة الحمية إلى الجاهلية يقتضي ذمها فما كان من أخلاقهم وأفعالهم فهو كذلك .

وهذا ما رواه البخارى في صحيحه عن عبد الله بن أبي يزيد أنه سمع ابن

---

(١) الهن هنا فرج الرجل والمعنى قولوا له : عض بهن أبيك وكانت هذه عند العرب عبارة مقصود بها الإهانة والتحقير .

عباس قال : ثلاث خِلال من خلال الجاهلية الطعن في الأنساب والنياحة ونسيت الثالثة قال سفيان : ويقولون : إنها الاستسقاء بالأنواء .

وروى مسلم في صحيحه عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **اثنتان في الناس هما بهما كفر الطعن في النسب والنياحة على الميت** » فقوله : « **هما بهم** » أي هاتان الخصلتان هما كفر قائم بالناس فنفس الخصلتين كفر حيث كانتا من أعمال الكفر وهما قائمتان بالناس لكن ليس كل من قام به شعبة من شعب الكفر يصير بها كافراً الكفر المطلق حتى تقوم به حقيقة الكفر ، كما أنه ليس كل من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير بها مؤمناً حتى يقوم به أصل الإيمان وحقيقته ، وفرق بين الكفر المعرف باللام كما في قوله صلى الله عليه وسلم : « **ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة** » وبين كفر منكر في الإثبات ، وفرق أيضاً بين معنى الاسم المطلق إذا قيل كافر أو مؤمل وبين المعنى المطلق للاسم في جميع موارده كما في قوله : « **لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض** » فقوله : « **يضرب بعضكم** » بعض تفسير للكفار في هذا الموضع وهؤلاء يسمون كفاراً تسمية مقيدة ولا يدخلون في الاسم المطلق حيث قال : ﴿ **فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟** ﴾ .

ومن هذا الباب ما خرجاه في الصحيحين عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا وكان من رجل لَعَّاب فكسع أنصاريّاً فغضب الأنصاري غضباً شديداً حتى تداعوا وقال الأنصاري : يا للأنصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « **ما بال دعوى الجاهلية !** » ثم قال : « **ما شانهم ؟** » فأخبروه بكَسْعَة المهاجرى للأنصاري ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **دعوها فإنها منتنة** » وقال عبد الله بن أبي بن سلول : أو قد تداعو علينا : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ فقال عمر : ألا نقتل هذا الخبيث – لعبد الله –

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **لا يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه** » .

ورواه مسلم من حديث أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه قال : « اقتتل غلامان غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار فنادى المهاجري يا للمهاجرين ونادى الأنصاري يا للأنصار فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: « **ما هذا أدعوى الجاهلية؟!**» قالوا : لا يا رسول الله إلا أن غلامين اقتتلا فكسح أحدُهما الآخر فقال : « **لا بأس لِيَنْصُرِ الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصر وإن كان مظلوماً فلينصره** » فهذان الاسمان المهاجرون والأنصار اسمان شرعيان جاء بهما الكتاب والسنة ، وسماهما الله بهم لما سمانا المسلمين من قبل وفي هذا .

وانتساب الرجل إلى المهاجرين والأنصار انتساب حسن محمود عند الله وعند رسوله ، ليس من المباح الذي يقصد به التعريف فقط كالانتساب إلى القبائل والأمصار ولا من المكروه أو المحرم كالانتساب إلى ما يفضي إلى بدعة أو معصية أخرى ، ثم مع هذا لما دعا كل واحد منهما طائفته منتصراً بها أنكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وسماها دعوى الجاهلية حتى قيل له : إن الداعى بها إنما هما غلمان لم يصدر ذلك من الجماعة فأمر بمنع الظالم وإعانة المظلوم ، ليبين النبي صلى الله عليه وسلم أن المحذور من ذلك إنما هو تعصب الرجل لطائفته مطلقاً فِعلَ أهل الجاهلية ، فأما نصرها بالحق من غير عدوان فحسن واجب أو مستحب .

ومثل هذا ما روى أبو داود وابن ماجة عن واثلة بن الأسْقَع رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ما العصبية ؟ ، قال : « **أن تُعين قومك على الظلم** » .

وعن سراقة ابن مالك بن جُعْشُم المُدْلِجِّي قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « **خيركم من دافع عن عشرته ما لم يأثم** » رواه أبو داود .

وروي أبو داود أيضاً عن جبير بن مُطعِم رضي الله عنه أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال : « **ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية** » .

وروى أبو داود أيضاً عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **من نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذي ردِّى فهو يُنْزَع بذنبه** » فإذا كان هذا التداعي في هذه الأسماء وفي هذا الانتساب الذي يحبه الله ورسوله فكيف بالتعصب مطلقاً ، والتداعي للنسب والإضافات التي هي إما مباحة أو مكروهة ؛ وذلك أن الانتساب إلى الاسم الشرعي أحسن من الانتساب إلى غيره ، ألا ترى إلى ما رواه أبو داود من حديث محمد بن إسحاق عن داود بن حصين عن عبد الرحمن بن أبي عقبة وكان مولى من أهل فارس قال : شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أُحُداً فضربت رجلاً من المشركين فقلت : خذها مني وأنا الغلام الفارسي فالتفت إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « **هلا قلت : خذها مني وأنا الغلام الأنصاري** » حَضَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم على الانتساب إلى الأنصار وإن كان بالولاء وكان إظهار هذا أحبّ إليه من الانتساب إلى فارس بالصراحة وهي نسبة حق ليست محرمة ويشبه والله أعلم أن يكون من حكمة ذلك أن النفس تحامِي عن الجهة التي تنتسب إليها فإذا كان ذلك لِلّهِ كان خيراً للمرء ، فقد دلت هذه الأحاديث على أن إضافة الأمر إلى الجاهلية يقتضي ذمه والنهي عنه ، وذلك يقتضي المنع من كل أمور الجاهلية مطلقاً وهو المطلوب في هذا الكتاب .

ومثل هذا ما روى سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إن الله قد أذهب عنكم عُبية الجاهلية وفخرها إنما هم فحم من فحم جهنّم أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجُعْلان التي تدفع بآنفِها النَّتن** » رواه أبو داود وغيره وهو صحيح فأضاف العبية والفخر إلى الجاهلية يذمهما بذلك وذلك يقتضي ذمهما بكونهما مضافين إلى الجاهلية ، وذلك يقتضي ذم كل الأمور المضافة إلى الجاهلية .

ومثله ما روى مسلم في صحيحه عن أبي قيس زياد بن رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية ومن قاتل تحت راية عَمياء يغضب لعصبية أو يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية فقتل قُتل قِتلة جاهلية ومن خرج على أمتي يفي برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي لذِى عَهْدها فليس مني ولست منه** » ذكر صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الأقسام الثلاثة التي يعقد لها الفقهاء باب قتال أهل القبلة من البغاة والعداة وأهل العصبية فالقسم الأول الخارجون عن طاعة السلطان فنهى عن نفس الخروج عن الطاعة والجماعة وبين أنه إن مات ولا طاعة عليه لإمام مات ميتة جاهلية ؛ فإن أهل الجاهلية من العرب ونحوهم لم يكونوا يطيعون أميراً عاماً على ما هو معروف من سيرتهم ، ثم ذكر الذي يقاتل تعصباً لقومه أو أهل بلده ونحو ذلك ، وسمى الراية عمياء لأنه الأمر الأعمى الذي لا يُدْرَى وجهه فكذلك قتال العصبية يكون عن غير علم بجواز قتال هذا ، وجعل قِتلة المقتول قتلة جاهلية سواء غضب بقلبه أو دعا بلسانه أو ضرب بيده . وقد فسر ذلك فيما رواه مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ليأتينَّ على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قَتل ولا يدري المقتول على أي شيء قُتل** » فقيل : كيف يكون ذلك ؟ قال : « **الهَرْجُ القاتل والمقتول في النار** » .

(**والقسم الثالث**) : الخوارج على الأمة إما من العداة الذين غرضهم الأموال كقطاع الطريق ونحوهم أو غيرهم الرياسة كما يقتل أهل المصر الذين هم تحت حكم غيْره مطلقاً وإن لم يكونوا مقاتِلة أو من الخارجين عن السنة الذين يستحلون دماء أهل القبلة مطلقاً كالحرورية الذين قتلهم علي رضي الله عنه ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم سمى الميتة والقتلة ميتة جاهلية وقتلة جاهلية على وجه الذم لها أو النهي عنها وإلا لم يكن قد زجر عن ذلك ، فعلم أنه كان قد تقرر عند أصحابه أن ما أضيف إلى الجاهلية من ميتة وقتلة ونحو ذلك فهو مذموم منهي عنه ، وذلك يقتضي ذم كل ما كان من أمور الجاهلية وهو المطلوب .

ومن هذا ما أخرجاه فى الصحيحين عن المعرور بن سويد قال : رأيت أبا ذر عليه حُلّة وعلى غلامه مثلها فسألته عن ذلك فذكر أنه سابّ رجلاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فعيَّره بأمِّهِ فأتى الرجل النبيَّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **إنك امرؤ فيك جاهلية** » وفي رواية ، قلت : على ساعتي هذه من كِبَرِ السِّنِّ ؟ قال : « **نعم . هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم** » ففي هذه الأحاديث أن كل ما كان من أمر الجاهلية فهو مذموم لأن قوله : « **فيك جاهلية** » ذم لتلك الخصلة فلولا أن هذا الوصف يقتضي ذم ما اشتمل عليه لما حصل به المقصود ، وفيه أن التعيير بالأنساب من أخلاق الجاهلية ، وفيه أن الرجل مع فضله وعلمه ودينه قد يكون فيه بعض هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه .

وأيضاً ما رواه مسلم في صحيحه عن نافع عن جبير بن مُطعم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **أبغض الناس إلى الله ثلاثة مُلْحِدٌ في الحرم ، ومُبْتغٍ في الإسلام سنة جاهلية ، ومُطِلٌّ دم امريء بغير حق ليريق دمه** » أخبر صلى الله عليه وسلم أن أبغض الناس إلى الله هؤلاء الثلاثة ، وذلك لأن الفساد إما في الدين ، وإما في الدنيا ، فأعظم فساد الدنيا قتل النفوس بغير الحق ، ولهذا كان أكبر الكبائر بعد أعظم فساد الدين الذي هو الكفر وأما فساد الدين فنوعان : نوع يتعلق بالعمل ، ونوع يتعلق بمحل العمل . فأما المتعلق بالعمل فهو ابتغاء سنة الجاهلية ، وأما ما يتعلق بمحل العمل فالإلحاد في الحرم لأن أعظم محال العمل هو الحرم وانتهاك حرمة المحل المكاني أعظمُ من انتهاك حرمة المحل الزماني ولهذا حرم من تناول المباحات من الصيد والنبات في البلد الحرام ما لم يحرم مثله في الشهر الحرام ولهذا كان الصحيح أن حرمة القتال في البلد الحرام باقية كما دلت عليه النصوص الصحيحة بخلاف الشهر الحرام فلهذا والله أعلم ذكر صلى الله عليه وسلم الإلحاد في الحرم وابتغاء سنة الجاهلية والمقصود

أن من هؤلاء الثلاثة من ابتغى في الإسلام سنة جاهلية فسواء قيل مبتغياً أو غير مبتغ فالابتغاء هو الطلب والإرادة فكل من أراد في الإسلام أن يعمل بشيء من سنن الجاهلية دخل في هذا الحديث والسنة الجاهلية كل عادة كانوا عليها فإن السنة هي العادة وهي الطريق التي تكرر لتَشَّيع لأنواع الناس مما يعدونه عبادة أو لا يعدونه عبادة قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **لتتبعن سنن من كان قبلكم** » والاتباع هو الاقتفاء والاستنان فمن عمل بشيء من سننهم فقد اتبع سنة جاهلية وهذا نص عام يوجب تحريم متابعة كل شيء كان من سنن الجاهلية في أعيادهم وغير أعيادهم .

ولفظ الجاهلية قد يكون اسماً للحال وهو الغالب في الكتاب والسنة وقد يكون اسماً لذي الحال فمن الأول قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر رضي الله عنه : « **إنك امرؤ فيك جاهلية** » .

وقول عمر : إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة .

وقول عائشة : كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء .

وقولهم : يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر أي في حال جاهلية أو طريقة جاهلية أو عادة جاهلية ونحو ذلك فإن لفظ الجاهلية وإن كان في الأصل صفة لكنه غلب عليه الاستعمال حتى صار اسماً ومعناه قريب من معنى المصدر وأما الثاني فتقول : طائفة جاهلية وشاعر جاهلي وذلك نسبة إلى الجهل الذي هو عدم العلم أو عدم اتباع العلم فإن من لم يعلم الحق فهو جاهل جهلاً بسيطاً فإن اعتقد خلافه فهو جاهل جهلاً مركبًا ؛ فإن قال خلاف الحق عالماً بالحق أو غير عالم فهو جاهل أيضاً كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **إذا كان أحدكم صائماً فلا يرفُث ولا يفسق ولا يَجْهل** » ومن هذا قول بعض الشعراء :

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وهذا كثير وكذلك من عمل بخلاف الحق فهو جاهل ، وإن علم أنه مخالف للحق كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : كل من عمل سوءاً فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلابد من غفلة القلب عنه.، أو ضعف القلب على مقاومة ما يعارضه ، وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلاً بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازاً أو إن لم يكن كل من ترك شيئاً من الأعمال كافراً أو خارجاً من أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ، نحو ذلك من الأسماء ، ولهذا يسمى الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى ، وعمياً ، وصماً ، وبكماً ، وضالين ، وجاهلين ، ويصفهم بأنهم لا يعقلون ، ولا يسمعون ، ويَصِف المؤمنين بأولي الألباب ، وأولي النُّهَى ، وأنهم مهتدون ، وأن لهم نوراً ، وأنهم يسمعون ويعقلون .

فإذا تبين ذلك فالناس قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا في حال جاهلية منسوبة إلى الجهل فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جهال وإنما يفعله جاهل وكذلك كل ما يخالف ما جاء به المرسلون من يهودية ونصرانية فهى جاهلية ، وتلك كانت الجاهلية العامة فأما بعد ما بعث الله الرسول صلى الله عليه وسلم فالجاهلية المطلقة قد تكون في مصر دون مصر كما هي في دار الكفار وقد تكون في شخص دون شخص كالرجل قبل أن يسلم فإنه يكون في جاهلية ، وإن كان في دار الإسلام ، فأما في زمان مطلق فلا جاهلية بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة والجاهلية المقيدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين وفي كثير من المسلمين كما قال صلى الله عليه وسلم : « **أربع في أمتي من أمر الجاهلية** » وقال لأبي ذر : « **إنك امرؤ فيك جاهلية** » ونحو ذلك . فقوله في هذا الحديث : « **ومبتغ في الإسلام سنة جاهلية** » يندرج فيه كل جاهلية مطلقة أو مقيدة يهودية أو نصرانية أو مجوسية أو صابئة أو وثنية أو شركية من ذلك أو بعضه أو منتزعة من بعض

هذه الملل الجاهلية ، فإنها جميعها مبتدعها ومنسوخها صارت جاهلية بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم وإن كان لفظ الجاهلية لا يقال غالباً إلا على حال العرب التي كانوا عليها فإن المعنى واحد وفي الصحيحين عن نافع عن ابن عمر أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحِجر أرضِ ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجينة وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة .

ورواه البخاري من حديث عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئارها ولا يستقوا منها فقالوا : قد عَجَنّا منها واستقينا فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرحوا ذلك العجين ويهرقوا ذلك الماء وفي حديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لما مر بالحجر : « **لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم ما أصابهم** » فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدخول إلى أماكن المعذبين إلا مع البكاء خشية أن يصيب الداخل ما أصابهم ، ونهى عن الانتفاع بمياههم حتى أمرهم مع حاجتهم في تلك الغزوة وهي غزوة العسرة وهي أشد غزوة كانت على المسلمين أن يعلفوا النواضح بعجين مائهم .

وكذلك أيضاً رُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن الصلاة في أماكن العذاب فروى أبو داود عن سليمان بن داود أخبرنا ابن وهب حدثني ابن لهيعة ويحيى بن أزهر عن عمار بن مسعد المرادي عن أبي صالح الغفاري أن عليًّا رضي الله عنه مر ببابل وهو يسير فجاءه المؤذن يؤذنه بصلاة العصر فلما برز منها أمرالمؤذن فأقام الصلاة فلما فرغ قال : ان حبيبي النبي صلى الله عليه وسلم نهاني أن أصلي في المقبرة ونهاني أن أصلي في أرض بابل فإنها ملعونة .

ورواه أيضاً عن أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أيضاً أخبرني يحيى بن أزهر وابن لهيعة عن الحجاج بن شداد عن أبي صالح الغفاري عن علي بمعناه ولفظه (فلما خرج منها مكان برز) .

وقد روى الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله بإسناد أصح من هذا عن علي رضي الله عنه نحواً من هذا أنه كره الصلاة بأرض بابل ، وأرض الخسف ، أو نحو ذلك . وكره الإمام أحمد الصلاة في هذه الأمكنة اتباعاً لعلي رضي الله عنه وقوله : نهاني أن أصلي في أرض بابل فإنها ملعونة يقتضي أن لا يصلى في أرض ملعونة والحديث المشهور في الحجر يوافق هذا فإنه إذا كان نهى عن الدخول إلى أرض العذاب دخل في ذلك الصلاة وغيرها من باب الأولى ويوافق ذلك قوله في مسجد الضرار : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ فإنه كان من أمكنة العذاب قال سبحانه : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ .

وقد روي أنه لما هُدم خرج منه دخان .

وهذا كما أنه ندب إلى الصلاة في أمكنة الرحمة كالمساجد الثلاثة ومسجد قباء فكذلك نهى عن الصلاة في أماكن العذاب ، فأما أماكن الكفر والمعاصي التي لم يكن فيها عذاب إذا جعلت مكاناً للإيمان والطاعة فهذا حسن كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أهل الطائف أن يجعلوا المسجد مكان طواغيتهم ، وأمر أهل اليمامة أن يتخذوا المسجد مكان بيعة كانت عندهم ، وكان موضع مسجده صلى الله عليه وسلم مقبرة للمشركين فجعله صلى الله عليه وسلم مسجداً بعد نبش القبور . فإذا كانت الشريعة قد جاءت بالنهي عن مشاركة الكفار في المكان الذي حَلَّ بهم فيه العذاب فكيف بمشاركتهم في الأعمال التي يعملونها واستحقوا بها العذاب ، فإنه إذا قيل هذا العمل الذي يعملونه لو تجرد عن مشابهتهم لم يكن محرما ، ونحن لا نقصد التشبه بهم بل المشاركة في العمل أقرب إلى اقتضاء العذاب من الدخول في الديار فإن جميع ما يعملونه مما ليس من أعمال المسلمين السابقين إما كفرو ، وإما معصية ، وإما شعار كفر ، أو شعار معصية ، وإما مظنة للكفر والمعصية ، وإما أن يخاف أن يجر إلى المعصية ، وما أحسب أحداً ينازع في جميع هذا ولئن نازع فيه فلا يمكنه أن ينازع في أن المخالفة فيه أقرب إلى المخالفة في الكفر والمعصية وأن حصول هذه المصلحة في الأعمال أقرب من حصولها في

المكان . ألا ترى أن متابعة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في أعمالهم أنفع وأولى من متابعتهم في مساكنهم ورؤية آثارهم .

وأيضاً مما هو صريح في الدلالة ما روى أبو داود في سننه حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا أبو النصريفي هاشم بن القاسم حدثنا عبد الرحمن بن ثابت حدثنا حسان بن عطية عن أبي منيب الجرش عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **من تشبه بقوم فهو منهم** » وهذا إسناد جيد فإن ابن أبي شيبة وأبا النضر وحسان بن عطية ثقات مشاهير أجلاء من رجال الصحيحين وأما عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان فقال يحيى ابن معين وأبو زرعة وأحمد بن العجلي : ليس به بأس وقال عبد الرحمن بن إبراهيم دُحَيم هو ثقة وقال أبو حاتم : هو مستقيم الحديث وأما أبو منيب الجرشي فقال فيه أحمد بن عبد الله العجلي : هو ثقة وما علمت أحداً ذكره بسوء وقد سمع منه حسان بن عطية وقد احتج الإمام أحمد وغيره بهذا الحديث وهذا الحديث أقل أحواله أن يقتضي تحريم التشبه بهم وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم كما في قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ وهو نظير ما سنذكره عن عبد الله ابن عمرو أنه قال : من بنى بأرض المشركين وصنع نيروزهم ومهْرَجانهم وتشبه بهم حتى يموت حشر معهم يوم القيامة . فقد يحمل هذا على التشبه المطلق فإنه يوجب الكفر ويقتضي تحريم أبعاض ذلك وقد يحمل على أنه صار منهم في القدر المشترك الذي شابههم فيه فإن كان كفراً أو معصية أو شعاراً للكفر أو للمعصية كان حكمه كذلك وبكل حال فهو يقتضي تحريم التشبه بهم بعلة كونه تشبهاً والتشبه يعم من فعل الشيء لأجل أنهم فعلوه وهو نادر ، ومن تبع غيره في فعل الغرض له في ذلك إذا كان أصل الفعل مأخوذاً عن ذلك الغير ، أما من فعل الشيء واتفق أن الغيرَ فعله أيضاً ولم يأخذه أحدهما عن صاحبه ففي كون هذا تشبهاً نظر ، لكن قد ينهى عن هذا لئلا يكون ذريعة إلى التشبه ولما فيه من المخالفة كما أمر بصبغ اللحى وإعفائها وإحفاء الشوارب مع أن قوله صلى الله عليه وسلم : « **غيِّروا الشيب ولا تَشَبَّهُوا باليهود** » دليل على أن التشبه بهم يحصل بغير قصد

منا ولا فعل ؛ بل بمجرد تغير ما خُلق فينا وهذا أبلغ في الموافقة الفعلية الاتفاقيّة .

وقد روي في هذا الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن التشبه بالأعاجم وقال : « **من تشبه بقوم فهو منهم** » ذكره القاضي أبو يعلى .

وبهذا احتج غير واحد من العلماء على كراهة أشياء من غير زِي المسلمين قال محمد بن حرب : قال سئل أحمد عن نَعْل سِنْدِيٍّ يخرج فيه فكرهه للرجل والمرأة وقال : للكنيف والوضوء وأكره الصَّرار وقال : هو من زي الأعاجم .

وقد سئل سعيد بن عامر عنه فقال : سنة نبينا أحب إلينا من سنة باكهن وقاله في رواية المروذي قد سأله عن النعل السندي فقال : أما أنا فلا أستعملها ولكن إذا كان للطين أو المخرج فأرجو وأما من أراد الزينة فلا ورأى على باب المخرج نعلاً مسنديّاً فقال : نتشبه بأولاد بالملوك .

وقال حرب الكرماني أيضاً : قلت لأحمد : فهذه النعال الغلاظ قال : هذه السندية إذا كانت للوضوء أو للكنيف أو لموضع ضرورة فلا بأس وكأنه كره أن يمشي بها في الأزقة . قيل : فالنعل من الخسب قال : لا بأس بها أيضاً إذا كان موضع ضرورة .

قال حرب : حدثنا محمد بن نصر،حدثنا حبان بن موسى قال : سئل ابن المبارك عن هذه النعال الكرمانية فلم تعجبه وقال : أما في هذه غُنية عن تلك .

وروى الخلال عن أحمد بن إبراهيم الدَّورقي قال : سألت سعيد بن عامر عن لباس النعال السِّبتية فقال : زي نبينا أحبُّ إلينا من زي باكهن ملك الهند ولو كان في مسجد المدينة لأخرجوه من المدينة .

سعيد بن عامر الضبي إمام أهل البصرة علما وديناً من شيوخ الإمام أحمد قال يحيى بن سعيد القطان وذكر عنده سعيد بن عامر الضبي فقال : هو شيخ البصرة من أربعين سنة وقال أبو مسعود بن الفرات : ما رأيت بالبصرة مثل سعيد بن عامر .

وقال الميموني : رأيت أبا عبد الله عمامته تحت ذقنه ويكره غير ذلك وقال : العرب عمائمها تحت أذقانها .

وقال أحمد في رواية الحسن بن محمد : يكره أن تكون العمامة تحت الحنك كراهة شديدة وقال : إنما يعتم بمثل ذلك اليهود والنصارى والمجوس . ولهذا أيضاً كره أحمد لباس أشياء كانت للظلمة في وقته من السواد ونحوه وكره هو وغيره تغميض العين في الصلاة وقال : هو من فعل اليهود .

وقد روى أبو حفص العُكبرى بإسناده عن بلال بن أبي حَدْرَد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **تمعددوا واخشوشنوا وانتعلوا وامشوا حفاة** » وهذا مشهور محفوظ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كتب به إلى المسلمين وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى في كلام الخلفاء الراشدين .

وقال الترمذي : حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **ليس منا من تشبه بغيرنا لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى فإن تسليم اليهود الإشارة بالأصابع وتسليم النصارى الإشارة بالأكُفِّ** » قال : وروى ابن المبارك هذا الحديث عن ابن لهيعة ولم يرفعه .

وهذا وإن كان فيه ضعف فقد تقدم الحديث المرفوع : « **من تشبه بقوم فهو منهم** » وهو محفوظ عن حذيفة بن اليمان أيضاً من قوله وحديث ابن لهيعة يصلح للاعتضاد كذا كان يقول أحمد وغيره .

وأيضاً ما روى أبو داوذ حدثنا قتيبة بن سعيد الثقفي حدثنا محمد بن ربيعة حدثنا أبو الحسن العسقلاني عن أبي جعفر بن محمد بن علي بن ركانة أو محمد بن علي بن رُكانة عن أبيه أن رُكانة صارع النبي صلى الله عليه وسلم فصرعه النبي صلى الله عليه وسلم قال ركانة : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « **فَرْقُ ما بيننا وبين المشركين بالعمائم على القلانس** » وهذا يقتضي أنه حسن عند أبي داود .

ورواه الترمذي أيضاً عن قتيبة وقال : غريب وليس إسناده بالقائم ولا نعرف أبا الحسن العسقلاني ولا ابن ركانة وهذا القدر لا يمنع أن يعتضد بهذا ويستشهد به وهذا بَينَ في أن مفارقة المسلم المشرك في اللباس أمر مطلوب للشارع كقوله : « **فَصْلُ ما بين الحلال والحرام الدُّف والصوت** » فإن التفريق بينهما مطلوب في الظاهر إذ الفرق بالاعتقاد والعمل بدون العمامة حاصل ، فلولا أنه مطلوب بالظاهر أيضاً لم يكن فيه فائدة وهذا كما أن الفرق بين الرجال والنساء لما كان مطلوباً ظاهراً وباطناً لعن صلى الله عليه وسلم المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء وقال : « **أخرجوهم من بيوتكم** » ونفى المخنث لما كان رجلاً متشبهاً في ظاهره بغير جنسه .

وأيضاً عن أبي غَطَفان المري سمعت عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول حين صام النبي صلى الله عليه وسلم يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا يا رسول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع** » قال : فلم يأت العام المقبل حتى توفّي رسول الله صلى الله عليه وسلم » . رواه مسلم في صحيحه .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **صوموا يوم عاشوراء وخالفوا فيه اليهود وصوموا يوماً قبله أو يوماً بعده** » والحديث رواه ابن أبي ليلى عن داود ابن علي عن أبيه عن جده ابن عباس .

فتدبر هذا يوم عاشوراء يوم فاضل يكفر صيامه سنة ماضية ، صامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه ورغب فيه ثم لما قيل له قُبَيل وفاته : إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى أمر بمخالفتهم بضم يوم آخر إليه وعزم على فعل ذلك ولهذا استحب العلماء منهم الإمام أحمد أن يصوم تاسوعاء وعاشوراء . وبذلك عللت الصحابة رضي الله عنهم .

قال سعيد بن منصور : حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار سمع عطاء عن

ابن عباس يقول : صوموا التاسع والعاشر خالفوا اليهود .

وأيضاً عن عمر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **إنا أمّة أميّة لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا** » يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين رواه البخاري ومسلم . فوصف هذه الأمة بترك الكتابة والحساب الذي يفعله غيرها من الأمم في أوقات عبادتهم وأعيادهم وأحالها على الرؤية حيث قال في غير حديث : « **صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته** » وفي رواية : « **صوموا من الوَضَح إلى الوَضَح** » أي من الهلال إلى الهلال وهذا دليل على ما أجمع عليه المسلمون إلا من شذ من بعض المتأخرين المخالفين المسبوقين بالإجماع من أن مواقيت الصوم والفطر والنسك ، إنما تقام بالرؤية عند إمكانها لا بالكتاب والحساب الذي تسلكه الأعاجم من الروم ، والفرس ، والقبط ، والهند ، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى .

وقد روى غير واحد من أهل العلم أن أهل الكتابين قبلنا إنما أمروا بالرؤية أيضاً في صومهم وعبادتهم وتأولوا على ذلك قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ ولكن أهل الكتابين بدلوا ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تقدم رمضان باليوم واليومين وعلل الفقهاء ذلك بما يخاف من أن يزاد في الصوم المفروض ما ليس منه كما زاده أهل الكتاب من النصارى ، فإنهم زادوا في صومهم وجعلوه فيما بين الشتاء والصيف وجعلوا له طريقة من الحساب يتعرفونه بها وقد يستدل بهذا الحديث على خصوص النهي عن أعيادهم فإن أعيادهم معلومة بالكتاب والحساب والحديث فيه عموم أو يقال : إذا نهينا عن ذلك في عيد الله ورسوله ففي غيره من الأعياد والمواسم أولى وأحرى أو لما في ذلك من مضارعة الأمة الأمية سائر الأمم .

وبالجملة فالحديث يقتضي أن ترك المشابهة للأمم أقرب إلى حصول الوفاء بالاختصاص .

وأيضاً ففي الصحيحين عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع معاوية

عام حج على المنبر وتناول قُصَّةً من شعر كانت في يد حرسي فقال : يا أ هل المدينة أين علماؤكم ؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن مثل هذه ويقول : « **إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم** » .

وفي رواية سعيد بن المسيب في الصحيح أن معاوية قال ذات يوم : إنكم اتخذتم زي سوء وإن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الزور قال : وجاء رجل بعصا على رأسها خرقة قال معاوية : ألا وهذا الزور قال قتادة : يعني ما يُكَثِّر به النساء أشعارهن من الخرق .

وفي رواية عن ابن المسيب في الصحيح قال : قدم معاوية المدينة فخطبنا وأخرج كُبَّة من شعر فقال : ما كنت أرى أن أحداً يفعَله إلا اليهود إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه فسماه الزور .

فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن وصل الشعر أن بني إسرائيل هلكوا حين أحدثه نساؤهم يحذر أمته مثل ذلك ؛ ولهذا قال معاوية : ما كنت أرى أن أحداً يفعله إلا اليهود ؛ فما كان من زي اليهود الذي لم يكن عليه المسلمون إما أن يكون مما يعذبون عليه أو مظنة لذلك أو يكون تركه حسماً لمادة ما عذبوا عليه لاسيما إذا لَم يتميز ما هو الذي عذبوا عليه من غيره فإنه يكون قد اشتبه المحظور بغيره فيترك الجميع كما أن ما يخبرون به لَمَّا اشتبه صدقه بكذبه تُرك الجميع .

وأيضاً ما روى نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قال : قال عمر : إذا كان لأحدكم ثوبان فيصلي فيهما فإن لم يكن له إلا ثوب فليتّزر به ولا يشتمل اشتمال اليهود . رواه أبو داود وغيره بإسناد صحيح .

وهذا المعنى صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم من رواية جابر وغيره أنه أمر بالثوب الضيق بالاتّزار دون الاشتمال ، وهو قول جمهور أهل العلم وفي مذهب أحمد قولان ، وإنما الغرض أنه قال : ولا يشتمل اشتمال اليهود ؛ فإن إضافة المنهي عنه إلى اليهود دليل على أن لهذه الإضافة تأثيراً في النهي كما تقدم التنبيه عليه .

وأيضاً فمما نهانا الله سبحانه فيه عن مشابهة أهل الكتاب وكان حقه أن يقدم في أوائل الكتاب قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ فقوله : ﴿ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ نهي مطلق عن مشابهتهم وهو خاص أيضاً في النهي عن مشابهتهم في قسوة قلوبهم وقسوة القلوب من ثمرات المعاصي وقد وصف الله بها اليهود في غير موضع فقال تعالى :﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وإن قوماً من هذه الأمة ممن ينسب إلى علم أو دين قد أخذوا من هذه الصفات بنصيب يرى ذلك من له بصيرة فنعوذ بالله من كل ما يكره الله ورسوله ولهذا كان السلف يحذرون من هذا فروى البخاري في صحيحه عن أبي الأسود قال : بعث أبو موسى إلى قراء البصرة فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرءوا القرآن فقال : أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم فاتلوه ولا يطولنَّ عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم وإنا كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيتها غير أني حفظت منها : (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب) وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها

بإحدى المسبحات فأنسيتها غير أني حفظت منها : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة) فحذر أبو موسى القراء أن يطول عليهم الأمد فتقسوا قلوبهم ثم لما كان نقض الميثاق يدخل فيه نقض ما عهده الله إليهم من الأمر والنهى ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، وتبديل وتأويل كتاب الله ، أخبر ابن مسعود رضي الله عنه بما يشبه ذلك فروى الأعمش عن عمارة بن عمير عن الربيع بن أبي عميلة الفزاري حدثنا عبد الله حديثاً ما سمعت حديثاً هو أحسن منه إلا كتاب الله أو رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم فاخترعوا كتاباً من عند أنفسهم اشتهته قلوبهم واستحلته أنْفسهم وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون فقالوا : اعرضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل فإن تابعوكم فاتركوهم وإن خالفوكم فاقتلوهم ثم قالوا : لا بل أرسلوه إلى فلان رجل من علمائهم فاعرضوا عليه هذا الكتاب فإن تابعكم فلن يخالفكم أحد بعده وإن خالفكم فاقتلوه فلن يختلف عليكم بعده أحد فأرسلوا إليه فأخذ ورقة فكتب فيها كتاب الله ثم جعلها في قرن ثم علقها في عنقه ثم لبس عليها الثياب ثم أتاهم فعرضوا عليه الكتاب فقالوا : أتؤمن بهذا فأومأ إلي صدره فقال : آمنت بهذا وما لي لا أومن بهذا يعني الكتاب الذي في القرن فخلوا سبيله وكان له أصحاب يَخْشَوْنه فلما مات نبشوه فوجدوا القرن ووجدوا فيه الكتاب فقالوا : ألا ترون قوله : آمنت بهذا وما لي لا أومن بهذا إنما عنى هذا الكتاب فاختلف بنو إسرائيل على بضع وسبعين ملة وخير مللهم أصحاب ذي القرن قال عبد الله : وإن من بقي منكم سيرى منكراً وبحسب امريء يرى منكراً لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره .

ولما نهى الله عن التشبه بهؤلاء الذين قست قلوبهم ذكر أيضاً في آخر السورة حال الذين ابتدعوا الرهبانية فما رَعَوْها حق رعايتها فعقبها بقوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ

وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فإن الإيمان بالرسول هو تصديقه وطاعته واتباع شريعته وفي ذلك مخالفة للرهبانية لأنه لم يبعث بها بل نهى عنها وأخبر أن من اتبعه من أهل الكتاب كان له أجران وبذلك جاءت الأحاديث الصحيحة من طريق ابن عمر وغيره في مَثلنا ومثل أهل الكتاب وقد صرح صلى الله عليه وسلم بذلك فيما رواه أبو داود في سننه من حديث ابن وهب أخبرني سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء أن سهل بن أبي أمامة حدثه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك بالمدينة فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « **لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم** » هذا الذي في رواية اللؤلؤي عن أبي داود .

وفي رواية ابن داسة عنه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك بالمدينة في زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير بالمدينة فإذا هو يصلي صلاة خفيفة كأنها صلاة مسافر أو قريب منها فلما سلم قال : يرحمك الله أرأيت هذه الصلاة المكتوبة أم شيئاً تنفلته ؟ قال : إنها المكتوبة وإنها لصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « **لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم** » ثم غدا من الغد فقال : ألا تركب لننظر ونعتبر قال : نعم فركبنا جميعاً فإذا بديار بأهلها وانْقَضوا وفنوا خاوية على عروشها قال : أتعرف هذه الديار فقال : نعم ، ما أعرفني بها وبأهلها هؤلاء أهل دِيار أهلكهم الله ببغيهم وحسدهم إن الحسد يطفيء نور الحسنات والبغي يصدق ذلك أو يكذبه والعين تزني والكف والقدم والجسد واللسان والفرج يصدق ذلك أو يكذبه فأما سهل بن أبي أمامة فقد وثقه يحيى بن معين وغيره وروى له مسلم وغيره وأما ابن العمياء فمن أهل بيت المقدس ما عرف حاله لكن رواية أبي داود للحديث وسكوته عنه

يقتضي أنه حسن عنده وله شواهد في الصحيح .

فأما ما فيه من وصف صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتخفيف في الصحيحين عنه : عن أنس بن مالك قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يوجز الصلاة ويكملها وفي الصحيحين أيضاً عنه قال : ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم من صلاة النبي صلى الله عليه وسلم زاد البخاري : وإن كان ليسمع بكاء الصبي فيخفف مخافة أن تفتن أمه وما ذكره أنس بن مالك من التخفيف فهو بالنسبة إلى ما كان يفعله بعض الأمراء وغيرهم في قيام الصلاة فإن منهم من كان يطيل زيادة على ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعله في غالب الأوقات ويخفف الركوع والسجود والاعتدال عما كان النبى صلى الله عليه وسلم يفعله فى غالب الأوقات ولعل أكثر الأئمة أو كثيراً منهم كانوا قد صاروا يصلون كذلك ، ومنهم من كان يقرأ في الأخريين مع الفاتحة سورة وهذا كله صار مذاهب لبعض الفقهاء ، وكان الخوارج أيضاً قد تعمقوا وتنطعوا كما وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « **يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم** » ولهذا لما صلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالبصرة قال عمران بن حصين : لقد أذكرني هذا صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم معتدلة كان يخفف القيام والقعود ويطيل الركوع والسجود .

وقد جاء هذا مفسراً عن أنس بن مالك نفسه فروى النسائي عن قتيبة عن العطّاف بن خالد عن زيد بن أسلم قال : دخلنا على أنس بن مالك فقال : صليتم ؟ قلنا : نعم ، قال : يا جارية هلمي لي وضوءاً ما صليت وراء إمام أشبه بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من إمامكم هذا قال زيد : وكان عمر بن عبد العزيز يتم الركوع والسجود ويخفف القيام والقعود وهذا حديث صحيح فإن القطاف بن خالد المخزومي قال فيه يحيى بن معين غير مرة : هو ثقة وقال أحمد بن حنبل : هو من أهل مكة ثقة صحيح الحديث روي عنه نحو مائة حديث وقال ابن عدي : يروي قريباً من مائة حديث و لم أر بحديثه بأساً إذا حدث عنه ثقة .

وروى أبو داود والنسائي من حديث عبد الله بن إبراهيم ابن عمر بن كيسان حدثني أبي عن وهب بن مانوس سمعت سعيد بن جبير يقول : سمعت أنس بن مالك يقول : ما صليت وراء أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الفتى يعني عمر بن عبد العزيز قال : فحزرنا في ركوعه عشر تسبيحات وفي سجوده عشر تسبيحات وقال يحيى بن معين : إبراهيم بن كيسان يماني ثقة .

وقال هشام بن يوسف : أخبرني إبراهيم بن عمر وكان من أحسن الناس صلاة . وابنه عبد الله قال فيه أبو حاتم : صالح الحديث ووهب بن مانوس بالنون يقوله عبد الله هذا وكان عبد الرزاق يقوله بالباء المنقوطة بواحدة من أسفل وهو شيخ كبير قديم قد أخذ عنه إبراهيم هذا واتبع ما حدثه به ولولا ثقته عنده لما عمل بما حدثه به وحديثه موافق لرواية زيد بن أسلم وما أعلم فيه قدحاً .

وروى مسلم في صحيحه من حديث حماد بن سلمة أخبرنا ثابت عن أنس بن مالك قال : ما صليت خلف أحد أوجز صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم في تمام كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تمام كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم متقاربة وكانت صلاة أبي بكر متقاربة فلما كان عمر رضي الله عنه مدَّ في صلاة الفجر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال : « **سمع الله لمن حمده** » قام حتى نقول : قد أوهم ثم يسجد ويقعد بين السجدتين حتى نقول : قد أوهم .

ورواه أبو داود من حديث حماد بن سلمة أنبأنا ثابت وحميد عن أنس بن مالك قال : ما صليت خلف رجل أوجز صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم في تمام وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال : « **سمع الله لمن حمده** » قام حتى نقول : قد أوهم ثم يكبر ثم يسجد وكان يقعد بين السجدتين حتى نقول : قد أوهم وقال لمالك بن الحويرث وصاحبه : « **صلوا كما رأيتموني أصلي** » اهـ . وتمامه فيه .

وأما ما في حديث أنس المتقدم من قول النبي صلى الله عليه وسلم : « **لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ماكتبناهاعليهم** » ففيه نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التشديد في الزيادة عن المشروع وفي هذا كراهة النبي صلى الله عليه وسلم لمثل ما عليه النصارى من الرهبانية المبتدعة وإن كان من عبادنا قد وقعوا في بعض ذلك متأولين معذورين أو غير متأولين ولا معذورين .

والغرض هنا بيان ما جاءت به الحَنيفية من مخالفة اليهود فيما أصابهم من القسوة عن ذكر الله وعما أنزل من الهدى الذي به حياة القلوب ومخالفة النصارى فيما هم عليه من الرهبانية المبتدعة ومثل ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة العقبة وهو على ناقته : « **القط لي حصى** » فلقطتُ له سبع حصيات مثل حصى الخذف فجعل ينفضُهن في كفه ويقول أمثال هؤلاء فارموا ثم قال : « **أيها الناس إياكم والغلو في الدين فإن ما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين** » رواه أحمد والنسائي وابن ماجه من حديث عوف بن أبي جميلة عن زياد بن حصين عن أبي العالية عنه وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم .

وقوله : « **إياكم والغلو في الدين** » عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال والغلو هو مجاوزة الحد بأن يزاد في حمد الشيء أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك والنصارى أكثر غلواً في الاعتقادات والأعمال من سائر الطوائف وإياهم نهى الله عن الغلو في القرآن في قوله تعالى : ﴿**يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ**﴾ وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار وهو داخل فيه فالغلو فيه مثل رمي الحجارة الكبار ونحو ذلك بناء على أنه قد بالغ في الحصي الصغار ثم علل ذلك بأنه ما أهلك من كان قبلنا إلا الغلو في الدين كما تراه في النصارى وذلك يقتضي أن مجانبة هديهم مطلقاً أبعد عن الوقوع فيما به هلكوا وأن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه أن يكون هالكاً .

ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم حذرنا عن مشابهة من قبلنا في أنهم كانوا يفرقون في الحدود بين الأشراف والضعفاء وأمر أن يسوَّى بين الناس في ذلك وأن كثيراً من ذوي الرأي والسياسة قد يظن أن إعفاء الرؤساء أجود في السياسة .

ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها في شأن المخزومية التي سرقت لمَا كَلَّمَ أسامةُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « **يا أسامة أتشفع في حدٍ من حدُود الله تعالى إنما هلك بنو إسرائيل أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها** » وكان بنو مخزوم من أشرف بطون قريش واشتد عليهم أن تقطع يد امرأة منهم ، فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن هلاك بني إسرائيل إنما كان في تخصيص رؤساء الناس بالعفو عن العقوبات وأخبر أن فاطمة ابنته التي هي أشرف النساء لو سرقت وقد أعاذها الله من ذلك لقطع يدها ليبين أن وجوب العدل والتعميم في الحدود لا يستثنى منه بنت الرسول فضلاً عن بنت غيره إلى أن قال .

وأيضاً ما روى مسلم في صحيحه عن جندب بن عبد الله البجَلي قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول : « **إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليلاً فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً إلا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك** » وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذين كانوا من قبلنا كانوا يتخذون قبور الأنبياء والصالحين مساجد وذلك يقتضي أن أعمالهم دلالة وعلامة على أن الله ينهانا عنها أو أنها علة مقتضية للنهي ، وعلى التَّقْـدِيرَين يعلم أن مخالفتهم أمر مطلوب للشارع في الجملة ، والنهي عن هذا العمل بلعنة اليهـود والنصـارى مستفيض عنه صلى الله عليه وسلم .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » .

وفي الصحيحين عن عائشة وابن عباس قالا : لما نُزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتمَّ بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك : « **لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » يحذر ما صنعوا .

وفي الصحيحين أيضاً عن عائشة أن أم سلمة وأم حبيبة ذكرتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتاها بأرض الحبشة يقال لها مارية وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوّروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل** » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرج . رواه أهل السنن الأربعة وقال الترمذي : حديث حسن وفي بعض النسخ صحيح . فهذا التحذير منه صلى الله عليه وسلم واللعن عن مشابهة أهل الكتاب في بناء المسجد على قبر الرجل الصالح، صريح في النهي عن المشابهة في هذا ودليل على الحذر من جنس أعمالهم حيث لا يؤمن في سائر أعمالهم أن تكون من هذا الجنس ثم من المعلوم ما قد ابتلي به كثير من هذه الأمة من بناء المساجد على القبور واتخاذ القبور مساجد بِلَا بِنَاء وكلا الأمرين محرم ملعون فاعله بالمستفيض من السنة ، وليس هذا موضع استقصاء ما في ذلك من سائر الأحاديث والآثار إذ الغرض القاعدة الكلية وإن كان تحريم ذلك قد ذكره غير واحد من علماء الطوائف من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ولهذا كان السلف من الصحابة والتابعين يبالغون في المنع مما يَجُرُّ إلى مثل هذا .

وفيه من الآثار ما لا يليق ذكره هنا حتى روى أبو يعلى الموصلي بسنده

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا يزيد بن الحباب حدثنا جعْفر بن إبراهيم من ولد ذي الجناحين حدثنا علي بن عمر عن أبيه عن علي بن الْحَسَن أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرْجَة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها فيدعو فنهاه فقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **لا تتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم** » وأخرجه محمد بن عبد الواحد المقدسي الحافظ في مستخرجه .

وروى سعيد بن منصور في سننه حدثنا عبد العزيز بن محمد أخبرني سهيل بن أبي سهيل قال رآني علي بن الحسن بن علّي بن أبي طالب رضي الله عنه عند القبر فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى فقال : هلم إلى العشاء فقلت : لا أريده فقال ما لي رأيتك عند القبر قلت : سلمت على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إذا دخلت المسجد فسلم ثم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **لا تتخذوا قبري عيداً ولا تتخذوا بيوتكم مقابر لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وصلُّوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء** » ولهذا ذكر الأئمة أحمد وغيره من أصحاب مالك وغيرهم إذا سلم على النبي صلى الله عليه وسلم وقال ما ينبغي له أن يقول ثم أراد أن يدعو فإنه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره .

وقال رحمه الله بعد كلام : وقد تبين لك أن من أصل دروس دين الله وشرائعه وظهور الكفر والمعاصي التشبه بالكافرين كما أن من أصل كل خير المحافظة على سنن الأنبياء وشرائعهم ولهذا عظم وقعُ البدع في الدين وإن لم يكن فيها تشبه بالكفار فكيف إذا جمعت الوصفين ولهذا جاء في الحديث « **ما ابتدع قوم بدعة إلا نزع عنهم من السنة مثلها** » .

وأيضاً فقد روى أبو داود في سننه وغيره من حديث هشيم أخبرنا أبو بشر عن أبي عمير بن أنس عن عمومة له من الأنصار قال : اهتمَّ النبي صلى الله عليه وسلم للصلاة كيف يجمع الناس لها فقيل له انصب راية عند حضور الصلاة

فإذا رأوها أذن بعضهم بعضاً فلم يعجبه ذلك قال : فذكروا له القُنْع شَبُّور اليهود فلم يعجبه ذلك وقال : « **هو من أمر اليهود** » قال : فذكر له الناقوس فقال : « **هو من فعل النصارى** » فانصرف عبد الله بن زيد بن عبد ربه وهو مهتمّ لهمّ النبي صلى الله عليه وسلم فأُرِيَ الأذان في منامه قال فغدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال يا رسول الله إني لبين نائم ويقظان إذ أتاني آت فأراني الأذان وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد رآه قبل ذلك فكتمه عشرين يوماً قال ثم أخبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « **ما منعك أن تخبرنا** » فقال : سبقني عبد الله بن زيد فاستحييت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **يا بلال قم فانظر ما يأمرك به عبد الله بن زيد فافعله** » قال : فأذن بلال قال أبو بشر فحدثني عمير أن الأنصار تزعم أن عبد الله بن زيد لولا أنه كان يومئذ مريضاً لجعله رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذناً .

وروى سعيد بن منصور في سننه حدثنا أبو عوانة عن مغيرة عن عامر الشعبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اهتم بأمر الصلاة اهتماماً شديداً لِيَتَبَيَّن ذلك فيه وكان فيما اهتمَّ به من أمر الصلاة أن ذكر الناقوس ثم قال : « **هو من فعل النصارى** » ثم أراد أن يبعث رجالاً يؤذنون الناس بالصلاة في الطرق ثم قال : « **أكره أن أشغل رجالاً عن صلاتهم بأذان غيرهم** » وذكر رؤيا عبد الله بن زيد .

ويشهد لهذا ما أخرجاه في الصحيحين عن أبي قلابة عن أنس قال : لما كثر الناس ذكروا أن يعلموا وقت الصلاة بشيء فذكروا أن ينوروا ناراً ويضربوا ناقوساً فأمر بلال أن يشفع الآذان ويوتر الإقامة وفي الصحيحين عن ابن جريج عن نافع عن ابن عمر قال كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون للصلاة وليس ينادي بها أحد فتكلموا يوماً في ذلك ، فقال بعضهم : اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى ، وقال بعضهم : قَرْناً مثل قرن اليهود ، فقال عمر : أوتبعثون رجلاً ينادي بالصلاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **يا بلال قم فناد بالصلاة** » . وما يتعلق بهذا الحديث من شرح الأذان .

وروى عبد الله بن زيد وعمر وأمر عمر أيضاً بذلك وما روى من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان سمع الأذان ليلة أسرى به إلى غير ذلك ليس هذا موضع ذكره وذكر الجواب عما قد يستشكل منه وإنما الغرض هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم لما كره بوق اليهود المنفوخ بالفم وناقوس النصارى المضروب باليد علل هذا بأنه من أمر اليهود وعلل هذا بأنه من أمر النصارى ؛ لأن ذكر الوصف عقيب الحكم يدل على أنه علة له وهذا يقتضي نهيه عن كل ما هو من أمر اليهود والنصارى ، هذا مع أن قرن اليهود يقال أن أصله مأخوذ عن موسى عليه السلام وأنه كان يضرب بالبوق في عهده ، وأما ناقوس النصارى فمبتدع إذ عامة شرائع النصارى أحدثها أحبارهم ورهبانهم وهو يقتضي كراهية هذا النوع من الأصوات مطلقاً في غير الصلاة أيضاً لأنه من أمر اليهود والنصارى ؛ فإن النصارى يضربون بالناقوس في أوقات متعددة غير أوقات عباداتهم وإنما شعار الدين الحنيف الأذان المتضمن للإعلان بذكر الله سبحانه الذي به تفتح أبواب السماء وتهرب الشياطين وتنزل الرحمة وقد ابتلي كثير من هذه الأمة من الملوك وغيرهم بهذا الشعار شعار اليهود والنصارى حتى إنا رأيناهم في هذا الخميس الحقير الضير يبخرون البخور ويضربون له بنواقيس صغار حتى إن من الملوك من كان يضرب بالأبواق والدبادب في أوقات الصلوات الخمس ، وهو نفس ما كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من كان يضرب بها طرفي النهار تشبهاً منه كما زعم بذي القرنين ووكل ما دون ذلك إلى ملوك الأطراف .

وهذه المشابهة لليهود والنصارى وللأعاجم من الروم والفرس لما غلبت على ملوك الشرق هي وأمثالها مما خالفوا به هوى المسلمين ودخلوا فيما كرهه الله ورسوله سلط الله عليهم الترك الكافرين الموعود بقتالهم حتى فعلوا بالعباد والبلاد ما لم يجر في دولة الإسلام مثله وذلك تصديق قوله صلى الله عليه وسلم : « **لتركبن سنن من كان قبلكم** » كما تقدم وليس هذا موضع استقصاء ذلك .

وأيضاً فعن عمرو بن ميمون الأزدي قال : قال عمر رضي الله عنه : كان أهل الجاهلية لا يفيضون من جَمْع حتى تطلع الشمس ويقولون أشرق ثَبير كَيْما

نُغير قال فخالفهم النبي صلى الله عليه وسلم وأفاض قبل طلوع الشمس وكذلك كانوا يفيضون من عرفات قبل الغروب فخالفهم النبي صلى الله عليه وسلم بالإفاضة بعد الغروب وبهذا صار الوقوف إلى ما بعد الغروب واجباً عند جماهير العلماء وركناً عند بعضهم وكرهوا شدة الإسفار بالفجر صبيحة جمع ثم الحديث قد ذكر فيه قصد المخالفة للمشركين .

وأيضاً فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة** » متفق عليه .

وعن جبير بن نُفير عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم علي ثوبين مُعَصْفَرَين فقال : « **إن هذه من ثياب الكفار لا تلبسها** » رواه مسلم وعلل النهى عن لبسها بأنها من ثياب الكفار .

وروى أبو بكر الخلال بإسناده عن محمد بن سيرين أن حذيفة بن اليمان أتى بيتاً فرأى فيه حادثتين فيه أباريق الصُّفْر والرصاص فخرج فلم يدخله وقال : « **من تشبه بقوم فهو منهم** » وفي لفظ آخر فرأى شيئاً من زي العجم فخرج وقال : « **من تشبه بقوم فهو منهم** » .

وقال علي بن صالح السواق كنا في وليمة فجاء أحمد بن حنبل فلما دخل نظر إلى كرسي في الدار عليه فضة فخرج فلحقه صاحبُ الدار فنفض يده في وجهه وقال زي المجوس زي المجوس . وقال في رواية صالح : إذا كان في الدعوة مسكر أو شيء من منكر آنية المجوس الذهب والفضة أو ستر الجدران بالثياب خرج ولم يطعم .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : ولو تتبعنا ما في هذا الباب عن النبي صلى الله عليه وسلم مع ما دل عليه كتاب الله لطال بنا القول .

○ فصل ○

●(**وأما الإجماع**) فمن وجوه : من ذلك : أن أمير المؤمنين عمر في الصحابة رضي الله عنهم ثم عامة الأئمة بعده وسائر الفقهاء جعلوا في الشروط المشروطة على أهل الذمة من النصارى وغيرهم فيما شرطوه على أنفسهم أن نوقر المسلمين ؛ ونقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم ، قلنسوة ؛ أو عمامة ؛ أو نعلين ؛ أو فَرْق شعر ؛ ولا نتكلم بكلامهم ولا نكْتَنِي بكناهم ولا نركب السرج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله ولا ننقش خواتيمنا بالعربية ولا نبيع الخمور وأن نجز مقادم رءوسنا وأن نلزم زِيّنا حيثما كان ، وأن نَشُدَّ الزنانير على أوساطنا ، وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا ولا نظهر صليباً ولا كتباً من كتب ديننا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نضرب بنواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين رواه حرب بإسناد جيد وفي رواية أخرى رواها الخلال وألا نضرب بنواقيسنا إلا ضربا خفيفاً في جوف كنائسنا ولا نظهر عليها صليباً ولا نرفع أصواتنا في الصلاة ولا القراءة في كنائسنا فيما يحضره المسلمون وألا نخرج صليباً ، ولا كتاباً في سوق المسلمين ، ولا نخرج باعوثاً والباعوث أنهم يخرجون مجتمعين كما نخرج يوم الأضحى ويوم الفطر ، ولا شعانيناً ، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نظهر النيران معهم في أسواق المسلمين ، وأن لا نجاوزهم بالجنائز ، ولا نبيع الخمور ... إلى أن قال : وأن نلزم زينا حيثما كنا وأن لا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعْلين ولا فرق شعر ولا في مراكبهم ولا نتكلم بكلامهم ولا نكْتنِي بكناهم وأن نجز مقادم رءوسنا ولا نفرق نواصينا وأن نشد الزنانير على أوساطنا وهذه الشروط أشهر شيء في كتب الفقة والعلم وهي مجمع عليها في الجملة بين العلماء من الأئمة المتبوعين وأصحابهم وسائر الأئمة ولولا شهرتها عند الفقهاء لذكرنا ألفاظ كل

طائفة فيها وهي أصناف الصنف الأول ما مقصوده التميز عن المسلمين في الشعور واللباس والأسماءِ والمراكب والكلام ونحوها ليتميز المسلم من الكافر ولا يشبه أحدهما الآخر في الظاهر ولم يرض عمر رضي الله عنه والمسلمون بأصل التميز بل بالتمييز في عامة الهدي على تفاصيل معروفة في غير هذا الموضع .

وذلك يقتضي إجماع المسلمين على التميز عن الكفار ظاهراً وترك التشبه بهم ، ولقد كان أمراء الهدي مثل العمرين وغيرهما يبالغون في تحقيق ذلك بما يتم به المقصود ومقصودهم من هذا التميز . ولا يلبسوا لباس المسلمين ... إلى أن قال رحمه الله :

● **(الوجه الثاني من دلائل الإجماع)** : أن هذه القاعدة قد أمر بها غير واحد من الصحابة والتابعين في أوقات متفرقة وقضايا متعددة وانتشرت ولم ينكرها منكر .

فعن قيس بن أبي حازم قال : دخل أبو بكرَ الصديق رضي الله عنه على امرأة من أحمس يقال لها زينب فرآها لا تتكلم فقال ما لها لا تتكلم قالوا حَجَّت مصمتة فقال لها : تكلمي فإن هذا لا يحل ، هذا من عمل الجاهلية . فتكلمت فقالت : من أنت قال : امرؤ من المهاجرين فقالت : من أي المهاجرين قال : من قريش قالت : من أي قريش قال : إنك لسئول وقال : أنا أبو بكر قالت : ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية قال : بقاؤكم عليه ما استقامت لكم أئمتكم قالت : وما الأئمة قال : أما كان لقومكم رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم قالت : بلى قال : فهم أولئك على الناس رواه البخارى في صحيحه ... إلى أن قال رحمه الله :

وقد قدمنا ما رواه البخارى في صحيحه عن عمر رضي الله عنه أَنَّهُ كَتَبَ إلى المسلمين المقيمين ببلادِ فارسَ إيَّاكم وزِيِّ المشركين اهـ وتمامه فيه فأما صلاة التَّراويح فليست بدعة في الشريعة بل هي سنة بقول رسول الله صلى الله عليه

وسلم وفعله فإنه قال: « **إن الله فرض عليكم صيام رمضان وسن لكم قيامه** » ولا صلاتها جماعة بدعة ؛ بل هي سنة في الشريعة بل قد صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجماعة في أول شهر رمضان ليلتين بل ثلاثاً وصلاها أيضاً في العشر الأواخر في جماعة مرات وقال عن الرجل « **إذا صلى مع الإمام حتى ينصرف كتب له قيام ليلة** » لما قام بهم حتى خشوا أن يفوتهم الفلاح رواه أهل السنن وبهذا الحديث احتج أحمد وغيره على أن فعلها في الجماعة أفضل من فعلها في حال الانفراد وفي قوله هذا ترغيب في قيام شهر رمضان خلف الإمام وذلك أوكد من أن يكون سنة مطلقة .

وكان الناس يصلونها جماعة في المسجد على عهده صلى الله عليه و سلم ويقرهم وإقراره سنة منه صلى الله عليه وسلم ، وأما قول عمر « نعمت البدعة هذه » فأكثر المحتجين بهذا لو أردنا أن نثبت حكماً بقول عمر الذي لم يخالف فيه لقالوا قولاً لصاحب ليس بحجة فكيف يكون حجة لهم في خلاف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن اعتقد أن قول الصاحب حجة فلا يعتقده إذا خالف الحديث ، فعلى التقديرين لا تصلح معارضة الحديث بقول الصاحب ؛ نعم يجوز تخصيص عموم الحديث بقول الصاحب الذي لم يخالف على إحدى الروايتين فيفيدهم هذا حسن تلك البدعة أما غيرها فلا . ثم نقول أكثر ما في هذا تسمية عمر تلك بدعة مع حسنها وهذه تسمية لغوية لا تسمية شرعية وذلك أن البدعة في اللغة تعم كل ما فعل ابتداء من غير مثال سبق ، وأما البدعة الشرعية فكل ما يدل عليه دليل شرعي فإذا كان نص رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دل على استحباب فعل أو إيجابه بعد موته أو دل عليه مطلقاً ولم يعمل به إلا بعد موته ككتاب الصدقة الذي أخرجه أبو بكر رضي الله عنه فإذا عمل أحد ذلك العمل بعد موته صلح أن يسمى بدعة في اللغة لأنه عمل مبتدأ كما أن نفس الدين الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم يسمى بدعة ويسمى محدثاً في اللغة ، كما قالت رسل قريش للنجاشي عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين إلى الحبشة أن هؤلاء خرجوا من دين آبائهم ولم يدخلوا في دين

الملك وجاءوا بدين محدث لا يعرف ثم ذلك العمل الذي يدل عليه الكتاب والسنة ليس بدعة في الشريعة وإن سمى بدعة في اللغة ، فلفظ البدعة في اللغة أعم من لفظ البدعة في الشريعة ، وقد علم أن قول النبي صلى الله عليه وسلم «**كل بدعة ضلالة**» لم يرد به كل عمل مبتدأ ؛ فإن دين الإسلام بل كل دين جاءت به الرسل فهو عمل مبتدأ وإنما أراد ما ابتدى من الأعمال التي لم يشرعها هو صلى الله عليه وسلم وإذا كان كذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم قد كانوا يصلون قيام رمضان على عهده جماعة وفراداً وقد قال لهم في الليلة الثالثة والرابعة لما اجتمعوا « **إنه لم يمنعني أن أخرج إليكم إلا كراهية أن يُفْرَضَ عليكم فصلوا في بيوتكم فإن أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة** » فعلل صلى الله عليه وسلم عدم الخروج بخشية الأفتراض ، فعلم بذلك أن المقتضي للخروج قائم ، وأنه لولا خوف الافتراض لخرج إليهم ، فلما كان في عهد عمر جمعهم على قاريء واحد وأسْرج المسجد فصارت هذه الهيئة وهي اجتماعهم في المسجد على إمام واحد مع الإسراج عملاً لم يكونوا يعملونه من قبل فسمى بدعة ؛ لأنه في اللغة يسمى بذلك وإن لم يكن بدعة شرعية لأن السنة اقتضت أنه عمل صالح لولا خوف الافتراض وخوف الافتراض قد زال بموته صلى الله عليه وسلم فانتفى المعارض وهكذا جمع القرآن فإن المانع من جمعه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الوحي لا يزال ينزل فيغير الله ما يشاء ويحكم ما يريد فلو جمع في مصحف واحد لتعسر أو تعذر تغييره كل وقت ، فلما استقر القرآن بموته صلى الله عليه وسلم واستقرت الشريعة بموته صلى الله عليه وسلم أمِن الناس من زيادة القرآن ونقصه وأمنوا من زيادة الإيجاب والتحريم والمقتضى للعمل قائم بسنته صلى الله عليه وسلم فعمل المسلمون بمقتضى سننه وذلك العمل من سنته وإن كان يسمى هذا في اللغة بدعة وصار هذا كنَفْي عمر رضي الله عنه ليهود خيبر ونصارى نجران ونحوهم من أرض العرب فإن النبي صلى الله عليه وسلم عهد بذلك في مرضه فقال أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب » ، وإنما لم ينفذه أبو بكر رضي الله عنه لاشتغاله بقتال أهل الردة وبشروعه بقتال فارس والروم ، وكذلك عمر لم يمكنه فعله في أول الأمر لاشتغاله بقتال فارس والروم فلما تمكن من ذلك فعل ما أمر

به النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان هذا الفعل قد يسمى بدعة في اللغة ، كما قال له اليهود كيف تخرجنا وقد أقرنا أبو القاسم ، وكما جاءوا إلى علي رضي الله عنه في خلافته فأرادوا منه إعادتهم وقالوا كتابك بخطك فامتنع من ذلك لأن ذلك الفعل من عمر كان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كان محدثاً بعده ومغيراً لما فعله هو صلى الله عليه وسلم وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم خذوا العطاء ما كان عطاء فإذا كان عوضاً عن دين أحدكم فلا تأخذوه فلما صار الأمراءُ يعطون مال الله لمن يعينهم على أهوائهم وإن كانت معصية كان من امتنع من أخذه متبعاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كان ترك قبول العطاء من أولي الأمر محدثاً لكن لما أحدثوا ما أحدثوه أُحدِث لهم حكم آخر بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم اهـ وتمامه فيه إلى أن قال :

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى تخصيص أوقات بصلاة أو صيام ، وأباح ذلك إذا لم يكن على وجه التّخصيص فروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **لا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم** » .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **لا يصومن أحدكم يوم الجمعة إلا يوماً قبله أو يوماً بعده** » وهذا لفظ البخاري .

وروى البخاري عن جويرية بنت الحارث أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة فقال : « **أصمت أمس** » قالت : لا قال : « **أتريدين أن تصومي غداً** » قالت : لا ، قال : « **فأفطري** » .

وفي الصحيحين عن محمد بن عباد بن جعفر قال : سألت جابر بن عبد الله وهو يطوف بالبيت أنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيام يوم الجمعة ؟ قال : نعم ورب هذا البيت وهذا لفظ مسلم .

وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **لا تصوموا يوم الجمعة وحده** » رواه أحمد .

ومثل هذا ما أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **لا يتقدمن أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين إلا أن يكون رجل كان يصوم صوماً فليصم ذلك اليوم** » لفظ البخاري « **يصم عادته** » فوجه الدلالة أن الشارع قسم الأيام باعتبار الصوم ثلاثة أقسام قسم شرع تخصيصه بالصيام إما إيجاباً كرمضان واستحباباً كيوم عرفة وعاشوراء وقسم نهى عن صومه مطلقاً كيوم العيدين وقسم إنما نهي عن تخصيصه كيوم الجمعة وسِرَر شعبان فهذا النوع لو صيم مع غيْره لم يكرهْ فإذا خصص بالفعل نهى عن ذلك سواء قصدا لصائم التخصيص أو لم يقصده وسواء اعتقد الصائم الرجحان أو لم يعتقده ومعلوم أن مفسدة هذا العمل لولا أنها موجودة في التخصيص دون غيره لكان إما أن ينهى عنه مطلقاً كيوم العيد أو لا ينهى عنه كيوم عرفة وتلك المفسدة ليست موجودة في سائر الأوقات ، وإلا لم يكن للتخصيص بالنهي فائدة فظهر أن المفسدة تنشأ من تخصيص ما لا خصيصة له ، كما أشعر به لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فإن نفس الفعل المنهي عنه أو المأمور به قد يشتمل على حكمة الأمر والنهى كما في قوله « **خالفوا المشركين** » فلفظ النهى عن تخصيص وقت بصوم أو صلاة يقتضى أن الفساد ناشيء من جهة الاختصاص ، فإذا كان يوم الجمعة يوماً فاضلاً يستحب فيه من الصلاة والدعاء والذكر والقراءة والطهارة والطيب والزينة ما لا يستحب في غيره كان ذلك في مظنة أن يتوهم أن صومه أفضل من غيره ويعتقد أن قيام ليلته كالصيام في نهاره لها فضيلة على قيام غيرها من الليالي فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التخصيص دفعاً لهذه المفسدة التي لا تنشأ إلا من التخصيص ، وكذلك تلقى رمضان قد يتوهم أن فيه فضلاً لما فيه من الاحتياط للصوم ولا فضل فيه في الشرع ، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تلقيه لذلك ، وهذا المعنى موجود في مسألتنا ، فإن الناس قد يخصون هذه المواسم لاعتقادهم فيها فضيلة ، ومتى كان تخصيص هذا الوقت بصوم أو بصلاة

قد يقترن باعتقاد فضل ذلك ولا فضل فيه نهى عن التخصيص ؛ إذ لا ينبعث التخصيص إلا عن اعتقاد الاختصاص ، ومن قال : إن الصلاة والصوم في هذه الليلة كغيرها هذا اعتقادي ، ومع ذلك فأنا أخصها . فلابد أن يكون باعثه إما تقليد غيره واتّباع العادة ، وإما خوف اللوم له ونحو ذلك ، وإلا فهو كاذب . فالداعي إلى هذا العمل لا يخلو قط من أن يكون ذلك عن الاعتقاد الفاسد ، أو عن باعث آخر غير ديني ، وذلك الاعتقاد ضلال، فإنا قد علمنا يقيناً أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسائر الأئمة لم يذكروا في فضل هذا اليوم ، ولا في فضل صومه بخصوصه ، وفضل قيام هذه الليلة بخصوصها حرفاً واحداً ، وأن الحديث المأثور فيها موضوع ، وأنها إنما حدثت في الإسلام بعد المائة الرابعة .

ولا يجوز والحال هذه أن يكون لها فضل ؛ لأن ذلك الفضل إن لم يعلمه النبي صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ولا التابعون ولا سائر الأئمة امتنع أن نعلم نحن من الدين الذي يقرب إلى الله ما لم يعلمه النبي صلى الله عليه وسلم ولا الصحابة والتابعون وسائر الأئمة ، وإن علموه امتنع مع توفر دواعيهم على العمل الصالح وتعليم الخلق والنصيحة أن يعلموا أحداً بهذا الفضل ولا يسارع إليه واحد منهم ، فإذ كان هذا الفضل المدعي مستلزماً لعدم علم الرسول وخير القرون ببعض دين الله أو لكتمانهم وتركهم ما تقتضي شرعتهم وعادتهم أن لا يكتموه ولا يتركوه ، وكل واحد من اللازمين منتف إما بالشرع وإما بالعادة مع الشرع علم انتفاء الملزوم وهو الفضل المدَّعي ، ثم هذا العمل المبتدع مستلزم إما لاعتقاد هو ضلال في الدين أو عمل دين لغير الله والتدين بالاعتقادات الفاسدة أو التدين لغير الله لا يجوز .

فهذه البدع وأمثالها مستلزمة قطعاً أو ظاهرة لفعل ما لا يجوز ، فأقل أحوال الملتزم إن لم يكن محرماً أن يكون مكروهاً ، وهذا المعنى سار في سائر البدع المحدثة ، ثم هذا الاعتقاد يتبعه أحوال في القلب من التعظيم والإجلال ، وتلك الأحوال أيضاً باطلة ليست من دين الله . ولو فرض أن الرجل قد يقول أنا لا أعتقد الفضل فلا يمكنه مع التعبد أن يزيل الحال الذي في قلبه من التعظيم

والإجلال ، والتعظيم والإجلال لا ينشأ إلا بشعور من جنس الاعتقاد ، ولو أنه توهم أو ظن أن هذا الأمر ضروري فإن النفس لو خلت عن الشعور بفضل الشيء امتنعت مع ذلك أن تعظمه ، ولكن قد تقوم به خواطر متقابلة فهو من حيث اعتقاده أنه بدعة يقتضي منه ذلك عدم تعظيمه ، ومن حيث شعوره بما روي فيه أو بفعل الناس له أو بأن فلاناً وفلاناً فعلوه ، وأيما يظهر له فيه من المنفعة يقوم بفعله وتعظيمه ، فعلمت أن فعل هذه البدع تناقض الاعتقادات الواجبة ، وتنازع الرسل ما جاءوا به عن الله ، وأنها تورث القلب نفاقاً ولو كان نفاقاً خفيفاً ، ومثلها كمثل أقوام كانوا يعظمون أبا جهل أو عبد الله بن أبي بن سَلول لرياسته وماله ونسبه وإحسانه إليهم وسلطانه عليهم ، فإذا ذمه الرسول أو بَيّن نقصه أو أمر بإهانته أو قتله فمن لم يخلص إيمانه وإلا يبقى في قلبه منازعة بين طاعة الرسول التابعة لاعتقاده الصحيح واتباع ما في نفسه من الحال التابع لتلك الظنون الكاذبة ، فمن تدبر هذا علم يقيناً ما في حشو البدع من السموم المضعفة للإيمان ، ولهذا قيل إن البدع مشتقة من الكفر ، وهذا المعنى الذي ذكرته معتبر في كل ما نهى عنه الشارع من أنواع العبادات التي لا مزية لها في الشرع إذا جاز أن يتوهم لها مزية ؛ كالصلاة عند القبور والذبح عند الأصنام ونحو ذلك ، وإن لم يكن الفاعل معتقداً للمزية لكن نفس الفعل قد يكون مظنة للمزية ، وكما أن إثبات الفضيلة الشرعية مقصود فرفع الفضيلة غير الشرعية مقصود أيضاً .

● **فإن قيل** : هذا يعارضه أن هذه المواسم مثلاً فعلها قوم من أولى العلم والفضل الصديقين فمن دونهم ، وفيها فوائد يجدها المؤمن في قلبه وغير قلبه من طهارة قلبه ورقته وزوال آثار الذنوب عنه وإجابة دعائه ونحو ذلك ، مع ما ينضم إلى ذلك من العمومات الدالة على فضل الصلاة والصيام كقوله تعالى :﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم : « **نور وبرهان** » ونحو ذلك .

● **قلنا** : لا ريب أن من فعلها متأولاً مجتهداً أو مقلداً كان له أجر على حسن قصده رعلى عمله من حيث ما فيه من المشروع – إلى أن قال – لكن هذا القدر

لا يمنع كراهتها والنهي عنها والاعتياض عنها بالمشروع الذي لا بدعة فيه ؛ كما أن الذين زادوا الأذان في العيدين هم كذلك ؛ بل اليهود والنصاري يجدون في عباداتهم أيضاً فوائد ، وذلك أنه لابد أن تشتمل عباداتهم على نوع ما مشروع في جنسه ، كما أن قولهم لابد أن يشتمل على صدق ما مأثور عن الأنبياء ، ثم مع ذلك لا يوجب أن نفعل عباداتهم أو نروى كلماتهم ؛ لأن جميع المبتدعات لابد أن تشتمل على شر راجح على ما فيها من الخير إذ لو كان خيرها راجحاً لما أهملتها الشريعة ، فنحن نستدل بكونها بدعة على أن إثمها أكثر من نفعها ، وذلك هو الموجب للنهي .

● **وأقول**: إن إثمها قد يزول عن بعض الأشخاص لمعارض الاجتهاد أو غيره، كما يزول اسم الربا والنبيذ المختلف فيهما عن المجتهدين من السلف ، ثم مع ذلك يجب بيان حالها وأن لا يقتدي بمن استحلها وأن يقصر في طلب العلم المبين لحقيقتها ، وهذا الدليل كاف في بيان أن هذه البدع مشتملة على مفاسد اعتقادية أو حاليَّة مناقضة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن ما فيها من المنفعة مرجوح لا يصلح للمعارضة ، ثم يقال على سبيل التفصيل إذا فعلها قوم ذوو فضل فقد تركها قوم في زمان هؤلاء معتقدين لكراهتها ، وأنكرها قوم كذلك وهؤلاء التاركون والمنكرون إن لم يكونوا أفضل ممن فعلها فليسوا دونهم في الفضل ولو فرضُوا دونهم في الفضل فتكون حينئذ قد تنازع فيها أولو الأمر فترد إذن إلى الله والرسول وكتاب الله وسنة رسوله مع من كرهها لا مع من رخص فيها ثم عامة المتقدمين الذين هم أفضل من المتأخرين مع هؤلاء التاركين المنكرين ، وأما ما فيها من المنفعة فيعارض ما فيها من مفاسد البدعة الراجحة منها مع ما تقدم من المفسدة الاعتقادية والحالية أن القلوب تستعذبها وتستغني بها عن كثير من السنن حتى تجد كثيراً من العامة يحافظون عليها ما لا يحافظ على التراويح والصلوات الخمس .

● **(ومنها)**: أن الخاصة والعامة تنقص بسببها عِنَايَتهم بالفرائض والسنن وتَفْتُر رغبتهم فيها فتجد الرجل يجتهد فيها ويخلص وينيب ويفعل ما لا يفعله في الفرائض

والسنن ، حتى كأنه يفعل هذه البدعة عبادة ، ويفعل الفرائض والسنن عادة ووظيفة ، وهذا عكس الدين فيفوته بذلك ما في الفرائض والسنن من المغفرة ، والرحمة ، والرقة ، والطهارة ، والخشوع ، وإجابة الدعوة ، وحلاوة المناجاة ، إلى غير ذلك من الفوائد وإن لم يفته هذا كله فلابد أن يفوته كماله ومنها ما في ذلك من مصير المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، وما يترتب على ذلك من جهالة أكثر الناس بدين المرسلين وانتشار زرْع الجاهلية .

● **(ومنها)** : اشتمالها على أنواع من المكروهات في الشريعة مثل تأخير الفطور، وأداء العشاء الآخرة بلا قلوب حاضرة ، والمبادرة إلى تعجيلها ، والسجود بعد السلام لغير سهو ، وأنواع من الأذكار ، ومقاديرها لا أصل لها . إلى غير ذلك من المفاسد التي لا يدركها إلا من استنارت بصيرته ، وسلمت سريرته .

● **(ومنها)** مسارقة الطبع إلى الانحلال من ربقة الاتباع وفوات سلوك الصراط المستقيم ؛ وذلك أن النفس فيها نوع من الكبر فتحب أن تخرج من العبودية والاتباع بحسب الإمكان ، كما قال أبو عثمان النيسابورى رحمه الله : ما ترك أحد شيئاً من السنة إلا لكبر في نفسه ثم هذا مظنة لغيره فينسلخ القلب عن حقيقة الاتباع للرسول ويصير فيه من الكبر وضعف الإيمان ما يفسد عليه دينه أو يكاد ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

● **(ومنها)**: ما تقدم التنبيه عليه في أعياد أهل الكتاب من المفاسد التي توجد في كل النوعين المحدَثين : النوع الذي فيه مشابهة ، والنوع الذي لا مشابهة فيه .

والكلام في ذم البدع لما كان مقرراً في غير هذا الموضع لم نطل النفس في تقريره بل نذكر أعيان هذه المواسم – إلى أن قال رحمه الله – :

(**النوع الثالث**) : ما هو معظم في الشريعة كيوم عاشوراء ، ويوم عرفة ، ويومي العيدين ، والعشر الأواخر من شهر مضان ، والعشر الأول من ذي الحجة ، وليلة الجمعة ويومها ، والعشر الأول من المحرم ، ونحو ذلك من الأوقات الفاضلة فهذا الضرب قد يحدث فيه ما يعتقد أن له فضيلة وتوابع ذلك ما يصير

منكراً ينهى عنه ، مثل ما أحدث بعض أهل الأهواء في يوم عاشوراء من التعطش والتحزن والتجمع وغير ذلك من الأمور المحدثة التي لم يشرعها الله ولا رسوله ولا أحد من السلف لا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا غيرهم ، لكن لما أكرم الله فيه سبط نبيه أحد سيدَيْ شباب أهل الجنة وطائفة من أهل بيته بأيدى الفجرة الذين أهانهم الله وكانت هذه مصيبة عند المسلمين يجب أن تتلقى بما يتلقى به أمثالها من المصائب من الاسترجاع المشروع ؛ فأحدث بعض أهل البدع في مثل هذا اليوم خلاف ما أمر الله به عند المصائب وضموا إلى ذلك من الكذب والوقيعة في الصحابة البرءاء من فتنة الحسين وغيرها أمور أخرى مما يكرهها الله ورسوله .

وقد روي عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين بن علي رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **من أصيب بمصيبة فذكر مصيبته فأحدث لها استرجاعاً وإن تقادم عهدها كتب الله له من الأجر مثلها يوم أصيب** » رواه الإمام أحمد وابن ماجه . فتدبر كيف روَىْ مثل هذا الحديث الحسين بن علي رضي الله عنهما وعنه بنته التي شهدت مصابه وأما اتخاذ أمثال أيام المصائب مأتماً فليس هذا من دين الإسلام ؛ بل هو إلى دين الجاهلية أقرب ، ثم هم فوَّتوا بذلك ما في صوم هذا اليوم من الفضل ، وأحدث بعض الناس فيه أشياء مستندة إلى أحاديث موضوعة لا أصل لها مثل فضل الاغتسال فيه ، أو التكحل ، أو المصافحة ، وهذه الأشياء ونحوها من الأمور المبتدعة كلها مكروهة. وإنما المستحب صومه .

وقد روى في التوسع فيه على العيال آثار معروفة أعلى ما فيها حديث إبراهيم ابن محمد بن المنتشر عن أبيه قال : بلغنا أنه من وَسَّعَ على أهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته رواه عنه ابن عيينة . وهذا بلاغ منقطع لا يعرف قائله والأشبه أن هذا وُضِع لما ظهرت العصبية بين الناصبة والروافض ، فإن هؤلاء أعدُّوا يوم عاشوراء مأتماً فوضع أولئك فيه آثاراً تقتضي التوسع فيه واتخاذه عيداً وكلاهما باطل .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «**سيكون في ثقيف كذاب ومبير**» فكان الكذاب المختار بن أبي عبيد ، وكان يتشيع وينتصر للحسين ثم أظهر الكذب والافتراء على الله ، وكان فيها الحجاج ابن يوسف ، وكان فيه انحراف على علي وشيعته وكان مبيراً ، وهؤلاء فيهم بدع وضلال ، وأولئك فيهم بدع وضلال ؛ وإن كانت الشيعة أكثر كذباً وأسوأ حالاً لكن لا يجوز لأحد أن يغير شيئاً من الشريعة لأجل أحد .

وإظهار الفرح والسرور يوم عاشوراء ، وتوسيع النفقات فيه هو من البدع المحدثة المقابلة للروافض ، وقد وضعت في ذلك أحاديث مكذوبة في فضائل ما يصنع فيه من الاغتسال والاكتحال وغير ذلك ، وصححها بعض الناس كابن ناصر وغيره ليس فيها ما يصح ، لكن رويت لأناس اعتقدوا صحتها فضلوا بها ولم يعلموا أنها كذب فهذا مثل هذا .

وقد يكون سبب الغلو في تعظيمه من بعض المنتسبة لمقابلة الروافض ، فإن الشيطان قصدُه أن ينحرف الخلق عن الصراط المستقيم ولا يبالي إلى أي الشقين صاروا ، فينبغي أن تجتنب هذه المحدثات .

وقال رحمه الله : وهذا كما أنه قد ثبت باتفاق أهل العلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما حج البيت لم يستلم من الأركان إلا الركنين اليمانيين فلم يستلم الركنين الشاميين ولا غيرهما من جوانب البيت ولا مقام إبراهيم ولا غيره من المشاعر ، وأما التقبيل فلم يقبل إلا الحجر الأسود ، وقد اختلف في الركن اليماني فقيل : يقبله ، وقيل : يستلمه ويقبل يده ، وقيل : لا يقبله ولا يقبل يده والأقوال الثلاثة مشهورة في مذهب أحمد وغيره . والصواب : أنه لا يقبله ولا يقبل يده ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفعل هذا ولا هذا ولا هذا كما تنطق به الأحاديث الصحيحة ثم هذه مسألة نزاع ، وأما مسائل الإجماع فلا نزاع بين الأئمة الأربعة فيها ونحوهم من أئمة العلم أنه لايقبل الركنين الشاميين ولا شيئاً من جوانب البيت فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستلم إلا الركنين اليمانيين وعلى هذا عامة السلف .

وقد روي أن ابن عباس ومعاوية طافا بالبيت فاستلم معاوية الأركان الأربعة فقال ابن عباس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستلم إلا الركنين اليمانيين ، فقال معاوية : ليس شيء من البيت متروك ، فقال ابن عباس : لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة فرجع إليه معاوية .

وقد اتفق العلماء على ما مضت السنة من أنه لا يشرع الاستلام والتقبيل لمقام إبراهيم الذي ذكره الله تعالى في القرآن وقال : ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ فإذا كان هذا بالسنة المتواترة وباتفاق الأئمة لا يشرع تقبيله بالفم ولا مسحه باليد وأيضاً فإن المكان الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلى فيه بالمدينة النبوية دائماً لم يكن أحد من السلف يستلمه ولا يقبله ولا المواضع التي صلى فيها بمكة وغيرها ، وإذا كان الموضع الذي كان يطؤه بقدميه الكريمتين ويصلى عليه لم يشرع لأمته التمسح به ولا تقبيله فكيف بما يقال إن غيره صلى فيه أو نام عليه ، وإذا كان هذا ليس بمشروع في موضع قدميه للصلاة فكيف بالنعل الذي هو موضع قدميه للمشي وغيره هذا إذا كان النقل صحيحاً فكيف بما لا تعلم صحته ؟ أو بما يعلم أنه كذب ؟ كحجارة كثيرة يأخذها الكذابون وينحتون فيها موضع قدم ويزعمون عند الجهال أن هذا موضع قدم النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان هذا غير مشروع في موضع قدميه وقدمي إبراهيم الخليل الذي لا شك فيه ، ونحن مع هذا قد أمرنا أن نتخذه مصلى فكيف بما يقال إنه موضع قدميه كذباً وافتراء عليه كالموضع الذي بصخرة بيت المقدس وغير ذلك من المقامات .

● **فإن قيل** : قد أمر الله أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى فيقاس عليه غيره.

● **قيل له** : هذا الحكم خاص بمقام إبراهيم الذي بمكة سواء أريد به المقام الذي عند الكعبة موضع قيام إبراهيم ، أو أريد به المشاعر عرفة ومزدلفة ومنى ، فلا نزاع بين المسلمين أن المشاعر خصت من العبادات بما لم يشركها فيه سائر البقاع كما خص البيت بالطواف ، فما خصت به تلك البقاع لا يقاس عليها

غيرها ، وما لم يشرع فيها فأولى أن لا يشرع في غيرها .

ونحن قد استدللنا على أن ما لم يشرع هناك من التقبيل والاستلام أولى أن لا يشرع في غيرها ، ولا يلزم أن يشرع في غير تلك البقاع منه مثل ما شرع فيها .

ومن ذلك البِنْيَة التي على جبل عرفات التي يقال إنها قبة آدم ؛ فإن هذه لا يشرع قصدها للصلاة والدعاء باتفاق العلماء ؛ بل نفس رقى الجبل الذي بعرفات ، الذي يقال له جبل الرحمة ، واسمه الأول على وزن هلال ليس مشروعاً باتفاقهم ، وإنما السنة الوقوف بعرفات ، إما عند الصخرات حيث وقف النبي صلى الله عليه وسلم ، وإما بسائر عرفات فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **عرفة كلها موقف وادفعوا عن بطن عُرَنة** » وكذلك سائر المساجد المبنية هناك كالمساجد المبنية عند الجمرات ، وبجنب مسجد الخِيف مسجد يقال له غُلى المرسلات ، فيه نزلت سورة المرسلات ، وفوق الجبل مسجد يقال له مسجد الكبش ونحو ذلك . لم يشرع النبي صلى الله عليه وسلم قصدَ شيء من هذه البقاع لصلاة ولا دعاء ولا غير ذلك ، وأما تقبيل شيء من ذلك والتمسح به فالأمر فيه أظهر ؛ إذ قد علم العلماء بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا ليس من شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ذكر طائفة من المصنفين في المناسك استحباب زيارة مساجد مكة وما حولها ، وكنت قد كتبتها في منسك كتبته قبل أن أحج في أول عمري لبعض الشيوخ جمعته من كلام العلماء ثم تبين لي أن هذا كله من البدع المحدثة التي لا أصل لها في الشريعة وأن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يفعلوا شيئاً من ذلك وأن أئمة العلم والهدى ينهون عن ذلك ، وأن المسجد الحرام هو المسجد الذي شرع لنا قصده للصلاة والدعاء والطواف وغير ذلك من العبادات ، ولم يشرع لنا قصد مسجد بعينه بمكة سواه ولا يصلح أن يجعل هناك مسجد يزاحمه في شيء من الأحكام ، وما يفعله الرجل في مسجد من تلك المساجد من

دعاء وصلاة وغير ذلك إذا فعله في المسجد الحرام كان خيراً له ؛ بل هذا سنة مشروعة .

وأما قصد مسجد غيره هناك تحرياً لفضله فبدعة غير مشروعة ، وأصل هذا أن المساجد التي تشد الرحال إليها هي المساجد الثلاثة ، كما ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا** » وقد روي هذا من وجوه أخرى ، وهو حديث ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم باتفاق أهل العلم متلقَّى بالقبول عنه .

فالسفر إلى هذه المساجد الثلاثة للصلاة فيها والدعاء والذكر والقراءة والاعتكاف من الأعمال الصالحة ، وما سوى هذه المساجد لا يشرع السفر إليه باتفاق أهل العلم حتى مسجد قباء يستحب من المكان القريب كالمدينة ولا يشرع شد الرحال إليه . فإن في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً وكان ابن عمر يفعله . وفي لفظ لمسلم : فيصلي فيه ركعتين . وذكره البخاري بغير إسناد وذلك أن الله تعالى نهاه عن القيام في مسجد الضرار فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وكان مسجد الضرار قد بني لأبي عامر الفاسق الذي كان يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، وكان المشركون يعظمونه ، فلما جاء الإسلام حصل له من الحسد ما أوجب

مخالفته للنبي صلى الله عليه وسلم وفراره إلى الكافرين ، فقام طائفة من المنافقين يبنون هذا المسجد وقصدوا أن يبنوه لأبي عامر هذا والقصة مشهورة في ذلك ؛ فلم يبنوه لأجل فعل ما أمر الله به ورسوله بل لغير ذلك فدخل في معنى ذلك من بني أبنية يضاهيء بها مساجد المسلمين لغير العبادات المشروعة من المشاهد وغيرها لا سيما إذا كان فيها من الضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين والإرصاد لأهل النفاق والبدع المحادين لله ورسوله ما يقوى بها شبهها بمسجد الضرار ، فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ وكان مسجد قباء أُسس على التقوى ومسجده أعظم في تأسيسه على التقوى من مسجد قباء كما ثبت في الصحيح عنه أنه سئل عن المسجد الذي أسسه على التقوى فقال : « **مسجدي هذا** » فكلا المسجدين أسس على التقوى ولكن اختص مسجده بأنه أكمل في هذا الوصف من غيره فكان يقوم في مسجده يوم الجمعة ويأتي مسجد قباء يوم السبت .

وفي السنن عن أسيد بن حُضير الأنصاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **الصلاة في مسجد قباء كعمرة** » رواه ابن ماجه والترمذي وقال : حديث حسن غريب .

وعن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة** » رواه أحمد والنسائي وابن ماجه قال بعض العلماء : قوله « **من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء** » تنبيه على أنه لا يشرع قصده بشد الرحال ؛ بل إنما يأتيه الرجل من بيته الذي يصلح أن يتطهر فيه ثم يأتيه فيقصده ، كما يقصد الرجل مسجد مصره دون المساجد التي يسافر إليها ، وأما المساجد الثلاثة فاتفق العلماء على استحباب إتيانها للصلاة ونحوها ، ولكن لو نذر ذلك هل يجب بالنذر فيه قولان للعلماء :

○ **(أحدهما)** : أنه لا يجب بالنذر إلا إتيان المسجد الحرام خاصة وهذا أحد قولي الشافعي وهو مذهب أبي حنيفة وبناء على أصله في أنه لا يجب بالنذر إلا

ما كان من جنسه واجب بالشرع .

○ (**والقول الثاني**) : وهو مذهب مالك وأحمد وغيرهما أنه يجب إتيان المساجد الثلاثة بالنذر لكن إن أتى الفاضل اغناه على إتيان المفضول فإذا نذر إتيان مسجد المدينة ومسجد إيلياء أغناه إتيان المسجد الحرام ، وإن نذر إتيان مسجد إيلياء أغناه إتيان أحد مسجدى الحرمين .

وذلك أنه قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه** » وهذا يَعُم كل طاعة سواء كان جنسها واجباً أو لم يكن ، وإتيان الأفضل أجراء للحديث الوارد ، وليس هذا موضع تفصيل هذه المسألة ؛ بل المقصود أنه لا يشرع السفر إلى مسجد غير الثلاثة ، ولو نذر ذلك لم يجب عليه فعله باتفاق الأئمة . وهل عليه كفارة يمين ؟ على قولين مشهورين . وليس بالمدينة مسجد يشرع إتيانه إلا مسجد قباء ، وأما سائر المساجد فلها حكم المساجد العامة و لم يخصها النبي صلى الله عليه وسلم بإتيان ولهذا كان الفقهاء من أهل المدينة لا يقصدون شيئاً من تلك الأماكن إلا مسجد قباء خاصة.

○ فصل ○

وأما المسجد الأقصى فهو أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال ، وكان المسلمون لما فتحوا بيت المقدس على عهد عمر بن الخطاب حين جاء عمر إليهم فسلم النصارى إليه البلد دخل إليه فوجد على الصخرة زبالة عظيمة جداً كانت النصارى ألقتها عليها معاندة لليهود الذين يعظمون الصخرة ويصلون إليها ؛ فأخذ عمر في ثوبه منها واتبعه المسلمون في ذلك ويقال إنه سخر لها الأنباط حتى نظفوها ثم قال لكعب الأحبار : أين ترى أن أبني مصلى للمسلمين ؟ فقال : ابْنِهِ خلف الصخرة ، فقال : يا ابن اليهودية خالطتك يهودية أو كما قال فقال عمر : أَبنيه في صدر المسجد فإنّ لنا صدُور المساجد ، فبناه في قبلي المسجد وهو الذي

يسميه كثير من العامة اليوم الأقصى .

والأقصى اسم للمسجد كله ولا يسم هو ولا غيره حرماً وإنما الحرم بمكة والمدينة خاصة وفي وادوَجٍّ الذي بالطائف نزاع بين العلماء ، فبنى عمر المصلى الذي هو في القبلة ويقال إن تحته درجاً كان يصعد منها إلى أمام الأقصى فبناه على الدرج حيث لم يصل إلا أهل الكتاب ، ولم يصل عمر ولا المسلمون عند الصخرة ولا تمسحوا بها ولا قبّلوها ؛ بل يقال إن عمر صلى عند محراب داود عليه السلام الخارج .

وقد ثبت أن عبد الله بن عمر كان إذا أتى بيت المقدس دخل إليه وصلى فيه ولا يقرب الصخرة ولا يأتيها ولا يقرب شيئاً من تلك البقاع .

وكذلك نقل عن غير واحد من السلف المعتبرين كعمر بن عبد العزيز والأوزاعي وسفيان الثوري وغيرهم وذلك أن سائر بقاع المسجد لا مزية لبعضها على بعض إلا ما بنى عمر رضى الله عنه لمصلى المسلمين وإذا كان المسجد الحرام ومسجد المدينة اللذان هما أفضل من المسجد الأقصى بالإجماع ، فأحدهما قد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام** » والآخر هو المسجد الذي أوجب الله حجه والطواف له فيه وجعله قبلة لعباده المؤمنين ومع هذا فليس فيهما ما يقبل بالفم ولا ما يستلم باليد إلا ما جعله الله في الأرض بمنزلة اليمين وهو الحجر الأسود[1] فكيف يكون في المسجد الأقصى ما يستلم أو يقبل ، وكانت الصخرة مكشوفة ولم يكن أحد من الصحابة لا ولاتهم ولا علماؤهم يخصها بعبادة ولا ريب أن الخلفاء الراشدين لم يبنوا هذه القبلة ولا كان الصحابة يعظمون الصخرة ، ولا يتحرون الصلاة عندها حتى أن ابن عمر رضي الله عنهما مع كونه

---

(١) وتقدم كلامه رحمه الله في الركن اليماني كما قد ثبت باتفاق أهل العلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما حج البيت لم يستلم من الأركان إلا الركنين اليمانيين اهـ وتمامه فيه من الصراط المستقيم .

كان يأتي من الحجاز إلى المسجد الأقصى كان لا يأتي الصخرة ، وذلك أنها كانت قبلة ثم نسخت وهي قبلة اليهود.

فلم يبق في شريعتنا ما يوجب تخصيصها بحكم ، كما ليس في شريعتنا ما يوجب تخصيص يوم السبت ، وفي تخصيصها بالتعظيم مشابهة لليهود وقد تقدم كلام العلماء في يوم السبت وعاشوراء ونحو ذلك .

ومعلوم أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان قد فتحوا البلاد بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم وسكنوا بالشام والعراق ومصر وغير هذه الأمصار وهم كانوا أعلم بالدين وأتبع له ممن بعدهم ، وليس لأحد أن يخالفهم فيما كانوا عليه فما كان من هذه البقاع لم يعظموه أو لم يقصدوا تخصيصه بصلاة أو دعاء أو نحو ذلك لم يكن لنا أن نخالفهم في ذلك ، وإن كان بعض من جاء بعدهم من أهل الفضل والدين فصل ذلك لأن اتباع سبيلهم أولى من اتباع سبيل من خالف سبيلهم وما من أحد نقل عنه ما يخالف سبيلهم إلا وقد نقل عن غيره ممن هو أعلم منه وأفضل أنه خالف سبيل هذا المخالف ، وهذه جملة جامعة لا يتسع هذا الموضع لتفصيلها .

وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أتى بيت المقدس ليلة الإسراء صلى فيه ركعتين ولم يصل بمكان غيره ولا زاره .

وقال رحمه الله بعد كلام : وأصل دين المسلمين أنه لا تختص بقعة بقصد العبادة فيها إلا المساجد خاصة وما عليه المشركون وأهل الكتاب من تعظيم بقاع للعبادة غير المساجد كما كانوا في الجاهلية يعظمون حِراء ونحوه من البقاع هي مما جاء الإسلام بمحوه وإزالته ونسخه ، ثم المساجد جميعها تشترك في العبادات فكل ما يفعله في مسجد يفعل في سائر المساجد إلا ما خص به المسجد الحرام من الطواف ونحوه فإن خصائص المسجد الحرام لا يشاركه فيها شيء من المساجد ، كما أنه لا يصلي إلى غيره .

وأما مسجد النبي صلى الله عليه وسلم والمسجد الأقصى فإن ما يشرع

فيها من العبادات يشرع في سائر المساجد كالصلاة والدعاء والذكر والقراءة والاعتكاف ولا يشرع فيهما جنس ما لا يشرع في غيرهما ولا تقبيل شيء ولا استلامه ولا الطواف به ونحو ذلك لكنهما أفضل من غيرهما فالصلاة فيهما تضاعف على الصلاة في غيرهما .

أما مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فقد ثبت في الصحيح أن الصلاة فيه أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام . وروي هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه ؛ ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام فإني آخر الأنبياء ومسجدي آخر المساجد** » .

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام** » .

وفي مسلم أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إن امرأة اشتكت شكوى فقالت : إن شفاني الله لأخرجن فلأصلينَّ في بيت المقدس فبرءت ثم تجهزت تريد الخروج فجاءت ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرتها بذلك فقالت : اجلسي فكلي ما صنعتِ وصلي في مسجد الرسول فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **صلاة فيه أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا مسجد الكعبة** » .

وفي المسند عن ابن الزبير رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي بمائة صلاة** » .

قال أبو عبد الله المقدسي : إسناده على رسم الصحيح ولهذا جاءت الشريعة

بالاعتكاف الشرعي في المساجد بدل ما كان يفعل قبل الإسلام من المجاورة بغار حرى ونحوه فكان النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى قبضه الله والاعتكاف من العبادات المشروعة بالمساجد باتفاق الأئمة كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ أي في حال عكوفكم في المساجد لا تباشروهن وإن كانت المباشرة خارج المسجد ، ولهذا قال الفقهاء : إن ركن الاعتكاف لزوم المسجد لعبادة الله ومحظوره الذي يبطله مباشرة النساء فأما العكوف والمجاورة عند شجرة أو حجر تمثال أو غير تمثال أو العكوف والمجاورة عند قبر نبي أو غير نبي أو مقام نبي أو غير نبي فليس هذا من دين المسلمين بل هو من جنس دين المشركين الذين أخبر الله عنهم بما ذكره في كتابه حيث قال : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟

عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فهذا عكوف المشركين وذلك عكوف المسلمين فعكوف المؤمنين في المساجد لعبادة الله وحده لا شريك له وعكوف المشركين علي ما يرجونه ويخافونه من دون الله ومن يتخذونهم شركاء لله وشفعاء عنده فإن المشركين لم يكن أحد منهم يقول إن العالم له خالقان ولا إن الله معه إله يساويه في صفاته . هذا لم يقله أحد من المشركين بل كانوا يقرون بأن خالق السموات والأرض واحد كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ وكانوا يقولون في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك فقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ وكانوا يتخذون آلهتهم وسائط تقربهم إلى الله زلفي وتشفع لهم كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

وقال تعالى عن صاحب يس : ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وهذا الموضع افترق الناس فيه ثلاث فرق طرفان ووسط فالمشركون ومن وافقهم من مبتدعة أهل الكتاب كالنصارى ومبتدعة هذه الأمة أثبتوا الشفاعة التي نفاها القرآن والخوارج والمعتزلة أنكروا شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر من أمته بل أنكر طائفة من أهل البدع انتفاع الإنسان بشفاعة غيره ودعائه كما أنكروا انتفاعه بصدقة غيره وصيامه عنه وأنكروا الشفاعة بقوله تعالى : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ وغير ذلك .

وأما سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم من أهل السنة والجماعة فأثبتوا ما جاءت به السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم من شفاعته لأهل الكبائر من أمته وغير ذلك من أنواع شفاعاته وشفاعة غيره من الأنبياء والملائكة وقالوا : إنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد وأقروا بما جاءت به السنة من انتفاع الإنسان بدعاء غيره وشفاعته والصدقة عنه بل والصوم عنه في أصح قولي العلماء كما ثبتت به السنة الصحيحة الصريحة وما كان في معنى الصوم ، وقالوا : إن الشفيع يطلب من الله ويسأله ولا تنفع الشفاعة عنده إلا بإذنه قال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ وقال : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ .

وقد ثبت في الصحيح أن سيد الشفعاء صلى الله عليه وسلم إذا طلبت منه الشفاعة بعد أن تطلب من آدم وأولي العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى فيردونها إلى محمد صلى الله عليه وسلم العبد الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه

وما تأخر قال : « **فأذهب إلى ربي فإذا رأيته خررت له ساجداً فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي لا أحسنها الآن فيقول أي محمد ارفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع فأقول : ربي أمتي ربي أمتي فيَحُدُّ لي حدّاً فأدخلهم الجنة** » وقال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ قال طائفة من السلف : كان أقوام يدعون العزير والمسيح والملائكة فأنزل الله هذه الآية وقد أخبر فيها أن هؤلاء المسئولين كانوا يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه .

وقد ثبت في الصحيح أنا أبا هريرة قال : يا رسول الله أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة قال : « **يا أبا هريرة لقد ظننتُ أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد ، الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله** » فكلما كان الرجل أتم إخلاصاً لله كان أحق بالشفاعة ، وأما من علق قلبه بأحد من المخلوقين يرجوه ويخافه فهذا من أبعد الناس عن الشفاعة ، فشفاعة المخلوق عند المخلوق تكون بإعانة الشافع للمشفوع له بغير إذن المشفوع عنده بل يشفع إما لحاجة المشفوع عنده إليه ، وإما لخوفه منه فيحتاج أن يقبل شفاعته عنده والله تعالى غني عن العالمين ، وهو وحده سبحانه يدبر العالمين كلهم فما من شفيع إلا من بعد إذنه فهو الذي يأذن للشفيع في الشفاعة وهو يقبل شفاعته كما يُلْهِمُ الداعي الدعاء ثم يجيب دعاءه فالأمر كله له فإذا كان العبد يرجو شفيعاً من المخلوقين . فقد لا يختار ذلك الشفيع أن يشفع له ، وإن اختار فقد لا يأذن الله له في الشفاعة ولا يقبل شفاعته .

وأفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ثم إبراهيم وقد امتنع النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لعمه أبي طالب بعد أن قال : « **لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك** » وقد صلى على المنافقين ودعا لهم فقيل له : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم

مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ وقال الله له أولاً : ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ فقال : « **لو أعلم أني لو زدت على السبعين يغفر لهم لزدت** » فأنزل الله : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ ولما استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه بعد وعده بقوله : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ والله سبحانه له حقوق لا يشركه فيها غيره ، وللرسل حقوق لا يشركهم فيها غيرهم ، وللمؤمنين على المؤمنين حقوق مشتركة .

ففي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي : « **يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد ؟** » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « **حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً** » . **يا معاذ أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك** ؟ قلتُ : الله ورسوله أعلم قال : **حقهم عليه أن لا يعذبهم** » .

فالله تعالى مستحق أن يعبد لا يشرك به شيء وهذا هو أصل التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب قال تعالى : ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا

مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾

ويدخل في ذلك أن لا نخاف إلا إياه ولا نتقي إلا إياه كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ فجعل الطاعة لله وللرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده وكذلك قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ فجعل الإيتاء لله وللرسول كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ فالحلال ما حلله الرسول ، والحرام ما حرمه الرسول ، والدين ما شرعه الرسولُ ، وجعل التحسب بالله وحده فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ ولم يقل ورسوله كما قال : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي حسبك وحسب من اتبعك الله فهو وحده كافيكم ومن ظَنَّ أن معناها حَسْبُكَ الله والمؤمنون فقد غلط غلطاً عظيماً لوجوه كثيرة مبسوطة في غير هذا الموضع ثم قال : ﴿ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥ ﴾ فجعل الفضل لله . وذكر الرسول في الإيتاء لأنه لا يباح إلا ما أباحه الرسول فليس لأحد أن يأخذ كل ما تيسر له إن لم يكن مباحاً في الشريعة ثم قال : ﴿ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ فجعل الرغبة إلى الله وحده دون ما سواه كما قال تعالى في سورة الانشراح : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ فأمر بالرغبة إليه ولم يأمر الله قط مخلوقاً أن يسأل مخلوقاً وإن كان قد أباح ذلك في بعض المواضع لكنه لم يأمر به ؛ بل الأفضل للعبد أن لا يسأل قط إلا الله ، كما ثبت في الصحيح في صفة الذين يدخلون الجنة بغير حساب « **هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون** » فجعل من صفاتهم أنهم لا يسترقون أى لا يطلبون من غيرهم أن يرْقيهم ولم يقل : لا يرقون ، وإن كان ذلك قد روى في بعض طرق مسلم فهو غلط ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم

رقَى نفسه وغيره لكنه لم يسترق فالمسترقي طالب الدعاء من غيره بخلاف الراقي لغيره فإنه داعٍ له ، وَقد قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس : « **إذا سألتَ فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله** » فالله هو الذي يتوكل عليه ويستعان به ويستغاث به ويخاف ويرجى ويعبد وتنيب القلوب إليه لا حول ولا قوة إلا به ولا منجي منه إلا إليه . والقرآن كله يحقق هذا الأصل ، والرسول صلى الله عليه وسلم يطاع ويُحَبُّ ويُرْضَى به ويسلم إليه حكمه ويُعَزَّر ويُوقَّر ويتبع ويؤمن به وبما جاء به قال تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ وقال تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ .

وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم : « **ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار** » وقال : « **والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين** » وقال له عمر : يا رسول الله لأنت أحبّ إليَّ من كل شيء إلا نفسي قال : « **لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك** » قال : فلأنت أحبُّ إلي من نفسي قال : « **الآن يا عمر** »وقال تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أي الرسول خاصة ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي تسبحوا الله تعالى فالإيمان بالله والرسول والتعزير والتوقير للرسول والتسبيح لله وحده ، وهذا الأصل مبسوط في غير هذا الموضع وقد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بتحقيق التوحيد وتجريده ونفي الشرك بكل وجه حتى في الألفاظ

كقوله صلى الله عليه وسلم : « **لا يقولن أحدكم ما شاء الله وشاء محمد بل ما شاء الله ثم شاء محمد** » وقال له رجل : ما شاء الله وشئت فقال : « **أجعلتني لله نِداً قل ما شاء الله وحده** » .

والعبادات التي شرعها الله كلها تتضمن إخلاص الدين كله لله تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ فالصلاة لله وحده والصدقة لله وحده والصيام لله وحده والحج لله وحده إلى بيت الله وحده فالمقصود من الحج عبادة الله وحده في البقاع التي أمر الله بعبادته فيها ولهذا كان الحج شعار الحنيفية حتى قال طائفة من السلف : ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ ﴾ أي حجاجاً فإن اليهود والنصارى لا يحجون البيت .

قال طائفة من السلف : لما أنزل الله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ قالت : اليهود والنصارى نحن مسلمون فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ فقالوا : ألا نحج فقال تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا ﴾ الآية عام في الأولين والآخرين بأن دين الإسلام هو دين الله الذي جاء به أنبيائه وعليه عباده المؤمنون ، كما ذكر الله ذلك في كتابه من أول رسول بعثه إلى أهل الأرض نوح وإبراهيم وإسرائيل وموسى وسليمان وغيرهم من الأنبياء المؤمنين قال الله تعالى في حق نوح : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ وقال تعالى في إبراهيم وإسرائيل : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ

إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ وقال تعالى عن يوسف : ﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ وقال تعالى عن موسى وقومه : ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ وقال في أنبياء بني إسرائيل : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار ﴾ الآية وقال تعالى عن بلقيس : ﴿ رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ وقال تعالى عن أمة عيسى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ وقال تعالى عنهم أيضاً : ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ وقد فسر إسلام الوجه لله بما يتضمن إخلاص قصد العبد لله بالعبادة له وحده وهو محسن بالعمل الصالح المشروع المأمور به وهذان الأصلان جماع الدين أن لا نعبد إلا الله وأن لا نعبده إلا بما شرع لا نعبده بالبدع . قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ .

وكان عمر بن الخطاب يقول في دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ قال : أخلصه وأصوبه قالوا : يا أبا علي ما أصوبه وأخلصه قال : إن العمل إذا

كان خالصاً و لم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً و لم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة .

وهذان الأصلان هما تحقيق الشهادتين اللتين هما رأس الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله ، فإن الشهادة لله بأنه لا إله إلا هو تتضمن إخلاص الألوهية له فلا يجوز أن يتألّه القلب غيره لا بحب ولا خوف ولا رجاء ولا إجلال ولا إكبار ولا رغبة ولا رهبة بل لابد أن يكون الدين كله لله كما قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغيره كان في ذلك من الشرك بحسب ذلك وكمال الدين كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره : « **من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان** » فالمؤمنون يحبون الله ولِلّهِ والمشركون يحبون مع الله كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ والشهادة بأن محمداً رسول الله تتضمن تصديقه في كل ما أخبر وطاعته في كل ما أمر فما أثبته وجب إثباته وما نفاه وجب نفيه كما يجب على الخلق أن يثبتوا لله ما أثبته الرسول لربه من الأسماء والصفات وينفوا عنه ما نفاه عنه من مماثلة المخلوقات ، فيخلصون من التّعْطِيلِ والتمثيل ويكونون على خير عقيدة في إثبات بلا تشبيه ، وتنزيه بلا تعطيل ، وعليهم أن يفعلوا ما أمرهم به ، وأن ينتهوا عما نهاهم عنه ، ويحللوا ما أحله ويحرموا ما حرمه ، فلا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله ولا دين إلا ما شرعه الله ورسوله ، ولهذا ذم الله المشركين في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما لكونهم حرموا ما لم يحرمه الله ولكونهم شرعوا ديناً لم يأذن به الله في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ إلى آخر السورة وما ذكر الله في صدر سورة الأعراف وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ وقد قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ فأخبره أنه أرسله داعياً إليه بإذنه فمن دعا إلى غير الله فقد أشرك و لم يوجد مبتدع

إلا وفيه نوع من الشرك كما قال تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وكان من شركهم أنهم أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم وقد قال تعالى : ﴿ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ فقرن بعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر أنهم لا يحرمون ما حرمه الله ورسوله ولا يدينون دين الحق ؛ والمؤمنون صدقوا الرسول فيما أخبر به عن الله وعن اليوم الآخر فآمنوا بالله واليوم الآخر وأطاعوه فيما أمر ونهى وحلل وحرم فحرموا ما حرم الله ورسوله ودانوا دين الحق ؛ فإن الله بعث الرسول يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث فأمرهم بكل معروف وأحل لهم كل طيب وحرم عليهم كل خبيث .

ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الإخلاص مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ فلابد في الإسلام من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة قولنا لا إله إلا الله فمن استسلم لله ولغيره فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

وثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال : « **لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان** » فقيل له يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً أفمن الكبر ذلك ؟ قال : « **لا إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطْر الحق وغمطُ الناس** » بطْر الحق جحده ودفعه وغمط الناس ازدراؤهم واحتقارهم فاليهود موصوفون بالكبر والنصارى موصوفون بالشرك ، قال الله تعالى في نعت اليهود :

﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ وقال في نعت النصارى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ولهذا قال تعالى في سياق الكلام مع النصارى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

وقال تعالى في سياق تقريره للإسلام وخطابه لأهل الكتاب : ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ إلى قوله وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ولما كان أصل الدين الذي هو دين الإسلام واحدا وإن تنوعت شرائعه قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « **إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد والأنبياء إخوان لعلّات وإن أولى الناس بابن مريم لأنا فليس بيني وبينه نبي** » فدينهم واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له وهو يعبد في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت وذلك هو دين الإسلام في ذلك الوقت وتنوع الشرائع في الناسخ والمنسوخ من المشروع كتنوع الشريعة الواحدة فلما أن دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم هو دين واحد مع أنه قد كان في وقت يجب استقبال بيت المقدس في الصلاة كما أمر النبي المسلمين بذلك بعد الهجرة ببضعة عشر شهراً ، وبعد ذلك يجب استقبال الكعبة ويحرم استقبال الصّخرة ، فالدين واحد وإن تنوعت القبلة في وقتين من أوقاته ولهذا شرع الله تعالى لبني إسرائيل السبت ثم نسخ ذلك وشرع لنا الجمعة فكان الاجتماع يوم السبت واجباً إذ ذاك ثم صار الواجب هو الاجتماع يوم الجمعة وحرم الاجتماع يوم السبت ، فمن خرج عن شريعة موسى قبل النسخ لم يكن مسلما ، ولم يشرع الله لنبي من الأنبياء أن يعبد غير الله البتة قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ

ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ فأمر الرسل أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ثم قال : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ .

فأهل الإشراك متفرقون وأهل الإخلاص متفقون وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ فأهل الرحمة مجتمعون متفقون والمشركون فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ولهذا تجد ما أحدث من الشرك والبدع يفترق أهله فكان لكل قوم من مشركي العرب طاغوت يتخذونه نداً من دون الله فيقربون له ويستعينون به ويشركون به ، وهؤلاء ينفرون عن طاغوت هؤلاء وهؤلاء ينفرون عن طاغوت هؤلاء ؛ بل يكون لأهل هذا الطاغوت شريعة ليست للآخرين كما كان أهل المدينة يُهِلُّون لِمناة الثالثة الأخرى ، ويتحرجون من الطواف بين الصفا والمروة حتى أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية وهكذا تجد من يتخذ شيئاً من نحو هذا الشرك كالذين يتخذون القبور وآثار الأنبياء والصالحين مساجد تجد كل قوم يقصدون بالدعاء والاستغاثة والتوجه من لا تعظمه الطائفة الأخرى ، بخلاف أهل التوحيد فإنهم يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئاً في بيوته التي قد أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه مع أنه قد جعل لهم الأرض كلها مسجداً وطهوراً ، وإن حصل بينهم تنازع في شيء مما يسوغ فيه الاجتهاد لم يوجب لهم تفرقاً ولا اختلافاً ، بل هم يعلمون أن المصيب منهم له أجران ، وأن المجتهد المخطيء له أجر على اجتهاده ، وخطؤه مغفور له ، والله هو معبودهم وحده إيَّاه يعبدون وعليه يتوكلون وله

يخشون ويرجون وبه يستعينون ويستغيثون وله يدعون ويسألون ، فإن خرجوا إلى الصلاة في المساجد كانوا مبتغين فضلاً منه ورضواناً كما قال تعالى في نعتهم : ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ وكذلك إذا سافروا إلى أحد المساجد الثلاثة لا سيما المسجد الحرام الذي أمروا بالحج إليه قال تعالى : ﴿ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴾ فهم يؤمّون بيته يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً ، لا يرغبون إلى غيره ولا يرجون سواه ولا يخافون إلا إياه .

وقد زين الشيطان لكثير من الناس سوء عملهم واستزلهم عن إخلاص الدين لربهم إلى أنواع من الشرك ، فيقصدون بالسفر والزيارة رضى غير الله والرغبة إلى غيره ويشدون الرحال إما إلى قبر نبي أو صاحب أو صالح أو من يظنون أنه نبي أو صاحب أو صالح داعين له راغبين إليه ، ومنهم من يظن أن المقصود من الحج هذا فلا يستشعر إلا قصد المخلوق المقبور ، ومنهم من يرى أن ذلك أنفع له من حج البيت ، ومن شيوخهم من يقصد حج البيت فإذا وصل إلى المدينة رجع مكتفياً بزيارة القبر وظن أن هذا أبلغ ، ومن جهالهم من يَتوهم أن زيارة القبور واجبة ، وأكثرهم يسأل الميت المقبور كما يسأل الحي الذي لا يموت فيقول يا سيدي فلان اغفر لي وارحمني وتب علي ، أو يقول اقض عني الدين وانصرني على فلان وأنا في حسبك وجوارك ، وقد ينذرون أولادهم للمقبور ويسيبون له السوائب من البقر والغنم وغيرها ، كما كان المشركون يسيبون السوائب لطواغيتهم قال تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ومن السدنة من يضلل الجهال فيقول أنا أذكر حاجتك لصاحب الضريح وهو يذكرها للنبي والنبي يذكرها لله ، ومنهم من يعلق على القبر المكذوب أو غير المكذوب من الستور والثياب ويضع عنده من مصوغ الذهب والفضة مِمّا قد أجمع المسلمون على أنه

من دين المشركين وليس من دين الإسلام ، والمسجد الجامع معطل خراب صورة ومعنى ، وما أكثر من يعتقد من هؤلاء أن صلاته عند القبر المضاف إلى بعض المعظمين مع أنه كذب في نفس الأمر أعظم من صلاته في المساجد الخالية من القبور والخالصة لله ، فيزدحمون للصلاة في مواضع الإشراك المبتدعة التي نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن اتخاذها مساجد ، وإن كانت على قبور الأنبياء ويهجرون الصلاة في البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه والتي قال فيها : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ ومن أكابر شيوخهم من يقول الكعبة في الصلاة قبلة العامة ، والصلاة إلى قبر الشيخ فلان مع استدبار الكعبة قبلة الخاصة ، وهذا وأمثاله من الكفر الصريح باتفاق علماء المسلمين وهذه المسائل تحتمل من البسط ، وذكر أقوال العلماء فيها ودلائلها أكثر مما كتبناه في هذا المختصر وقد كتبنا في ذلك في غير هذا الموضع ما لا يتسع له هذا الموضع ، وإنما نبهنا فيه على رءوس المسائل وجنس الدلائل والتنبيه على مقاصد الشريعة وما فيها من إخلاص الدين لله وعبادته وحده لا شريك له ، وما سَدَّته من الذريعة إلى الشرك دِقِّهِ وجِلِّه ، فإن هذا هو أصل الدين وحقيقة دين المرسلين وتوحيد رب العالمين ، وقد غلط في مسمى التوحيد طوائف من أهل النظر والكلام ، ومن أهل الإرادة والعبادة حتى قلبوا حقيقته في نفوسهم ؛ فطائفة ظنت أن التوحيد هو نفي الصفات ، بل نفي الأسماء الحسنى أيضاً ، وسموا أنفسهم أهل التوحيد وأثبتوا ذاتاً مجردة عن الصفات ، ووجوداً مطلقاً بشرط الإطلاق وقد علم بصريح المعقول المطابق لصحيح المنقول أن ذلك لا يكون إلا في الأذهان لا في الأعيان ، وزعموا أن إثبات الصفات يستلزم ما سموه تركيباً وظنوا أن العقل ينفيه كما قد كشفنا أسرارهم وبينا فرط جهلهم وما أضلهم من الألفاظ المجملة المشتركة في غير هذا الموضع ، وطائفة ظنوا أن التوحيد ليس إلا الإقرار بتوحيد الربوبية ، وأن الله خلق كل شيء وهو الذي يسمونه توحيد الأفعال .

ومن أهل الكلام من أطال نظره في تقرير هذا الموضع إما بدليل أن الاشتراك

يوجب نقص القدرة وفوات الكمال وبأن استقلال كل من الفاعلين بالمفعول وإما بغير ذلك من الدلائل ويظن أنه بذلك قرر الوحدانية وأثبت أنه لا إله إلا هو وأن الإلٰهية هي القدرة على الاختراع ونحو ذلك فإذا ثبت أنه لا يقدر على الاختراع إلا الله وأنه لا شريك له في الخلق كان هذا عندهم هو معنى قولنا لا إله إلا الله ولم يعلم أن مشركي العرب كانوا مقرين بهذا التوحيد كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الآيات وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ قال ابن عباس وغيره: تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره. وهذا التوحيد هو من التوحيد الواجب لكن لا يحصل به كل الواجب ولا يخلص بمجرده عن الشرك الذي هو أكبر الكبائر الذي لا يغفره الله؛ بل لابد أن يخلص لِلّٰهِ الدين والعبادة فلا يعبد إلا إياه ولا يعبده إلا بما شرع فيكون دينه كله لله والإله هو المألوه الذين تأله القلوب وكونه يستحق الإلٰهية مستلزم لصفات الكمال فلا يستحق أن يكون معبوداً محبوباً لذاته إلا هو، وكل عمل لا يراد به وجهه فهو باطل، وعبادة غيره وحب غيره يوجب الفساد كما قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ وقد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضع وبينا أن هذه الآية ليس المقصود بها ما يقوله من أهل الكلام من ذكر دليل التمانع الدال على وحدانية الرب تعالى فإن التمانع يمنع وجود المفعول لا يوجب فساده بعد وجوده، وذلك يذكر في الأسباب والبدايات التي تجرى مجرى العِلل الفاعلات، والثاني يذكر في الحِكم والنهايات التي تذكر في العِلل التي هي الغايات كما في قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فقدم الغاية المقصودة على الوسيلة الموصلة، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

ثم إن طائفة ممن تكلم في تحقيق التوحيد على طريق أهل التصوف ظن أن توحيد الربوبية هو الغاية، والفناء فيه هو النهاية وأنه إذا شهد ذلك سقط عنه استحسان الحسن واستقباح القبيح، فآل بهم الأمر إلى تعطيل الأمر والنهي

والوعد والوعيد ، ولم يفرقوا بين مشيئته الشاملة لجميع المخلوقات ، وبين محبته ورضاه المختص بالطاعات ، وبين كلماته الكونيات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر لشمول القدرة لكل مخلوق ، وكلماته الدينيات التي اختص بموافقتها أنبياؤه وأولياؤه فالعبد مع شهوده الربوبية العامة الشاملة للمؤمن والكافر والبر والفاجر عليه أن يشهد ألوهيته التي اختص بها عباده المؤمنين الذين عبدوه وأطاعوا أمره واتبعوا رسله قال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الخ .

ومن لم يفرق بين أولياء الله وأعدائه ، وبين ما أمر به وأوجبه من الإيمان والأعمال الصالحات ، وبين ما كرهه ونهى عنه وأبغضه من الكفر والفسوق والعصيان مع شمول قدرته ومشيئته وخلقه لكل شيء وإلا وقع في دين المشركين الذين قالوا : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾ والقدر يؤمن به ولا يحتج به ؛ بل العبد مأمور أن يرجع إلى القدر عند المصائب ويستغفر الله عند الذنوب والمعائب كما قال تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ ولهذا حج آدم موسى عليهما السلام لما لام موسى آدم لأجل المصيبة التي حصلت لهم بأكله من الشجرة فذكر له آدم : أن هذا كان مكتوباً قبل أن أخلق فحج آدم موسى كما قال : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ قال بعض السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلّم ، فهذا وجه احتجاج آدم بالقدر ومعاذ الله أن يحتج آدم أو من هو دونه من المؤمنين على المعاصي بالقدر ؛ فإنه لو ساغ هذا لساغ أن يحتج إبليس ومن اتبعه من الجن والإنس بذلك ، ويحتج قوم نوح وعاد وثمود وسائر أهل الكفر والفسوق

والعصيان ، ولم يعاقب ربنا أحداً ، وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار شرعاً وعقلاً ؛ فإن هذا القول لا يطرده أحد من العقلاء فإن طرده يوجب أن لا يلام أحد على شيء ولا يعاقب عليه ، وهذا المحتج بالقدر لو جنى عليه جان لطالبه فإن كان القدر حجة فهو حجة للجاني عليه ، وإلا فليس حجة لا لهذا ولا لهذا ، ولو كان الاحتجاج بالقدر مقبولاً لم يكن للناس أن يعيشوا إذا كان لكل من اعتدى عليهم أن يحتج بذلك فيقبلوا عذره ولا يعاقبوه ، ولا يمكن اثنين من أهل هذا القول أن يعيشا ؛ إذ لكل منهم أن يقتل الآخر ويفسد جميع أموره محتجاً على ذلك بالقدر .

ثم إن أولئك المبتدعين الذين أدخلوا في التوحيد نفي الصفات ، وهؤلاء الذين أخرجوا عنه متابعة الأمر إذا حققوا القولين أمْضى بهم الأمر إلى أن لا يفرقوا بين الخالق والمخلوق ، بل يقولون بوحدة الوجود كما قاله أهل الإلحاد القائلين بالوحدة والحلول والاتحاد الذين يعظمون الأصنام وعابديها وفرعون وهامان وقومهما ، ويجعلون وجود خالق الأرض والسموات هو وجود كل شيء من الموجودات ، ويدعون التوحيد والتحقيق والعرفان وهم من أعظم أهل الشرك والتلبيس والبهتان ، يقول عارفهم السالك في أول أمره يفرق بين الطاعة والمعصية أي نظراً إلى الأمر ، ثم يرى طاعة بلا معصية أي نظراً إلى القدر ثم لا طاعة ولا معصية أي نظراً إلى أن الوجود واحد ولا يفرق بين الواحد بالعين والواحد بالنوع فإن الموجودات مشتركة في مسمى الوجود ، والوجود ينقسم إلى قائم بنفسه وقائم بغيره وواجب وممكن بنفسه ، كما أن الحيوانات مشتركة في مسمى الحيوانات والأناسي مشتركون في مسمى الإنسان مع العلم الضروري بأنه ليس عين وجود هذا الإنسان هو عين وجود هذا الفرس بل ولا عين هذا الحيوان وحيوانيته وإنسانيته هو عين هذا الحيوان وحيوانيته وإنسانيته لكن بينهما قدر مشترك تشابها فيه قد يسمى كليّاً مطلقاً ، وقدرا مشتركا ونحو ذلك وهذا لا يكون في الخارج عن الأذهان كليًّا عاماً مطلقاً ، بل لا يوجد إلا معيناً شخصيًّا فكل موجود له فله ما يخصه من حقيقته مما لا يشركه فيه غيره ؛ بل ليس بين

موجودين في الخارج شيء بعينه اشتركا فيه ولكن تشابها ففي هذا نظير ما في هذا كما أن هذا نظير هذا وكل منهما متميز بذاته وصفاته عما سواه فكيف الخالق سبحانه وتعالى .

وهذا كله مبسوط في غير هذا الموضع البسط الذي يليق به فإنه مقام زلت فيه أقدام وضلت فيه أحلام ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

ومن أحكم الأصلين المتقدمين في الصفات والخلق والأمر فيميز بين المأمور المحبوب المرضي لله وبين غيره مع شمول القدر لهما وأثبت للخالق سبحانه الصفات التي توجب مباينته المخلوقات وأنه ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته أثبت التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه كما نبه على ذلك في سورة الإخلاص و ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ . و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فإن : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن إذا كان القرآن باعتبار معانيه ثلاثة أثلاث ثلث توحيد وثلث قصص وثلث أمر ونهي ؛ لأن القرآن كلام الله والكلام إما إنشاء وإما إخبار . الإخبار إما عن الخالق وإما عن المخلوق ، والإنشاء أمر ونهي وإباحة : فـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها ثلث التوحيد الذي هو خبر عن الخالق ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « **قل هو الله أحد** » **تعدل ثلث القرآن** » . وعَدْل الشيء بالفتح يكون ما سواه من غير جنسه كما قال تعالى : ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ وذلك يقتضي أن له من الثواب ما يساوي الثلث في القدر ولا يكون مثله في الصفة كمن معه ألف دينار وآخر معه ما يعدلها من الفضة والنحاس وغيرها ولهذا يحتاج إلى سائر القرآن ، ولا تغني عنه هذه السورة مطلقاً ، كما يحتاج من معه نوع من المال إلى سائر الأنواع إذ كان العبد محتاجاً إلى الأمر والنهي والقصص .

وسورة : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها التوحيد القولي العملي الذي تدل عليه الأسماء والصفات ولهذا قال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ وقد بسطنا الكلام عليها في غير هذا الموضع .

وسورة ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فيها التوحيد القصدي العملي كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وبهذا يتميز من يعبد الله ممن يعبد غيره ، وإن كان كل واحد منهما يقر بأن الله رب كل شيء ومليكه ويتميز عباد الله المخلصين الذين لم يعبدوا إلا إياه ممن عبدوا غيره وأشركوا به أو نظروا إلى القدر الشامل لكل شيء فسوى بين المؤمنين والكفار كما كان يفعل المشركون من العرب ولهذا قال صلى الله عليه وسلم إنها براءة من الشرك .

وسورة : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها إثبات الذات وما لها من الأسماء والصفات التي يتميز بها مثبتو الرب الخالق الأحد الصمد عن المعطلين له بالحقيقة نفاة الأسماء والصفات المضاهين لفرعون وأمثاله ممن أظهر التعطيل والجحود للإله المعبود وإن كان في الباطن يقر به كما قال تعالى : ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ وقال موسى : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ والله سبحانه بعث أنبياءه بإثبات مفصل ونفي مجمل فأثبتوا له الأسماء والصفات ونفوا عنه مماثلة المخلوقات ومن خالفهم من المعطلة المتفلسفة وغيرهم عكسوا القضية فجاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل يقولون : ليس كذا ليس كذا ليس كذا فإذا أرادوا إثباته قالوا : وجود مطلق بشرط النفي أو شرط الإطلاق ، وهم يقرون في منطقهم اليوناني أن المطلق بشرط الإطلاق لا يكون في الخارج ، فليس في الخارج حيوان بشرط الإطلاق ولا إنسان مطلق بشرط الإطلاق ، ولا موجود مطلق بشرط الإطلاق بخلاف المطلق لا بشرط الذي يطلق على هذا . هذا وينقسم إلى هذا وهذا فإن هذا يقال إنه في الخارج لا يكون إلا معيناً مشخصاً أو يقولون إنه الوجود المشروط بنفي كل ثبوت عنه منه فيكون مشاركاً لسائر الموجودات في مسمى الوجود متميزاً عنها بالعدم وكل موجود متميز بأمر ثبوتي والوجود خير من العدم فيكون أحقر الموجودات خيراً من العدم وذلك ممتنع ؛ لأن المتميز بين الموجودين لا يكون عدماً محضاً بل لا يكون إلا وجوداً ، فهؤلاء الذين يدعون أنهم أفضل المتأخرين من الفلاسفة المشائين يقولون في وجود واجب الوجود ما

يعلم بصريح المعقول الموافق لقوانينهم المنطقية أنه قول بامتناع الوجود وأنه جمع بين النقيضين وهذا هو في غاية الجهل والضلال .

وأما الرسل صلوات الله عليهم فطريقتهم طريقة القرآن قال سبحانه وتعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ والله تعالى يخبر في كتابه أنه حي قيوم عليم حكيم غفور رحيم سميع بصير عَلِيٌّ عظيم خلق السموات والأرض وما بينهما في ستةِ أيام ثم استوى على العرش وكلم موسى تكليماً وتجلي للجبل فجعله دكّاً يرضى عن المؤمنين ويغضب على الكافرين إلى أمثال ذلك من الأسماء والصفات ويقول في النفي : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ و ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ فنفى ذلك أن تكون صفاته كصفات المخلوقين وأنه ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ولا في شيء من صفاته ولا أفعاله ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ فالمؤمن يؤمن بالله وما له من الأسماء الحسنى ويدعوه بها ويجتنب الإلحاد في أسمائه وآياته كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ وهو يدعو الله وحده ويعبده وحده لا يشرك بعبادة ربه أحداً ويجتنب طريق المشركين الذين قال الله فيهم : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ وهذه جمل لها تفاصيل ونكت تتغير إلى

خطب جليل فليجتهد المؤمن في تحقيق العلم والإيمان وليتخذ الله هادياً ونصيراً وحاكماً ووليّاً فإنه نعم المولى ونعم النصير وكفي بربك هادياً ونصيراً وإن أحب دعا بالدعاء الذي رواه مسلم وأبو داود وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام يصلي من الليل يقول : « **اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم** » وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي فاختلفوا كما في سورة يونس ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ وقد قيل إنها كذلك في حرف عبد الله ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين كل وقت وحين آمين انتهى ملخصاً من اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه .

○ خاتمة الطبع ○

يقول العبد الفقير إلى عفو الله ومغفرته محمد حامد الفقي :

أما بعد حمداً لله والصلاة والسلام على خاتم رسله عبد الله ورسوله محمد وعلى آله :

قد تم بتوفيق الله وحسن معونته طبع كتاب « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم » لشيخ الإسلام علم الأعلام المجاهد الصادق الصبار الشكور أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية المتوفى في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة حبيس الظلم والجهل والتقليد الأعمى وهو من أنفس ما كتب شيخ الإسلام رحمه الله وغفر لنا وله ، أقام فيه عماد السنة وهدم فيه أوهام البدعة وكشف عن وجه الحق ما لبسه الأعداء من الخرافات والأباطيل ودل فيه الأمة على عناصر الحياة القوية العزيزة التي جاءهم بها نبيهم الكريم صلى الله عليه وسلم من عند ربهم العليم الحكيم وبين أن الأمة لن تحيى الحياة الطيبة إلا إذا احتفظت بشخصيتها الإسلامية العربية ولن يتحقق لها ذلك إلا إذا عادت إلى صراط الله المستقيم الذي أقامه الله لها بهذا القرآن المبين وبيان رسوله الأمين واستمسكت بحبل الله المتين وتخلصت من مشابهة أصحاب الجحيم المغضوب عليهم والضالين فدانت لله وحده بالعبادة مخلصة له الدين وعبدته بما أحب لها واختار من الشرائع والعبادات التي هى الهدى والرحمة والشفاء لما في الصدور أقدمه لأمتي راجياً أن ينفعها الله بما فيه من العلم النافع والوصايا القيمة سائلاً ربي سبحانه وتعالى أن يعيد للمسلمين يقظتهم وأن يكشف عنهم غمة هذه التقاليد والوثنية والخرافات الجاهلية والعقائد والأعمال والأحكام الإلحادية وأن يأخذ بقلوب القادة والزعماء إلى سبيل السداد والهدى والرشاد وأن يعيد للمسلمين عزهم الغابر ومجدهم التالد وصلى الله على عبده ورسوله محمد وعلى آله أجمعين . في الحادي والعشرين من رجب سنة ١٣٩٩ هـ .

* * *



جذوة مباركة من

○ الإغاثة ○

تأليف : شمس الدين ابن القيم رحمه الله



○ بسم الله الرحمن الرحيم ○

قال الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي الفقيه الأصولي المفسر النحوي العارف شمس الدين أبو عبد الله بن القيم الجوزية في كتابه اغاثة اللهفان من مصائد الشيطان :

فقال رحمه الله تعالى : ورتبته على ثلاثة عشر باباً .

الباب الأول في انقسام القلوب إلى صحيح وسقيم وميت :

لما كان القلب يوصف بالحياة وضدها انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة :

فالقلب الصحيح : هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ .

والسليم هو السالم وجاء على هذا المثال لأنه للصفات كالطويل والقصير والظريف .

فالسَّليم القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له كالعليم والقدير ، وأيضا فإنه ضد المريض والسقيم والعليل .

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم ، والأمر الجامع لذلك أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره فسلم من عبودية ما سواه ، وسلم من تحكيم غير رسوله ، فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والذل له.وإيثار مرضاته في كل حال والتباعد من سخطه بكل طريق ، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده ، فالقلب السليم هو الذي سلم من أن يكون لغير الله

فيه شرك بوجه ما ؛ بل قد خلصت عبوديته لله تعالى إرادة ومحبة وتوكلاً وإنابة وإخباتاً وخشية ورجاء وخلص عمله لله ، فإن أحب أحب في الله وإن أبغض أبغض في الله ، وإن أعطى أعطى لله ، وإن منع منع لله ، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله صلى الله عليه وسلم فيعقد قلبه معه عقداً محكماً الائتمام والاقتداء به وحده دون كل أحد في الأقوال والأعمال من أقوال القلب وهي العقائد ، وأقوال اللسان وهي الخبر عما في القلب ، وأعمال القلب وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها ، وأعمال الجوارح ، فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقه وجله هو ما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل كما قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي لا تقولوا حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمر .

قال بعض السلف : ما من فعلة وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان لم وكيف ؟ أي لم فعلت وكيف فعلت ؟.

فالأول : سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم أو استجلاب محبوب عاجل أو دفع مكروه عاجل ؟ أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى وابتغاء الوسيلة إليه ؟ .

ومحل هذا السؤال أنه هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك أم فعلته لحظك وهواك ؟

والثاني : سؤال عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في ذلك التعبد أي هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولي أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه ؟ فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثاني عن المتابعة ، فإن الله لا يقبل عملاً إلا بهما فطريق التخلص من السؤال الأول بتجريد الإخلاص وطريق

التخلص من السؤال الثاني بتحقيق المتابعة ـوسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص وهو يعارض الاتباع فهذه حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة .

○ فصل ○
في القلب الميت

والقلب الثاني ضد هذا وهو القلب الميت الذي لا حياة به ، فهو لا يعرف ربه ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه ، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه ، رضي ربه أم سخط ، فهو متعبد لغير الله حباً وخوفاً ورجاً ورضاً وسخطاً وتعظيماً وذلاً ، إن أحب أحب لهواه ، وإن أبغض أبغض لهواه ، وإن أعطى أعطى لهواه ، وإن منع منع لهواه ، فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه ، فالهوى إمامه والشهوة قائده ، والجهل سائقه ، والغفلة مركبه ، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور ، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور ، يُنَادَى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد فلا يستجيب للناصح ، ويتبع كل شيطان مريد ، الدنيا تسخطه وترضيه ، والهوا يصمه عما سوى الباطل ويعميه فهو في الدنيا كما قيل في ليلى :

عَدُوٌّ لِمَنْ عادَتْ وَسِلمٌ لِأَهْلِهَا ... وَمَنْ قَرَّبَت لَيْلَى أَحَبُّ وَأَقْرَبَا

فمخالطة صاحب هذا القلب سقم ومعاشرته سم ومجالسته هلاك .

○ فصل ○
« في القلب المريض »

والقلب الثالث : قلب فيه حياة وبه علة فله مادتان تمده هذه مرة وهذه

أخرى ، وهو لما غلب عليه منهما ، ففيه من محبة الله والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه ما هو مادة حياته ، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها والحسد والكبر والعجب وحب العلى والفساد في الأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه ، وهو ممتحن بين داعين داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة ، وداع يدعوه إلى العاجلة ، وهو إنما يجيب أقربهما منه باباً وأدناهما إليه جواراً .

فالقلب الأول حي مخبت لين واع ، والثاني يابس ميت ، والثالث مريض فإما إلى السلامة أدني . وإما إلى العطب أدني .

وقد جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة في قوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فجعل الله سبحانه وتعالى القلوب في هذه الآيات ثلاثة قلبين مفتونين وقلباً ناجياً فالمفتونان القلب الذي فيه مرض . والقلب القاسي . والناجى : قلب المؤمن المخبت إلى ربه وهو المطمئن إليه الخاضع له المستسلم المنقاد .

وذلك : أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحاً سليماً لا آفة به ، يتأتى منه ما هيىء له وخلق لأجله وخروجه عن الاستقامة إما ليبسه وقساوته وعدم التأتي لما يراد منه كاليد الشلاء واللسان الأخرس والأنف الأخشم وذكَر العِنِّين والعين التي لا تبصر شيئاً . وإما بمرض وآفة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد فلذلك انقسمت القلوب إلى هذه الأقسام الثلاثة فالقلب الصحيح السليم ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإثاره سوى إدراكه فهو

صحيح الإدراك للحق تام الانقياد والقبول له .

والقلب الميت القاسي لا يقبله ولا ينقاد له .

والقلب المريض : إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسي وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم .

فما يلقيه الشيطان في الأسماع من الألفاظ وفي القلوب من الشبه والشكوك فتنة لهذين القلبين ، وقوة للقلب الحي السليم لأنه يردّ ذلك ويكرهه ويبغضه ، ويعلم أن الحق في خلافه فيخبت للحق ويطمئن وينقاد ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان فيزداد إيمانا بالحق ومحبة له وكفراً بالباطل وكراهة له .

فلا يزال القلب المفتون في مرية من إلقاء الشيطان ، وأما القلب الصحيح السليم فلا يضره ما يلقيه الشيطان أبداً .

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« تعرض الفتن على القلوب كَعَرِض الحَصِير عُوداً عوداً فأي قلبٍ أُشرِبَها نكِتت فيه نكْتةٌ سوداء وأيُّ قلبٍ أنكَرَها نُكِتَتْ فيه نُكْتَةٌ بيضاءُ حتى تعودَ القلوبُ على قلبين قَلبٍ أسْودَ مُرْباداً كالكوزِ مُجَخّياً لا يَعْرِفُ معرُوفاً ولا ينكِرُ منكَراً إلّا ما أشرِبَ من هَواهُ وقلب أبيض فلا تضرُّهُ فتنة ما دامت السمواتُ والأرض »** .

فشبه عرض الفتن على القلوب شيئاً فشيئاً كعرض عيدان الحصير وهي طاقاتها شيئاً فشيئاً ، وقسم القلب عند عرضها عليها إلى قسمين : قلب إذا عرضت عليه فتنة أشربها كما يشربها السفنج الماء فتنكت فيه نكتة سوداء ، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس وهو معنى قوله كالكوز مجخّياً أي مكبوباً منكوساً ، فإذا اسود وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران متراميان به إلى الهلاك :

أحدهما : اشتباه المعروف عليه بالمنكر فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، والحق باطلاً والباطل حقاً .

الثاني : تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وانقياده للهوى واتباعه له .

وقلب أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان وأزهر فيه مصباحه ، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها فازداد نوره وإشراقه وقوته .

والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها ، وهي فتن الشهوات ، وفتن الشبهات ، فتن الغي والضلال ، فتن المعاصي والبدع ، فتن الظلم والجهل .

فالأولى توجب فساد القصد والإرادة ، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد .

وقد قسم الصحابة رضي الله عنهم القلوب إلى أربعة كما صح عن حذيفة ابن اليمان : « القلوب أَرْبَعَةٌ قَلْبٌ أَجْرَدُ فيه سِراجٌ يُزْهِرُ فذلك قلبُ المؤمن وقَلْبٌ أَغْلَفُ فذلك قلبُ الكافِرِ وقلبٌ منكوسٌ فَذلك قَلْبُ المُنَافِقِ عرف ثم أنكر وأبصر ثم عَمِيَ وقلب تمده مادتان مادة إيمان ومادة نِفَاقٍ وهوَ لما غَلَبَ عليه منهما .

فقوله : قَلْبٌ أجرد أي متجرد مما سوى الله ورسوله ، فقد تجرد وسلم مما سوى الحق ، وفيه سراج يزهرُ هو مصباح الإيمان فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل ، وشهوات الغي ، وبحصول السراج فيه إلى إشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان .

وأشار بالقلب الأغلف إلى قلب الكافر لأنه داخل في غلافه وغشائه فلا يصل إليه نور العلم والإيمان كما قال تعالى حاكياً عن اليهود : ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ وهو جمع أغلف وهو الداخل في غلافه كقلف وأقلف ، وهذه الغشاوة

هي الأكنة التي ضربها الله على قلوبهم عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله فهي أكنة على القلوب ، ووقر في الأسماع ، وعمى في الأبصار ، وهي الحجاب المستور عن العيون في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ .

فإذا ذُكرَ لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة ولّي أصحابها على أدبارهم نفوراً .

وأشار بالقلب المنكوس وهو المكبوب إلى قلب المنافق كما قال تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾ أي نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة ، وهذا أشر القلوب وأخبثها فإنه يعتقد الباطل حقاً ويوالى أصحابه والحق باطلاً ويعادي أهله فالله المستعان .

وأشار بالقلب الذي فيه مادتان إلى القلب الذي لم يتمكن منه الإيمان و لم يزهر فيه سراجه حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به رسوله ، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه ، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان ، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر والحكم للغالب وإليه يرجع . إلى أن قال رحمه الله تعالى .

○ الباب الثالث عشر ○

في مكائد الشيطان التي يكيد بها ابن آدم وهو الباب الذي لأجله وضع الكتاب : قال الله تعالى : إخباراً عن عدوه إبليس لما سأله عن امتناعه عن السجود لآدم واحتجاجه بأنه خير منه وإخراجه من الجنة أنه سأله أن ينظره فأنظره ثم

قال عدو الله : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ .

قال جمهور المفسرين والنحاة حذف (على) فانتصب الفعل . والتقدير لأقعدن لهم على صراطك . والظاهر : أن الفعل مضمر فإن القاعد على الشيء ملازم له فكأنه قال لألزمنه ولأرصدنه ولأعوّجنه ونحو ذلك .

قال ابن عباس : دينك الواضح .

وقال ابن مسعود : هو كتاب الله .

وقال جابر : هو الإسلام .

وقال مجاهد : هو الحق ، والجميع عبارات عن معنى واحد وهو الطريق الموصل إلى الله تعالى .

وقد تقدم حديث سبرة بن الفاكه « **إن الشيطان قَعَدَ لابن آدم بأطْرُقِهِ كُلِّهَا** » الحديث : فما من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه على السالك .

وقوله : ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ قال ابن عباس في رواية عطية عنه : من قبل الدنيا ، وفي رواية علي[1] عنه : أشككهم في آخرتهم ، وكذلك قال الحسن : من قبل الآخرة تكذيباً بالبعث والجنة والنار .

وقال مجاهد : من بين أيديهم من حيث لا يبصرون .

﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ .

قال ابن عباس : أرغبهم في دنياهم .

وقال الحسن : من قبل دنياهم أزينها لهم وأشهيها لهم .

---

(١) هو علي بن أبي طلحة .

وعن ابن عباس : من قبل الآخرة .

وقال أبو صالح : أشككهم في الآخرة وأباعدها عليهم .

وقال مجاهد أيضا : من حيث لا يبصرون .

﴿وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ .

قال ابن عباس : أشبه عليهم أمر دينهم .

وقال أبو صالح : الحق أشككهم فيه .

وعن ابن عباس أيضا : من قبل حسناتهم فالحسن من قبل الحسنات أثبطهم عنها .

وقال أبو صالح أيضاً : من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم أُنفِّقه عليهم وأرغبهم فيه .

وقال الحسن : ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ السيئات يأمرهم بها ويحثهم عليها ويزينها في أعينهم .

وصح عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال ولم يقل من فوقهم لأنه علم أن الله من فوقهم .

قال الشعبي : فالله عز وجل أنزل الرحمة عليهم فوقهم .

وقال قتادة : أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله .

قال الواحدي : وقول من قال الأيمان كناية عن الحسنات والشمائل كناية عن السيئات حسن ؛ لأن العرب تقول اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك تريد اجعلني من المقدمين عندك ولا تجعلني من المؤخرين . وقال رحمه الله بعد كلام طويل :

○ فصل ○

ومن كيده وخداعه أنه يأمر الرجل بانقطاعه في مسجد أورباط أو زاوية أو تربة ويحبسه هناك وينهاه عن الخروج ، ويقول له : متى خرجت تبذّلتَ للناس وسقطت من أعينهم ، وذهبت هيبتك من قلوبهم ، وربما ترى في طريقك منكراً وللعدو في ذلك مقاصد خفية يريدها منه منها الكبر واحتقار الناس وحفظ الناموس وقيام الرياسة . ومخالطة الناس تذهب ذلك وهو أن يزار ولا يزور ويقصده الناس ولا يقصدهم ويفرح بمجيء الأمراء إليه واجتماع الناس عنده وتقبيل يده فيترك من الواجبات والمستحبات والقربات ما يقربه إلى الله ، ويتعوض عنه بما يقرب الناس إليه ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه تعالى وسلم يخرج إلى السوق .

قال بعض الحفاظ : وكان يشتري حاجته ويحملها بنفسه ذكره أبو الفرج ابن الجوزي وغيره .

وكان أبو بكر رضي الله عنه يخرج إلى السوق يحمل الثياب فيبيع ويشتري .

ومر عبد الله بن سلام رضي الله عنه وعلى رأسه حزمة حطب فقيل له : ما يحملك على هذا وقد أغناك الله عز وجل فقال : أردت أن أدفع به الكبر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **لا يَدْخُلُ الجنة عَبْدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِن الْكِبرِ** » .

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يحمل الحطب وغيره من حوائج نفسه وهو أمير على المدينة ويقول : أفسحوا لأميركم أفسحوا لأميركم .

وخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً وهو خليفة في حاجة له ماشيا فأعيي فرأى غلاماً على حمار له ، فقال يا غلام احملني فقد أعييت فنزل الغلام عن الدابة ، وقال اركب يا أمير المؤمنين فقال : لا ، اركب أنت وأنا خلفك فركب خلف الغلام حتى دخل المدينة والناس يرونه .

○ فصل ○

ومن كيده أنه يغري الناس بتقبيل يده والتمسح به والثناء عليه وسؤاله الدعاء ونحو ذلك حتى يرى نفسه ويعجبه شأنها فلو قيل له إنك من أوتاد الأرض وبك يدفع البلاء عن الخلق ظن ذلك حقاً وربما قيل له إنه يتوسل به إلى الله تعالى ويسأل الله تعالى به وبحرمته فيقضي حاجتهم فيقع ذلك في قلبه فيفرح به ويظنه حقاً وذلك كل الهلاك . فإذا رأى من أحد من الناس تجافياً عنه أو قلة خضوع له تذمر لذلك ووجد في باطنه . وهذا شر من أرباب الكبائر المصرين عليها وهم أقرب إلى السلامة منه .

○ فصل ○

ومن كيده : أنه يحسن إلى أرباب التخلي والزهد والرياضة العمل بهاجسيهم وواقعهم دون تحكيم أمر الشارع ، ويقولون القلب إذا كان محفوظاً مع الله كانت هواجسه وخواطره معصومة من الخطأ وهذا من أبلغ كيد العدو فيهم فإن الخواطر والهواجس ثلاثة أنواع رحمانية وشيطانية ونفسانية كالرؤيا .

فلو بلغ العبد من الزهد والعبادة ما بلغ ، فمعه شيطانه ونفسه لا يفارقانه إلى الموت والشيطان يجرى منه مجرى الدم ، والعصمة إنما هي للرسل صلوات الله وسلامه عليهم الذين هم وسائط بين الله عز وجل وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده ، ومن عداهم يصيب ويخطيء وليس بحجة على الخلق ، وقد كان سيّد المحدَّثِين الملهمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول الشيء فيرده عليه من هو دونه فيتبين له الخطأ فيرجع إليه ، وكان يعرض هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة ولا يلتفت إليها ولا يحكم بها ولا يعمل بها ، وهؤلاء الجهال يرى أحدهم أدني شيء فيحكم هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة ولا يلتفت إليها ، ويقول حدثني قلبي عن ربي ، ونحن أخذنا عن الحي الذي لا يموت وأنتم

أخذتم عن الوسائط ، ونحن أخذنا بالحقائق وأنتم اتبعتم الرسوم ، وأمثال ذلك من الكلام الذي هو كفر وإلحاد ، وغاية صاحبه أن يكون جاهلاً يعذر بجهله حتى قيل لبعض هؤلاء ألا تذهب فتسمع الحديث من عبد الرزاق ؟ فقال ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الملك الخلاق وهذا غاية الجهل فإن الذي سمع من الملك الخلاق موسى بن عمران كليم الرحمن ، وأما هذا وأمثاله فلم يحصل لهم السماع من بعض ورثة الرسول ، وهو يدعي أنه يسمع الخطاب من مرسله ، فيستغني به عن ظاهر العلم ، ولَعَل الذي يخاطبهم هو الشيطان أو نفسه الجاهلة أو هما مجتمعين ومنفردين .

ومن ظن أنه يستغني عما جاء به الرسول بما يلقى في قلبه من الخواطر والهواجس فهو من أعظم الناس كفراً ، وكذلك من ظن أنه يكتفي بهذا تارة وبهذا تارة فما يلقى في القلوب لا عبرة به ولا التفات إليه إن لم يعرض على ما جاء به الرسول ويشهده بالموافقة ، وإلا فهو من إلقاء النفس والشيطان .

وقد سئل عبد الله بن مسعود عن مسألة المفوضة شهراً فقال بعد الشهر أقول فيها برأيي فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله بريء منه ورسوله .

وكتب كاتب لعمر رضي الله عنه بين يديه هذا ما أرى الله عمر ، فقال : لا امحه واكتب هذا ما رأى عمر .

وقال عمر رضي الله عنه أيضاً : أيها الناس اتهموا الرأي على الدين فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله عليه السلام لرددته .

واتِّهام الصّحابة لآرائهم كثير مشهور ، وهم أبر الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأبعدها من الشيطان فكانوا أتبع الأمة للسنة وأشدهم اتّهاماً لآرائهم ، وهؤلاء ضد ذلك ، وأهل الاستقامة منهم سلكوا على الجادة ولم يلتفتوا إلى شيء من الخواطِر والهواجس والإلهامات حتى يقوم عليها شاهدان .

قال الجنيد : قال أبو سليمان الداراني ربما يقع في قلبي النكتة من نكت

القوم أياماً فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة وقال أبو يزيد : لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يتربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود .

وقال أيضاً : من ترك قراءة القرآن ولزوم الجماعة وحضور الجنائز وعيادة المرضى وادعى بهذا الشأن فهو مدّع .

وقال سَرِيّ السقطي : من ادعى باطن علم ينقضه ظاهر حكم فهو غالط ؛

وقال الجنيد : مذهبنا هذا مقيد بالأصول بالكتاب والسنة فمن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ويتفقه لا يقتدى به .

وقال أبو بكر الدقاق : من ضيع حدود الأمر والنهي في الظاهر حرم مشاهدة القلب في الباطن .

وقال أبو الحسين النوري : من رأيته يدعي مع الله حال تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تقربه ، ومن رأيته يدعي حالة لا يشهد لها حفظ ظاهره فاتهمه على دينه .

وقال الجريري : أمرنا هذا كله مجموع على فصل واحد أن تلزم قلبك المراقبة ويكون العلم على ظاهرك قائماً .

وقال أبو حفص الكبير الشأن : من لم يزن أحواله وأفعاله بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعده في ديوان الرجال .

وما أحسن ما قال أبو أحمد الشيرازي : كان الصوفية يسخرون من الشيطان والآن الشيطان يسخر منهم .

ونظير هذا ما قاله بعض أهل العلم : كان الشيطان فيما مضى يهب من الناس واليوم الرجل يهب من الشيطان .

○ فصل ○

ومن كيده أمرهم بلزوم زي واحد ولبسة واحدة وهيئة ومشية معينة وشيخ معين وطريقة مخترعة . ويفرض عليهم لزوم ذلك بحيث يلزمونه كلزوم الفرائض ، فلا يخرجون عنه ويقدحون فيمن خرج عنه ويذمونه . وربما يلزم أحدهم موضعاً معيناً للصلاة لا يصلي إلا فيه وقد نهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يوطّن الرجلُ المكان للصلاةِ كما يُوطِّنُ الْبَعِيرُ ، وكذلك ترى أحدهم لا يصلي إلا على سجادة ، ولم يصل عليه السلام على سجادة قط ولا كانت السجادة تفرش بين يديه ، بل كان يصلى على الأرض ، وربما سجد في الطين ، وكان يصلى على الحصير فيصلي على ما اتفق بسطه ، فإن لم يكن ثمة شيء صلى على الأرض وهؤلاء اشتغلوا بحفظ الرسوم عن الشريعة والحقيقة ، فصاروا واقفين مع الرسوم المبتدعة ليسوا مع أهل الفقه ولا مع أهل الحقائق فصاحب الحقيقة أشد شيء عليه التقيد بالرسوم الوضعية ، وهي من أعظم الحجب بين قلبه وبين الله . فمتى تقيد بها حبس قلبه عن سيره ، وكان أخس أحواله الوقوف معها ولا وقوف في السير بل إما تقدم وإما تأخر كما قال تعالى : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ فلا وقوف في الطريق إنما هو ذهاب وتقدم أو رجوع وتأخر .

ومن تأمل هدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسيرته وجده مناقضاً لهدى هؤلاء فإنه كان يلبس القميص تارة ، والقباء تارة ، والجبة تارة ، والإزار والرداء تارة ، ويركب البعير وحده ومردفاً لغيره ويركب الفرس مسرجاً وعرياناً ويركب الحمار ، ويأكل ما حضر ، ويجلس على الأرض ، تارة وعلى الحصير تارة ، وعلى البساط تارة ، ويمشي وحده تارة ، ومع أصحابه تارة ، وهديه عدم التكلف والتقيد بغير ما أمره به ربه فبين هديه وهدي هؤلاء بون بعيد .

○ فصل ○

ومن كيده الذي بلغ به من الجهال ما بلغ الوسواس الذي كادهم به في أمر الطهارة والصلاة عند عقد النية ، حتى ألقاهم في الآصار والأغلال وأخرجهم عن اتباع سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخيل إلى أحدهم أن ما جاءت به السنة لا يكفي حتى يضم إليه غيره فجمع لهم بين هذا الظن الفاسد والتعب الحاضر وبطلان الأجر أو تنقيصه ، ولا ريب أن الشيطان هو الداعي إلى الوسواس ، فأهله قد أطاعوا الشيطان ولبوا دعوته واتبعوا أمره ورغبوا عن اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطريقته ، حتى أن أحدهم ليرى أنه إذا توضأ وضوء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أو اغتسل كاغتساله لم يطهر ولم يرتفع حدثه ، ولولا العذر بالجهل لكان هذا مشاقة للرسول ، فقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتوضأ بالمد وهو قريب من ثلث رطل بالدمشقي ، ويغتسل بالصاع وهو نحو رطل وثلث . والموسوس يرى أن ذلك القدر لا يكفيه لغسل يديه ، وصح عنه عليه السلام أنه توضأ مرة ولم يزد على ثلاثٍ ؛ بل أخبر أن من زاد عَلَيْهَا فَقَدْ أساء وتعدى وظلم .

فالموسوس مسيء متعد ظالم بشهادة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فكيف يتقرب إلى الله بما هو مسيء به متعدّ فيه لحدوده وصح عنه أنه كان يغتسل هو وعائشة رضي الله عنها من قصعة بينهما فيها أثر العجين . ولو رأى الموسوس من يفعل هذا لأنكر عليه غاية الإنكار ، وقال ما يكفي هذا القدر لغسل اثنين كيف والعجين يحلله الماء فيغيره . هذا والرشاش ينزل في الماء فينجسه عند بعضهم ويفسده عند آخرين فلا تصح به الطهارة ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يفعل ذلك مع غير عائشة مثل ميمونة وأم سلمة وهذا كله في الصحيح .

وثبت أيضاً في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال كان الرِّجَالُ والنساءُ على عَهْدِ رسولِ الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتوضئون من إناء واحد ، والآنية التي كان عليه السلام وأزواجه وأصحابه ونساؤهم يغتسلون منها لم تكن

من كبار الآنية ، ولا كانت لها مادة تمدها كأنبوب الحمام ونحوه ، ولم يكونوا يراعون فيضانها حتى يجرى الماء من حافاتها كما يراعيه جهال الناس ممن بلى بالوسواس في جرن الحمام ، فهدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذي من رغب عنه فقد رغب عن سنته جواز الاغتسال من الحياض والآنية وإن كانت ناقصة غير فائضة ومن انتظر الحوض حتى يفيض ثم استعمله وحده ولم يمكن أحداً أن يشاركه في استعماله فهو مبتدع مخالف للشريعة .

قال شيخنا : ويستحق التعزير البليغ الذي يزجره وأمثاله عن أن يشرعوا في الدين ما لم يأذن به الله ، ويعبدون الله بالبدع لا بالاتباع .

ودلت هذه السنن الصحيحة على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه لم يكونوا يكثرون صب الماء ومضى على هذا التابعون لهم بإحسان .

قال سعيد بن المسيب إني لأستنجي من كوز الحب وأتوضأ وأفضل منه لأهلي .

وقال الإمام أحمد : من فقه الرجل قلة ولوعه بالماء .

وقال المروزي : وضأت أبا عبد الله بالعسكر فسترته من الناس لئلا يقولوا إنه لا يحسن الوضوء لقلة صبه الماء ، وكان أحمد يتوضأ فلا يكاد يبل الثرى .

وثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أَنَّهُ تَوضَّأَ مِن إِنَاءٍ فأَدْخَلَ يَدُه فِيهِ ثمَّ تمضْمَض واسْتَنْشَقَ وكذاك كان في غسله يدخل يده في الإناء ويتناول الماء منه . الموسوس لا يجوز ذلك ولعله أن يحكم بنجاسة الماء ويسلبه طهوريته بذلك ، وبالجملة فلا تطاوعه نفسه لاتباع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأن يأتي بمثل ما أتى به أبداً كيف يطاوع الموسوس نفسه أن يغتسل هو وامرأته من إناء واحد قدر الفَرْقِ قريباً من خمسة أرطال بالدمشقي يغمسان أيديهما فيه ويفرغان عليهما . فالموسوس يشمئز من ذلك كما يشمئز المشرك إذ ذكر الله وحده .

قال أصحاب الوسواس : إنما حملنا على ذلك الاحتياط لديننا والعمل بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « **دع ما يريبك إلى ما لا يريبك** » وقوله « **من اتقى الشبهات استَبَرأً لِدِينِهِ عرضه** » وقوله : « **الإِثْمُ ما حاكَ في الصَّدْرِ** » .

وقال بعض السلف : الإثم حَوْرَ القلوب وقد وجد النبي تمرة فَقَال : « **لولا أني أخشى أنْ تَكُون من الصدقةِ لأكَلْتُهَا** » أفلا يرى أنه ترك أكلها احتياطاً .

وقد أفتى مالك رحمه الله فيمن طلق امرأته وشك هل هي واحدة أم ثلاث أنها ثلاث احتياطاً للفروج ، وأفتى من حلف بالطلاق أن في هذه اللوزة حبتين وهو لا يعلم ذلك فبان الأمر كما حلف عليه أنه حانث ، لأنه حلف على ما لا يعلم ، وقال لمن طلق واحدة من نسائه ثم نسيها يطلق عليه جميع نسائه احتياطاً وقطعاً للشك.

وقال أصحاب مالك فيمن حلف بيمين ثم نسيها إنه يلزمه جميع ما يحلف به عادة . فيلزمه الطلاق والعتاق والصّدقة بثلث المال وكفارة الظهار وكفارة اليمين بالله تعالى الحج ماشياً . ويقع الطلاق بجميع نسائه ويعتق عليه جميع عبيده وإمائه وهذا أحد القولين عندهم ، ومذهب مالك أيضاً أنه إذا حلف ليفعلن كذا أنه على حنث حتى يفعله فيحال بينه وبين امرأته ومذهبه أيضاً أنه إذا قال إذا جاء رأس الحول فأنت طالق ثلاثاً أنها تطلق في الحال وهذا كله احتياطاً ، وقال الفقهاء : من خفي عليه موضع النجاسة في الثوب وجب غسله كله . وقالوا : إذا كان معه ثياب طاهرة وتنجس منها ثياب وشك فيها صلى في ثوب بعْدَ ثوب بعدد النجس وزاد صلاة ليتيقن براءة ذمته وقالوا إذا اشتبهت الأواني الطاهرة بالنجسة أراق الجميع وتيمم ، وكذلك إذا اشتبهت عليه القبلة فلا يدري في أي جهة فإنه يصلى أربع صلوات عند بعض الأئمة لتبرء ذمته بيقين . وقالوا : من ترك صلاة من يوم ثم نسيها وجب عليه أن يصلي خمس صلوات وقد أمر النبي عليه الصلاة والسلام من شك في صلاته أن يبني على اليقين . وحرم أكل الصيد إذا شك صاحبه هل مات بسهمه أو بغيْره كما إذا وقع في الماء وحرم أكله إذا خالط كلبه كلباً آخر للشك في تسمية صاحبه عليه .

وهذا باب يطول تتبعه فالاحتياط والأخذ باليقين غير مستنكر في الشرع وإن سميتموه وسواساً .

وقد كان عبد الله بن عمر يغسل داخل عينيه في الطهارة حتى عمي .

وكان أبو هريرة إذا توضأ أشرع في العضد وإذا غسل رجله أشرع في الساقين .

فنحن إذا احتطنا لأنفسنا وأخذنا باليقين وتركنا ما يريب إلى ما لا يريب وتركنا المشكوك فيه للمتيقن المعلوم وتجنبنا محل الاشتباه لم نكن بذلك عن الشريعة خارجين ، ولا في البدعة والجين ، وهل هذا الأخير من التسهيل والاسترسال حتى لا يبالي العبد بدينه ولا يحتاط له بل يسهل الأشياء ويمشي حالها ولا يبالي كيف توضأ ولا بأي ماء توضأ ولا بأي مكان صلي ولا يبالي ما أصاب ذيله وثوبه ولا يسأل عما عهد ، بل يتغافل ويحسن ظنه فهو مهمل لدينه لا يبالي ما شك فيه ويحمل الأمور على الطهارة وربما كانت أفحش النجاسة ويدخل بالشك ويخرج بالشك فأين هذا ممن استقصى في فعل ما أمر به واجتهد فيه حتى لا يخل بشيء منه وإن زاد على المأمور فإنما قصده بالزيادة تكميل المأمور وأن لا ينقص منه شيئاً .

قالوا : وجماع ما ينكرونه علينا احتياط في فعل مأمور أو احتياط في اجتناب محظور وذلك خير وأحسن عاقبة من التهاون بهذين فإنه يفضي غالباً إلى النقص من الواجب والدخول في المحرم ، وإذا وازنا بين هذه المفسدة ومفسدة الوسواس كانت مفسدة الوسواس أخف . هذا إن ساعدناكم على تسميته وسواساً وإنما نسميه احتياطاً واستظهاراً وإلا فلستم أسعد منا بالسنة ونحن حولها ندندن وتكميلها نريد .

وقال أهل الاقتصاد والاتباع قال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ وقال تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ وقال تعالى : ﴿وَٱتَّبِعُوهُ

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وهذا الصراط المستقيم الذي وصانا باتباعه هو الصراط الذي كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه وهو قصد السبيل وما خرج عنه فهو من السبل الجائرة وإن قاله من قاله لكن الجور قد يكون جوراً عظيماً عن الصراط وقد يكون يسيراً ، وبين ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله ، وهذا كالطريق الحسي فإن السالك قد يعدل عنه ، ويجور جوراً فاحشاً ، وقد يجور دون ذلك فالميزان الذي يعرف به الاستقامة على الطريق والجور عنه هو ما كان رسول الله وأصحابه عليه والجائر عنه إما مفرط ظالم أو مجتهد متأول أو مقلد جاهل ، فمنهم المستحق للعقوبة ومنهم المغفور له ومنهم المأجور أجراً واحداً بحسب نياتهم ومقاصدهم واجتهادهم في طاعة الله تعالى ورسوله أو تفريطهم .

ونحن نسوق من هدي رسول الله وهدي أصحابه ما يبين أي الفريقين أولى باتباعه ثم نجيب عما احتجوا به بعون الله وتوفيقه .

وتقدم قبل ذكر النهي عن الغلو وتعدي الحدود والإسراف وأن الاقتصاد والاعتصام بالسنة عليها مدار الدين قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غداة العقبة وهو على ناقته : « **القط لي حصى** » فلقَطْتُ له سبع حصياتٍ من حصى الخذف يَنفُضُهنّ في كفهِ وَيقُول أمثَالَ هؤلاءِ فارموا ثم قالَ « **أيُّها الناسُ إيَّاكُمْ والغلو في الدين فإنما أَهْلَك الذين منْ قَبْلِكُمْ الغلُوُّ في الدين** » . رواه الإمام أحمد والنسائي .

وقال أنس رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم **« لا تُشَدِّدُوا على أنفسكم فيشدِّد الله عليكم ، فإن قوماً شَدَّدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فتلك بقاياهم في الصَّوَامع والدِّيارات رهبانية ما كتبناها عليهم »** .

فنهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن التَّشْدِيْدِ في الدِين وذلك بالزيادة عن المشروع ، وأخبر بأن تشديد العبد على نفسه هو السبب لتشديد الله عليه إما بالقدر وإما بالشرع ، فالتشدد بالشرع كما يشدد على نفسه بالنذر الثقيل فيلزمه الوفاء به ، وبالقدر كفعل أهل الوسواس فإنهم شددوا على أنفسهم فشدد عليهم القدر حتى استحكم ذلك وصار صفة لازمة لهم .

قال البخاري : وكره أهْل العلم الإسراف فيه يعني الوضُوءَ وأن يُجَاوِزُوا فعلَ النَّبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقال ابنُ عمر رضي الله عنهما : إسباغ الْوضُوءِ الإنقاءُ فالفقه كل الفقه الاقتصاد في الدين والاعتصام بالسنة .

قال أبي بن كعب : عليكم بالسبيل والسنة فإنه ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله عز وجل فاقشعر جلده من خشية الله تعالى إلا تحاتت عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة فاحرصوا إذا كانت أعمالكم اقتصاداً أن تكون على منهاج الأنبياء وسنتهم .

قال الشيخ أبو محمد المقدسي في كتابه ذم الوسواس : الحمد لله الذي هدانا بنعمته وشرفنا بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم برسالته ووفقنا للاقتداء به والتمسك بسنته ، ومنَّ علينا باتباعه الذي جعله علماً على محبته ومغفرته وسَبَباً لكتابة رحمته وحصول هدايته فقال سبحانه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ

﴿ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ ثم قال : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

أما بعد فإن الله سبحانه جعل الشيطان عدواً للإنسان يقعد له الصراط المستقيم ويأتيه من كل جهة وسبيل كما أخبر الله تعالى عنه أنه قال :﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴾ وحذرنا الله عز وجل من متابعته وأمرنا بمعاداته ومخالفته فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ وقال : ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وأخبرنا بما صنع بأبوينا تحذيراً لنا من طاعته وقطعاً للعذر في متابعته .

وأمرنا الله سبحانه وتعالى باتباع صراطه المستقيم ونهانا عن اتباع السبل فقال سبحانه : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ وسبيل الله وصراطه المستقيم هو الذي كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وصحابته بدليل قوله عز وجل : ﴿ يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فمن اتبع رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في قوله وفعله فهو على صراط الله المستقيم وهو ممن يحبه الله ويغفر له ذنوبه ومن خالفه في قوله أو فعله فهو مبتدع متبع لسبيل الشيطان غير داخل فيمن وعد الله بالجنة والمغفرة والإحسان .

○ فصل ○

ثم إن طائفة الموسوسين قد تحقق منهم طاعة الشيطان حتى اتصفوا بوسوسته وقبلوا قوله وأطاعوه ورغبوا عن اتباع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصحابته ، حتى إن أحدهم ليرى أنه إذا توضأ وضوء رسول الله عليه الصلاة والسلام أو صلى كصلاته فوضوؤه باطل وصلاته غير صحيحة ويرى أنه إذا فعل

مثل فعل رسول الله عليه الصلاة والسلام في مواكلة الصبيان وأكل طعام عامة المسلمين أنه قد صار نجساً يجب عليه تسبيع يده وفمه كما لو ولغ فيهما كلب أو بال عليهما هر .

ثم إنه بلغ من استيلاء إبليس عليهم أنهم أجابوه إلى ما يشبه الجنون ويقارب مذهب السوفسطائية الذين ينكرون حقائق الموجودات والأمور المحسوسات ، وعلم الإنسان بحال نفسه من الأمور الضروريات اليقينيات ، وهؤلاء يغسل أحدهم عضوه غسلاً يشاهد ببصره ويكبر ويقرأ بلسانه بحيث تسمع أذناه ويعلمه قلبه ، بل يعلمه غيره منه ويتيقنه ، ثم يشك هل فعل ذلك أم لا ، وكذلك يشككه الشيطان في نيته وقصده التي يعلمها من نفسه يقيناً ، بل يعلمها غيره منه بقرائن أحواله ومع هذا يقبل قول إبليس في أنه ما نوى الصلاة ولا أرادها مكابرة منه لعيانه وجحد اليَقِينِ نَفْسِهِ حتى تراه متلدداً متحيرا كأنه يعالج شيئاً يجتذ به أو يجد شيئاً في باطنه يستخرجه ، كل ذلك مبالغة في طاعة إبليس وقبول وسوسته ومن انتهت طاعته لإبليس إلى هذا الحد فقد بلغ النهاية في طاعته ثم إنه يقبل قوله في تعذيب نفسه ، ويطيعه في الإضرار بجسده ، تارة بالغوص في الماء البارد ، وتارة بكثرة استعماله وإطالة العرك ، وربما فتح عينيه في الماء البارد وغسل داخلهما حتى يضر ببصره ، وربما أفضى إلى كشف عورته للناس ، وربما صار إلى حال يسخر منه الصبيان ويستهزئ به من يراه .

قلت ذكر أبو الفرج ابن الجوزي عن أبي الوفاء بن عقيل أن رجلاً قال له أنغمس في الماء مراراً كثيرة وأشك هل صح لي الغسل أم لا فما ترى في ذلك ؟ فقال له الشيخ اذهب فقد سقطت عنك الصلاة قال وكيف ؟ قال : لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « **رفع القلم عن ثلاثة المجنون حتى يفيق والنائم حتى يستيقظ والصبي حتى يَبْلُغَ** » ومن ينغمس بالماء مراراً ويشك هل أصابه الماء أم لا فهو مجنون .

قال وربما شغله بوسواسه حتى تفوته الجماعة وربما فاته الوقت ويشغله بوسوسته في النية حتى تفوته التكبيرة الأولى وربما فوت عليه ركعة أو أكثر ،

ومنهم من يحلف أنه لا يزيد على هذا ثم يكذب .

قلت : وحكى لي من أثق به عن موسوس عظيم رأيته أنا يكرر عقد النية مراراً عديدة فيشق على المأمومين مشقة كبيرة فعرض له أن حلف بالطلاق أنه لا يزيد على تلك المرة فلم يدعه إبليس حتى زاد ، ففرق بينه وبين امرأته ، فأصابه لذلك غم شديد ، وأقاما متفرقين دهراً طويلاً حتى تزوجت تلك المرأة برجل آخر وجاءه منها ولد ، ثم إنه حنث في يمين حلفها ففرق بينهما وردت إلى الأول بعد أن كاد يتلف لمفارقتها .

وبلغني عن آخر أنه كان شديد التنطع في التلفظ بالنية والتقعر في ذلك ، فاشتد به التنطع والتقعر يوماً إلى أن قال أصلي أصلي مراراً صلاة كذا وكذا وأراد أن يقول أداء فأعجم الدال وقال أذاء لله فقطع الصلاة رجل إلى جانبه فقال ولرسوله وملائكته وجماعة المصلين .

وقال : ومنهم من يتوسوس في إخراج الحرف حتى يكرره مراراً . قال : فرأيت منهم من يقول الله أكككبر قال : وقال لي إنسان منهم قد عجزتُ عن قول السلام عليكم فقلت له قل مثل ما قد قلتَ الآن وقد استرحت ، وقد بلغ الشيطان أن عذبهم في الدنيا قبل الآخرة وأخرجهم عن اتباع الرسول ، وأدخلهم في جملة أهل التنطع والغلو وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، فمن أراد التخلص من هذه البلية فليستشعر أن الحق في اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله وفعله وليعزم على سلوك طريقته عزيمة من لا يشك أنه على الصراط المستقيم وأن ما خالفه من تسويل إبليس ووسوسته ويوقن أنه عدو له لا يدعوه إلى خير : ﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

وليترك التّعْريجَ على كل ما خالف طريقة رسول الله عليه الصلاة والسلام كائناً ما كان فإنه لا يشك أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان على الصراط المستقيم ، ومن شك في هذا فليس بمسلم ، ومن علمه فإلى أين العدول عن سنته وأي شيء يبتغي العبد غيْر طريقته ويقول لنفسه ألستِ تعلمين أن طريقة رسول

الله صلى الله تعالى عليه وسلم هى الصراط المستقيم ؟ فإذا قالت له : بلى ، قال لها : فهل كان يفعل هذا ؟ فستقول لا . فقل لها فماذا بعد الحق إلا الضلال !! وهل بعد طريق الجنة إلا طريق النار ، وهل بعد سبيل الله وسبيل رسوله إلا سبيل الشيطان ، فإن اتبعت سبيله كنت قرينه وستقولين : ﴿ يَـٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ .

ولينظر أحوال السلف في متابعتهم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فليقتد بهم وليختر طريقهم فقد روينا عن بعضهم أنه قال لقد تقدمني قوم لو لم يجاوزوا بالوضوء الظفر ما تجاوزته . قلت هو إبراهيم بن النخعي .

وقال زين العابدين يوماً لابنه : يا بني اتخذ لي ثوباً ألبسه عند قضاء الحاجة فإني رأيت الذباب يسقط على الشيء ثم يقع على الثوب ثم انتبه . فقال : ما كان للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلا ثوب واحد فتركه .

وكان عمر رضي الله تعالى عنه يهم بالأمر ويعزم عليه فإذا قيل له لم يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انتهى حتى إنه قال لقد هممت أن انهي عن لبس هذه الثياب فإنه قد بلغني أنها تصبغ ببول العجائز فقال له أبي مالك ؟ أتنهى عنها ؟ فإن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد لبسها ولبست في زمانه ، ولو علم الله أن لبسها حرام لبينه لرسوله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : صدقت .

ثم ليعلم أن الصحابة ما كان فيهم موسوس ولو كانت الوسوسة فضيلة لما ادخرها الله عن رسوله وصحابته وهم خير الخلق وأفضلهم ولو أدرك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الموسوسين لمقتهم ، ولو أدركهم عمر رضي الله عنه لضربهم وأدبهم ، ولو أدركهم الصحابة لبدعوهم وها أنا أذكر ما جاء في خلاف مذهبهم على ما يسره الله تعالى مفصلاً .

○ الفصـل الأول ○

في النية في الطهارة والصلاة

النية هي القصد والعزم على فعل الشيء ومحلها القلب لا تعلق لها باللسان أصلاً ولذلك لم ينقل عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا عن أصحابه لفظ بحال ولا سمعنا عنهم ذكر ذلك ، وهذه العبارات التي أحدثت عند افتتاح الطهارة والصلاة قد جعلها الشيطان معتركاً لأهل الوسواس يحبسهم عندها ويعذبهم فيها ويوقعهم في طلب تصحيحهما فترى أحدهم يكررها ويجهد نفسه في التلفظ بها وليست من الصلاة في شيء ، وإنما النية قصد فعل الشيء فكل عازم على فعل فهو ناويه لا يتصور انفكاك ذلك عن النية فإنه حقيقتها فلا يمكن عدمها في حال وجودها ، ومن قعد ليتوضأ فقد نوى الوضوء ، ومن قام ليصلى فقد نوى الصلاة ، ولا يكاد العاقل يفعل شيئاً من العبادات ولا غيرها بغير نية ، فالنية أمر لازم لأفعال الإنسان المقصودة لا يحتاج إلى تعب ولا تحصيل ولو أراد إخلاء أفعاله الاختيارية عن نية لعجز عن ذلك ولو كلفه الله عز وجل الصلاة والوضوء بغير نية لكلفه ما لا يطيق ولا يدخل تحت وسعه وما كان هكذا فما وجه التعب في تحصيله ، وإن شك في حصول نيته فهو نوع جنون فإن علم الإنسان بحال نفسه علم يقين فكيف يشك فيه عاقل من نفسه ومن قام ليصلي صلاة الظهر خلف الإمام فكيف يشك في ذلك ؟ ولو دعاه داع إلى شغل في تلك الحال لقال إني مشتغل أريد صلاة الظهر ، ولو قال له قائل في خروجه إلى الصلاة أين تمضي ؟ لقال أريد الصلاة الظهر مع الإمام فكيف يشك عاقل في هذا من نفسه وهو يعلمه يقيناً انتهى وتمامه فيه) وقال رحمه الله :

○ فصـل ○

ولا تحسب أيها المنعم عليه باتباع صراط الله المستقيم صراط أهل نعمته

ورحمته وكرامته أن النهي عن اتخاذ القبور أوثاناً وأعياداً وأنصاباً والنهى عن اتخاذها مساجد أو بناء المساجد عليها وإيقاد السرج عليها والسفر إليها والنذر لها واستلامها وتقبيلها وتعفير الجباه في عرصاتها غض من أصحابها ولا تنقيص لهم ولا تنقص كما يحسبه أهل الإشراك والضلال ، بل ذلك من إكرامهم وتعظيمهم واحترامهم ومتابعتهم فيما يحبونه وتجنب ما يكرهونه ، فأنت والله وليهم ومحبهم وناصر طريقتهم وسنتهم وعلى هديهم ومنهاجهم ، وهؤلاء المشركون أعصى الناس لهم وأبعدهم من هديهم ومتابعتهم كالنصارى مع المسيح واليهود مع موسى عليهما السلام والرافضة مع علي رضي الله عنه ، فأهل الحق أولى بأهل الحق من أهل الباطل فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض .

فاعلم أن القلوب إذا اشتغلت بالبدع أعرضت عن السنن فتجد أكثر هؤلاء العاكفين على القبور معرضين عن طريقة من فيها وهديه وسنته مشتغلين بقبره عما أمر به ودعا إليه وتعظيم الأنبياء والصالحين ومحبتهم إنما هي باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح واقتفاء آثارهم وسلوك طريقتهم دون عبادة قبورهم والعكوف عليها واتخاذها أعياداً ، فإن من اقتفى آثارهم كان متسبباً إلى تكثير أجورهم باتباعه لهم ودعوته الناس إلى اتباعهم ، فإذا أعرض عما دعوا إليه واشتغل بضده حرم نفسه وحرمهم ذلك الأجر فأي تعظيم واحترام في هذا ؟ .

وإنما اشتغل كثير من الناس بأنواع من العبادات المبتدعة التي يكرهها الله ورسوله لإعراضهم عن المشروع أو بعضه ، وإن قاموا بصورته الظاهرة فقد هجروا حقيقته المقصودة منه ، وإلا فمن أقبل على الصلوات الخمس بوجهه وقلبه عارفاً بما اشتملت عليه من الكلم الطيب والعمل الصالح مهتماً بها كل الاهتمام أغنته عن الشرك ، وكل من قصر فيها أو في بعضها تجد فيه من الشرك بحسب ذلك ، ومن أصغى إلى كلام الله بقلبه وتدبره وتفهمه أغناه عن السماع الشيطاني الذي يصد عن ذكر الله وعن الصلاة وينبت النفاق في القلب ، وكذلك من أصغى إليه وإلى حديث الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بكليته وحدث

نفسه باقتباس الهدي والعلم منه لا من غيره أغناه عن البدع والآراء والتخرصات والشطحات والخيالات التي هي وساوس النفوس وتخيلاتها ، ومن بعد عن ذلك فلابد له أن يتعوض عنه بما لا ينفعه ، كما إن من عمر قلبه بمحبة الله تعالى وذكره وخشيته والتوكل عليه أغناه ذلك عن محبة غيره وخشيته والتوكل عليه ، وأغناه أيضا عن عشق الصور وإذا خلا من ذلك صار عبد هواه أي شيء استحسنه ملكه واستعبده فالمعرض عن التوحيد مشرك شاء أم أبى ، والمعرض عن السنة مبتدع ضال شاء أم أبى ، والمعرض عن محبة الله وذكره عبد الصور شاء أم أبى ، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وقال رحمه الله :

○ فصل ○

ومن مكائد عدو الله ومصائده التي كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين : سماع المكاء والتصدية والغناء بالآلات المحرمة الذي يصد القلوب عن القرآن ، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان ، فهو قرآن الشيطان ، والحجاب الكثيفُ عن الرحمن ، وهو رقية اللواط والزنا ، وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى ، كاد بها الشيطان النفوس المبطلة وحسنه لها مكراً منه وغروراً ، وأوحى إليها الشبه الباطلة على حسنه فقبلت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجوراً ، فلو رأيتهم عند ذياك السماع وقد خشعت منهم الأصوات ، وهدأت منهم الحركات ، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه ، وانصبت انصبابة واحدة إليه فتمايلوا له ولا كتمايل النشوان وَتكَسَّروا في حركاتهم ورقصهم أرأيت تكسر المخانيث والنسوان ، ويحق لهم ذلك وقد خالط خماره النفوس ففعل فيها أعظم ما يفعله حُسّياً الكؤوس فلغير الله . بل للشيطان قلوب هناك تمزق ، وأثواب تشقق وأموال في غير طاعة الله تنفق ، حتى إذا عمل السكر فيهم عمله وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمله واستفزهم بِصَوْته وخيله وأجلب عليهم برجله وخيله وخز في صدورهم وخزاً وأزّهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزّاً فطوراً

يجعلهم كالحمير حول المدار وتارة كالذباب ترقص وُسَيْط الديار ، فيا رحمتا للسقوف والأرض من دكٍّ تلك الأقدام ويا سوأتا من أشباه الحمير والأنعام ، ويا شماتة أعداء الإسلام بالذين يزعمون أنهم خواص الإسلام قَضوا حياتهم لذة وطرباً واتخذوا دينهم لهواً ولعباً . مزامير الشيطان أحب إليهم من استماع سور القرآن ، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرك له ساكناً ولا أزعج له قاطناً ولا أثار له فيه وجداً ولا قدح فيه من لواعج الشوق إلى الله زنداً ، حتى إذا تلي عليه قرآن الشيطان وولج مزموره سمعه تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت ، وعلى أقدامه فرقصت ، وعلى يديه فصفقت ، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت ، وعلى أنفاسه فتصاعدت وعلى زفراته فتزايدت ، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت فيا أيها الفاتن المفتون والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسر مغبون ، هلا كانت هذه الأشجان عند سماع القرآن ، وهذه الأذواق والمواجيد عند قراءة القرآن المجيد، وهذه الأحوال السنيات عند تلاوة السور والآيات ، ولكن كل امريء يصبو إلى ما يناسبه ويميل إلى ما يشاء كله ، والجنسية علة الضم قدراً وشرعاً ، والمشاكلة سبب الميل عقلاً وطبعاً ، فمن أين هذا الإخاء والنسب لولا التعلق من الشيطان بأقوى سبب ، ومن أين هذه المصالحة التي أوقعت في عقد الإيمان وعهد الرحمن خللاً : ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ ولقد أحسن القائل :

تُلِيَ الكِتَابُ فأطْرَقوا لَا خِيفَةً ... لٰكِنَّـهُ إطْـراقُ ساه لاهِي

وأتى الغِنَاءُ فكالحَمير تَنَاهَقُوا ... واللّٰهِ مَا رقصوا لأجْلِ اللّٰهِ

دُفٌّ ومِزْمَارٌ ونَغْمةُ شادِنٍ ... فمتى رأيتَ عبادة بِمَلَاهي

ثَقُلَ الكِتابُ عليهمُ لمَّا رأوْا ... تَقْيِيدَهُ بأوامِر ونواهي

وَسَمِعُوا لَهُ رَعْداً وبرقاً إذْ حوى ... زَجْراً وتَخْوِيْفاً بِفعْلِ مَناهي

ورأوْهُ أَعْظَم قاطعٍ للنفس عن ... شَهَواتِها يا ويْحَها المتناهي

فأتى السماع موافقا أغراضها ... فلأجلِ ذاك غدا عَظِيمَ الجاهي

أَيْنَ الْمُسَاعِدُ لِلْهَوَى مِنْ قاطِعٍ ... أَسبَابه عند الْجَهُولِ الساهِي
إن لم يَكُنْ خَمر الجُسُوم فإنه ... خمر العقول مماثِلٌ وَمُضَاهِي
فَانْظُرْ إلى النشوان عند شرابِهِ ... وانْظُرْ إلى النَّشوان عِنْدَ مَلَاهِي
وَانْظُرْ إلى تَمْزِيقِ ذا أثْوَابَهُ ... مِن بَعْدِ تمزيقِ الفؤاد اللَّاهِي
واحكُمْ فأَيُّ الخمرتين أَحَقُّ بِا ... لتَّحريم والتَّأثِيم عند اللَّهِ

وقال آخر :

بَرِئنا إلى اللّهِ من مَعْشَرِ ... بِهِمْ مَرَضٌ من سماع الغِنَا
شَفَا جُرُفٍ تَحتَهُ هوَّةٌ ... شَفَا جُرُفٍ ما بِهِ من بنا
وَكَم قُلتُ يا قَومُ أنْتُم على ... إلى دَرَكٍ كم به من عنا
وتكرار ذا النِّصح منا لهم ... لِنعْذِرَ فيهم إلى ربنا
فلما استَهَانُوا بتَنْبِيهنا ... رَجَعْنَا إلى اللّهِ في أمْرِنا
فَعِشْنَا على سُنَّةِ المُصْطَفَى ... ومَاتُوا على تِنْتِنَا تِنْتِنَا

ولم يزل أنصار الإسلام وأئمة الهدى تصيح بهؤلاء من أقطار الأرض وتحذر من سلوك سبيلهم واقتفاء آثارهم من جميع طوائف الملة .

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي في خطبة كتابه في تحريم السماع :

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ونسأله أن يرينا الحق حقاً فنتبعه ، والباطل باطلاً فنجتنبه وكان الناس فيما مضى يَسْتَسِر أَحَدهم بالمعصية إذا واقعها ثم يستغفر الله ويتوب إليه منها ، ثم كثر الجهل وقل العلم وتناقص الأمر حتى صار أحدهم يأتي المعصية جهاراً ثم ازداد الأمر إدباراً حتى بلغنا أن طائفة من إخواننا المسلمين وفقنا الله وإياهم استزلهم الشيطان واستغوى عقولهم في حب الأغاني ، واللهو وسماع الطقطقة ، والنقير ، واعتقدته من الدين الذي يقربهم إلى الله ، وجاهرت به جماعة المسلمين وشاقّت سبيل المؤمنين ، وخالفت الفقهاء والعلماء ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ

لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ فرأيتُ أن أوضح الحق وأكشف عن شبه أهل الباطل بالحجج التى تضمنها كتاب الله ، وسنة رسوله ، وأبدأ بذكر أقاويل العلماء الذين تدور الفتيا عليهم في أقاصي الأرض ودانيها حتى تعلم هذه الطائفة أنها قد خالفت علماء المسلمين في بدعتها ، والله ولي التوفيق .

ثم قال : أما مالك فإنه نهى عن الغناء وعن استماعه وقال : إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له أن يردها بالعيب .

وسئل مالك رحمه الله عما يرخص فيه أهل المدينة من الغناء فقال : إنما يفعله عندنا الفساق .

قال : وأما أبو حنيفة فإنه يكره الغناء ويجعله من الذنوب ، وكذلك مذهب أهل الكوفة سفيان وحماد وإبراهيم والشعبي وغيرهم لا اختلاف بينهم في ذلك ولا نعلم خلافاً أيضاً بين أهل البصرة في المنع منه .

قلت : مذهب أبي حنيفة من أشد المذاهب وقوله فيه أغلظ الأقوال ، وقد صرح أصحابه بتحريم سماع الملاهي كالمزمار والدف حتى الضرب بالقضيب ، وصرحوا بأنه معصية يوجب الفسق وترد به الشهادة ، وأبلغ من ذلك أنهم قالوا : إن السماع فسق والتلذذ به كفر هذا لفظهم ورووا في ذلك حديثاً لا يصح رفعه .

قالوا : ويجب عليه أن يجتهد في أن لا يسمعه إذا مر به أو كان في جواره .

وقال أبو يوسف في دارٍ يسمع منها صوت المعازف والملاهي : أدخل عليهم بغير إذنهم لأن النهى عن المنكر فرض ، فلو لم يجز الدخول بغير إذن لامتنع الناس من إقامة الفرض .

قالوا : ويتقدم إليه الإمام إذا سمع ذلك من داره فإن أصر حبسه أو ضربه سياطاً وإن شاء أزعجه عن داره .

وأما الشافعي فقال في كتاب أدب القضاء : إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ، والمحال ، ومن استكثر منه فهو سفيه تردّ شهادته . وصرح أصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه وأنكروا على من نسب إليه حله كالقاضي أبي الطيب والشيخ أبي إسحاق ، وابن الصباغ . قال الشيخ أبو إسحاق في التنبيه : ولا تصح يعني الإجارة على منفعة محرمة كالغناء والزمر وحمل الخمر ، ولم يذكر فيه خلافاً .

وقال في المهذب : ولا يجوز على المنافع المحرمة لأنه محرم فلا يجوز أخذ العوض عنه كالميتة والدم .

فقد تضمن كلام الشيخ أموراً :

○ (**أحدها**) : أن منفعة الغناء بمجرده منفعة محرمة .

○ (**الثاني**) : إن الاستيجار عليها باطل .

○ (**الثالث**) : إن أكل المَال به أكل مال بالباطل بمنزلة أكله عوضاً عن الميتة والدم .

○ (**الرابع**): أنه لا يجوز للرجل بذل ماله للمغني ويحرم عليه ذلك ، فإنه بذل ماله في مقابلة محرم وأن بذله في ذلك كبذله في مقابلة الدم والميتة .

(الخامس) : أن الزمر حرام وإذا كان الزمر الذي هو أخف آلات اللهو حراماً فكيف بما هو أشد منه كالعود والطنبور واليراع ، ولا ينبغي لمن شم رائحة العلم أن يتوقف في تحريم ذلك . فأقل ما فيه أنه من شعار الفساق وشاربي الخمور .

وكذلك قال أبو زكريّا النووى في روضته :

القسم الثاني : أن يغني ببعض آلات الغناء بما هو من شعار شاربي الخمر وهو مطرب كالطنبور والعود والصنج وسائر المعازف والأوتار يحرم استعماله واستماعه : قال : وفي اليراع وجهان صحح البغوي التحريم : ثم ذكر عن الغزالي

الجواز قال : والصحيح تحريم اليراع وهو الشبابة وقد صنف أبو القاسم الدولعي كتاباً في تحريم اليراع : وقد حكى أبو عمرو بن الصلاح الإجماع على تحريم السماع الذي جمع الدف والشبابة والغناء فقال في فتاويه : وأما إباحة هذا السماع وتحليله فليعلم أن الدف والشبابة والغناء إذا اجتمعت فاستماع ذلك حرام عند أئمة المذاهب وغيرهم من علماء المسلمين ، ولم يثبت عن أحد ممن يعتدّ بقوله في الإجماع والاختلاف أنه أباح هذا السماع ، والخلاف المنقول عن بعض أصحاب الشافعي إنما نقل في الشبابة منفردة ، والدف منفرداً فمن لا يحصل أو لا يتأمل ربما اعتقد خلافاً بين الشافعيين في هذا السماع الجامع هذه الملاهي ، وذلك وهم بين من الصائر إليه تنادي عليه أدلة الشرع والعقل مع أنه ليس كل خلاف يستروح إليه ويعتمد عليه ، ومن تتبّع ما اختلف فيه العلماء ، وأخذ بالرخص من أقاويلهم تزندق أو كاد .

قال : وقولهم من السماع المذكور إنه من القربات والطاعات قول مخالف لإجماع المسلمين ، ومن خالف إجماعهم فعليه ما في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ وأطال الكلام في الرد على هاتين الطّائفتين اللتين بلاء الإسلام منهم المحللون . لما حرم الله ، والمتقربون إلى الله بما يباعدهم عنه . والشافعي وقدماء أصحابه والعارفون بمذهبه من أغلظ الناس قولاً في ذلك ، وقد تواتر عن الشافعي أنه قال : خلفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن فإذا كان هذا قوله في التغبير وتعليله أنه يصد عن القرآن ، وهو شعر يزهد في الدنيا يغنّي به مغنّ فيضرب الحاضرين بقضيب على نطع أو مخدة على توقيع غنائه . فليت شعري ما يقول في سماع التغبير عنده كتفلة في بحر قد اشتمل على كل مفسدة ، وجمع كل محرم فالله بين[1] دينه وبين كل متعلم مفتون وعابد جاهل .

---

(١) كذا بالأصل .

قال سفيان بن عيينة : كان يقال احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، ومن تأمل الفساد الداخل على الأمة وجده من هذين المفتونين .

○ فصل ○

وأما مذهب الإمام أحمد ، فقال عبد الله ابنه : سألت أبي عن الغناء فقال : الغناء ينبت النفاق في القلب لا يعجبني ، ثم ذكر قول مالك إنما يفعله عندنا الفساق . قال عبد الله : وسمعت أبي يقول : سمعت يحيى القطان يقول : لو أن رجلاً عمل بكل[1] يقول : أهل الكوفة في النبيذ وأهل المدينة في السماع وأهل مكة في المتعة لكان فاسقاً قال أحمد : وقال سليمان التيمي لو أخذت برخصة كل عالم أو زلة كل عالم اجتمع فيك الشر كله . ونص على كسر آلات اللهو كالطنبور ، وغيره إذا رآها مكشوفة وأمكنه كسرها وعنه في كسرها إذا كانت مغطاة تحت ثيابه ، وعلم بها روايتان منصوصتان ونص في أيتام ورثوا جارية مغنية وأرادوا بيعها فقال : لا تباع إلا على إنها ساذجة فقالوا : إذا بيعت مغنية ساوت عشرين ألفاً أو نحوها وإذا بيعت ساذجة لا تساوى ألفين فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة ، ولو كانت منفعة الغناء مباحة لما فوت هذا المال على الأيتام .

○ فصل ○

وأما سماعه من المرأة الأجنبية أو الأمرد فمن أعظم المحرمات وأشدها فساداً للدين .

قال الشافعي رحمه الله : وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه تردّ شهادته ، وأغلظ القول فيه وقال : هو دياثة فمن فعل ذلك كان ديوثاً .

---

(١) لعله رخصة كنظائره .

قال القاضي أبو الطيب : وإنما جعل صاحبها سفيهاً لأنه دعا الناس إلى الباطل ، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيهاً فاسقاً قال : وكان الشافعي يكره التغبير وهو الطقطقة بالقضيب ويقول : وضعته الزنادقة ليشغلوا به عن القرآن .

قال : وأما العود والطنبور وسائر الملاهي فحرام ، ومستمعه فاسق ، واتباع الجماعة أولى من اتباع رجلين[1] عليهما قلت : يريد بهما إبراهيم بن سعد وعبيد الله بن الحسن فإنه قال : وما خالف في الغناء إلا رجلان ابراهيم بن سعد فإن الساجي حكى عنه أنه كان لا يرى به بأساً ، والثاني عبيد الله بن الحسن العنبرى قاضي البصرة ، وهو مطعون فيه .

قال أبو بكر الطرطوشي : وهذه الطائفة مخالفة لجماعة المسلمين لأنهم جعلوا الغناء ديناً وطاعة ، وأن إعلانه في المساجد والجوامع وسائر البقاع الشريفة والمشاهد الكريمة ، وليس في الأمة من رأى هذا الرأي .

قلت : ومن أعظم المنكرات تمكينهم من إقامة هذا الشعار الملعون هو وأهله في المسجد الأقصى عشية عرفة ، ويقيمونه أيضاً في مسجد الخيف أيام منى وقد أخرجناهم منه بالضرب والنفي مراراً ورأيتهم يقيمونه بالمسجد الحرام نفسه ، والناس في الطواف فاستدعيت حزب الله ، وفرقنا شملهم ورأيتهم يقيمونه بعرفات والناس في الدعاء والتضرع والإبتهال ، والضجيج إلى الله وهم في هذا السماع الملعون باليراع والدف والغناء . فإقرار هذه الطائفة على ذلك فسق يقدح في عدالة من أقرهم ومنصبه الديني ، وما أحسن ما قال بعض العلماء وقد شاهد هذا وأفعالهم[2] :

أَلا قُلْ لهم قَوْلَ عَبْدٍ نَصُوحٍ　　　وَحَقّ النَّصِيحَةِ أَنْ تُسْتَمعْ .

---

(١) بياض في الأصل فيه كلمة ليست واضحة .

(٢) هو ظهر الدين أبو إسحاق إبراهيم بن نصر الموصلي وقد أورده ابن خلكان في تاريخه هذه القصيدة في ترجمته مع زيادة وكذلك أوردها الحافظ ابن كثير في الجزء الثالث عشر من البداية والنهاية .

مَتَى عَلِمَ النَّاسُ في دِيْنِنَا ... بـأن الغِنَاسُنّـةٌ تُتَّبـع

وَأنْ يأكلَ المَرْءُ أكْلَ الحما ... رِ ويرقُصَ في الجمْعِ حَتّى يقعْ

وقالوا سَكَرْنا بحب الإلـه ... وَ مَا أَسْكَرَ الْقَوْمَ إلّا القِصَعْ

كـذاك البهائم وإن أشْبِعَتْ ... يُرَقِّصُهـا رِيُّهَـا والشِّبَـعْ

ويُسْكِرُهُ النَّـايُ ثُـمَّ الغِنـا ... ويس لو تُلِيَتْ ما انْصَدَعْ

فيَا للْعقُـولِ وَيـا لِلنُّهَـى ... ألا مُنْكِـرٌ مِنْكُـم للبِـدَعِ

تُهَـانُ مساجدُنَـا بِالسّمـا ... عِ وتُكْرَمُ عن مِثْلِ ذلكَ البِيَع

انتهى وتمامه فيه فينبغي لطالب العلم أن يراجع ذلك يجد ما يسرّه ، ويليه البدع والنهى عنها تأليف ابن وضاح رحمه الله .



○ قول إمام أهل السنة ○

أحمد بن حنبل رضي الله عنه

« هذه مذاهب أهل العلم والأثر وأهل السنة .. » .إلخ



○ الحمد لله وحده ○

أخبرنا الشيخان المسندان المعمران القاضي نظام الدين عمر بن إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي وزين الدين عبد الرحمن بن يوسف بن الحنبلي مشافهة من الأول ومكاتبة من الثاني ، قالا : أخبرنا الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد بن المحب المقدسي إجازة إن لم يكن سماعاً أخبرنا الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن أحمد بن تمام بن حسان الصالح البكري بقراءتي عليه ليلة الأحد سابع عشر في رمضان سنة ٧٣٨ بالجامع المظفري ، وأخبرنا المحدث تاج الدين محمد ابن الحافظ بن الندي المنفلي في كتابه أخبرنا المسند أبو عبد الله محمد بن إسماعيل العبادي إجازة إن لم يكن سماعاً قالا : أخبرنا الإمام أبو العباس أحمد بن عبد الدائم قال ابن تمام : قرأه عليه وأنا أسمع في ثالث عشر من ربيع الآخر سنة ٨٢٢ وقال الآخر : إجازة إن لم يكن حضوراً أخبرنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني بقراءتي عليه في ذي الحجة سنة ٥٢٩ ، وقال ابن عبد الدائم أيضاً : أخبرنا السلفي إذناً عاماً أخبرنا أبو محمد عبد الملك بن الحسن بن علي النسوي الفقيه قدم علينا مكة أخبرنا أبو محمد بن إسماعيل بن راجي بن معبد ابن عبد الله العسقلاني بعسقلان أخبرني أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن أبي شيخ الرافعي بن الحسين بن موسى العبادي ابن أحمد بن وهب القرشي قال : قال أحمد بن حنبل رضي الله عنه :

○ بسم الله الرحمن الرحيم ○

هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المتمسكين بعروتها المعروفين بها المقتدى بهم فيها من لدن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا ، وأدركت من أدركت من علماء الحجاز والشام وغيرهما عليها ، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع وخارج عن الجماعة زائل عن منهج السنة وسبيل الحق ، فكان قولهم :

إن الإيمان قول وعمل ونية ، وتمسك بالسنة ، والإيمان يزيد وينقص ، ويُستثنى في الإيمان من غير أن يكون الشك إنما هو سنة ماضية عن العلماء ، فإذا سئل الرجل : مؤمن أنت ؟ فإنه يقول : أنا مؤمن إن شاء الله ومؤمن أرجو أو يقول : آمنتُ بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ومن زعم أن الإيمان قول بلا عمل فهو مرجيء ، ومن زعم أن الإيمان هو القول والأعمال فشرائع فهو مرجيء ، ومن أنكر الاستثناء في الإيمان فهو مرجيء ، ومن زعم أن إيمانه كإيمان جبريل والملائكة فهو جهمي ، والقدر خيره ، وشره ، وقليله ، وكثيره ، وظاهره ، وباطنه ، وحلوه ، ومره ، ومحبوبه ، ومكروهه ، وحسنه ، وسيئه ، وأوله ، وآخره ، والله عز وجل قضى قضاءه على عباده لا يجاوزون قضاءه ، بل كلهم صائرون ، إلى ما خلقهم له ، واقعون فيما قَدَّر عليهم لا محالة ، وهو عدل منه عز وجل ، والزنا والسرقة ، وشرب الخمر ، وقتل النفس ، وأكل المال الحرام ، والشرك بالله عز وجل ، والذنوب ، والمعاصي كلها بقضاء وقدر من الله عز وجل من غير أن يكون لأحد من الخلق على الله حجة ، بل لله عز وجل الحجة البالغة على خلقه ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ .

وعلم الله عز وجل ماضٍ في خلقه بمشيئة منه قد علم من إبليس ، ومن غيره ممن عصاه ، ومن لدن عصاه إبليس إلى أن تقوم الساعة المعصية ، وخلقهم

لها ، وعلم الطاعة من أهل الطاعة ، وخلقهم لها ، فكل يعمل بما خلق له ، وصائر إلى ما قضى الله عليه منه ، لم يَعْدُ أحد منهم قدَر الله عز جل ومشيئته والله الفعال لما يريد ، ومن زعم أن الله عز وجل شاء لعباده الذين عصوا الخير والطاعة وأن العباد شاءوا لأنفسهم الشر والمعصية يعملون على مشيئتهم ، فقد زعم أن مشيئة العباد أغلب من مشيئة الله عز وجل ، فأيُّ افتراء على الله أكبر من هذا ، ومن زعم أن الزنا ليس بقدر قيل له : أرأيت هذه المرأة حملت من الزنا ، وجاءت بولد هل شاء الله عز وجل أن يخلق هذا الولد ؟ وهل مضى هذا في سابق علمه ؟ فإن قال : لا فقد زعم أن مع الله تعالى خالقاً ، وهذا هو الشرك صريحاً ومن زعم أن السرقة وشرب الخمر ، وأكل المال الحرام ، ليس بقضاء ، فقد زعم أن هذا الإنسان قادر على أن يأكل رزق غيره ، وهذا يضارع قول المجوسية ، بل كل رزقه الله ، وقضى الله عز وجل ، أن يأكله من الوجه الذي أكله ، ومن زعم أن قتل النفس ليس بقدر من الله عز وجل ، فقد زعم أن المقتول مات بغير أجله ، وأي كفر أوضح من هذا ، بل كان ذلك بقضاء الله عز وجل وقدره ، وكل ذلك بمشيئته في خلقه وتدبيره فيهم وما جري في سابق علمه فيهم . وهو العدل الحق الذي يفعل ما يريد ، ومن أقر بالعلم لزمه الإقرار بالقدر والمشيئة ، ولا نشهد على أحد من أهل القبلة أنه في النار لذنب عمله ، ولا بكبيرة أتاها إلا أن يكون في ذلك حديث ، فنروي الحديث كما جاء على ما روى نصدق به ، ونعلم أنه كما جاء . ولا تنقض الشهادة والخلافة في قريش ما بقى من الناس اثنان ، ليس لأحد من الناس أن ينازعهم فيها ولا يخرج عليهم ، ولا نقر لغيرهم بها إلى قيام الساعة ، والجهاد ماض قائم مع الإمام برّاً أو فاجراً ، ولا يبطله جور جائر ولا عدل عادل ، والجمعة والحج والعيدان مع الأئمة ، وإن لم يكونوا بررة عدولاً أتقياء ودفع الصدقات والأعشار والخراج والفيء والغنائم إلى الأمراء عدلوا فيها أو جاروا ، والانقياد لمن ولّاه الله عز وجل أمركم لا تنزع يداً من طاعته ، ولا تخرج عليه بسيفك يجعل الله لك فرجاً ومخرجاً ، ولا تخرج على السلطان بل تسمع وتطيع ، فإن أمرك السلطان بأمر هو لله عز وجل معصية ، فليس لك أن تطيعه وليس لك أن تخرج عليه ، ولا تمنعه حقه ، ولا تعن على فتنة بيد ولا

لسان . بل اكفف يدك ولسانك وهواك ، والله عز وجل المعين ، والكف عن أهل القبلة ، ولا نكفر أحداً منهم بذنب ، ولا نخرجهم عن الإسلام بعمل إلا أن يكون في ذلك حديث فيروى كما جاء ، وكما روي ، ونصدقه . ونقبله ، ونعلم أنه كما روي نحو ترك الصلاة وشرب الخمر وما أشبه ذلك ، أو يبتدع بدعة ينسب صاحبها إلى الكفر والخروج عن الإسلام ، فاتبع الأثر في ذلك ولا تجاوزه ، ولا أحب الصلاة خلف أهل البدع ، ولا الصلاة على من مات منهم ، والأعور الدجال خارج لا شك في ذلك ولا ارتياب ، وهو أكذب الكذابين . وعذاب القبر حق يُسْأل العبد عن دينه وعن ربه . ويرى مقعده من النار والجنة ، ومنكر ونكير حق ، وهما فتانا القبور نسأل الله عز وجل الثبات ، وحوض النبي صلى الله عليه وسلم حق ترده أمته ، وله آنية يشربون بها منه ، والصراط حق يوضع على شفير جهنم ، ويمر الناس عليه ، والجنة وراء ذلك نسأل الله عز وجل السلامة في الجواز . والميزان حق توزن به الحسنات والسيئات كما شاء أن توزن . والصور حق ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام فيموت الخلق ثم ينفخ فيه أخرى فيقومون لرب العالمين عز وجل للحساب والقصاص والثواب والعقاب والجنة والنار . واللوح المحفوظ حق تنسخ منه أعمال العباد مما سبقت فيه المقادير والقضاء . والقلم حق كتب الله به مقادير كل شيء وأحصاه في الذكر تبارك وتعالى . والشفاعة حق يوم القيامة يشفع قوم في قوم فلا يصيرون إلى النار ، ويخرج قوم من النار بعد ما دخلوها بشفاعة الشافعين ، ويخرج قوم من النار برحمة الله عز وجل بعد ما لبثوا فيها ما شاء الله عز وجل ، وقوم يخلدون فيها أبداً وهم أهل الشرك والتكذيب والجحود والكفر بالله عز وجل ، ويذبح الموت يوم القيامة بين الجنة والنار ، وقد خلقت النار وما فيها وخلقت الجنة وما فيها خلقهما الله عز وجل ثم خلق الخلق لهما لا يفنيان ولا يفنى ما فيهما أبداً فإن احتج مبتدع بقوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ ونحو هذا من متشابه القرآن . قيل له : كل شيء مما كتب الله عز وجل عليه الفناء والهلاك هالك والجنة والنار خلقهما الله عز وجل للبقاء لا للفناء ولا للهلاك وهما من الآخرة لا من الدنيا ، والحور العين

لا تمتن عند قيام الساعة ولا عند النفخة أبداً لأن الله عز وجل خلقهن للبقاء لا للفناء و لم يكتب عليهن الفناء ولا الموت ، فمن قال خلاف ذلك فهو مبتدع ، وخلق الله سبع سموات بعضها فوق بعض ، وسبع أرضين بعضها أسفل من بعض وبين الأرض العليا والسماء الدنيا خمسمائة عام ، وبين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام ، والماء فوق السماء السابعة ، وعرش الرحمن تبارك وتعالى فوق الماء ، والله عز وجل على العرش ، وهو يعلم ما في السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى وما في قعر البحار ، ومنبت كل شَعْرة وكل شجرة وكل زرعة وكل نبت ، ومسقط كل ورقة وعدد ذلك وعدد الحصاء والرمل والتراب ومثاقيل الجبال وأعمال العباد وآثارهم وكلامهم وأنفاسهم ويعلم كل شيء لا يخفى عليه شيء من ذلك ، وهو على العرش فوق السماء السابعة ، وعنده حجب من نار ونور وظلمة وماء ، وهو أعلم بها فإن احتج مبتدع أو مخالف بقوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ أو بقوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ أو بقوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ ونحو هذا من متشابه القرآن قيل : إنما يعني بذلك العلم لأن الله تبارك وتعالى على العرش فوق السماء السابعة العليا يعلم ذلك كله ، وهو تعالى بائن من خلقه لا يخلو من علمه مكان ، والله تعالى على العرش ، وللعرش حملة يحملونه ، والله عز وجل على عرشه ، والله تعالى سميع ، لا يشك ، بصير ، ولا يرتاب ، عليم ، لا يجهل ، جواد ، لا يبخل ، حليم ، لا يعجل ، حفيظ ، لا ينسى ، يقظان ، لا يسهو ، قريب ، لا يغفل ، يتكلم ، ويسمع ، وينظر ، ويبصر ، ويضحك ، ويفرح ، ويحب ، ويكره ، ويبغض ، ويرضى ، ويغضب ، ويسخط ، ويرحم ، ويعفو ، ويعطي ، ويمنع ، وينزل تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا كيف يشاء : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرب عز وجل يقلبها كيف يشاء ، ويوعيها ما أراد ، وخلق الله عز وجل آدم عليه السلام بيده والسموات والأرض يوم القيامة في كفه ، ويخرج قوماً من النار بيده ، وينظر أهل الجنة إلى وجهه ، ويرونه ويكرمهم ، ويتجلّى لهم فيعطيهم .

ويعرض عليه العباد يوم الفصل والدين ، ويتولى حسابهم بنفسه ، ولا يولى ذلك غيره عز وجل .

والقرآن كلام الله ليس بمخلوق فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي كافر ومن زعم أن القرآن كلام الله عز وجل ووقف ولم يقل مخلوق ، ولا غير مخلوق ، فهو أخبث من الأول .

ومن زعم أن ألفاظنا بالقرآن وتلاوتنا له مخلوقة والقرآن كلام الله فهو أخبث من الأول ومن زعم أن ألفاظنا بالقرآن وتلاوتنا له مخلوقة ، والقرآن كلام الله فهو جهمي ، ومن لم يكفر هؤلاء القوم كلهم فهو مثلهم ، وكلم الله موسى تكليماً من الله سمع موسى يقيناً وناوله التوراة من يده ، ولم يزل الله متكلماً عالما تبارك الله أحسن الخالقين ، والرؤيا من الله عز وجل حق إذا رأى صاحبها شيئاً في منامه يقصها على عالم ، وقد كانت الرؤيا من الأنبياء وحياً ومن السنة ذكر محاسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم أجمعين ، والكف عن الذي شَجَر بينهم ، فمن سبّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أحداً منهم فهو مبتدع رافض ، حُبهم سنة والدعاء لهم قربة والاقتداء بهم وسيلة والأخذ بآثارهم فضيلة ، وخير هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم أبو بكر وخيرهم بعد أبي بكر عمر وخيرهم بعد عمر عثمان وخيرهم بعد عثمان علي رضوان الله عليهم . خلفاء راشدون مهديون ، ثم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بعد هؤلاء الأربعة لا يجوز لأحد أن يذكر شيئاً من مساويهم ، ولا يطعن على أحد منهم فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته ، ليس له أن يعفو عنه ، بل يعاقبه ثم يستتيبه فإن تاب قبل منه وإن لم يتب أعاد عليه العقوبة وجلده في المجلس حتى يتوب ويراجع ، ونعرف للعرب حقها وفضلها وسابقتها ونحبهم بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سب العرب نفاق ، وبغضهم نفاق ، ومن حرم المكاسب والتجارة وظلب الرزق من وجهه فقد جهل ، وأخطأ وخالف ، بل المكاسب من وجهها حلال قد أحلها الله عز وجل ورسوله ، والرجل ينبغي له أن يستعين على نفسه وعياله من فضل ربه تبارك ، وتعالى فإن كان لا يرى

الكسب فهو مخالف ، وكل واحد أحق بماله الذي ورثه أو استفاده أو أصابه أو كسبه لا كما يقول المتكلفون المخالفون ، وأصحاب البدع .

« والمرجئة» وهم الذين يزعمون أن الإيمان مجرد النطق باللسان ، وأن الناس لا يتفاضلون في الإيمان وأن إيمانهم وإيمان الملائكة والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم واحد ، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وأن الإيمان ليس فيه استثناء وأن من آمن بلسانه ولم يعمل فهو مؤمن حقاً . هذا كله قول المرجئة وهو أخبث الأقاويل .

« والقدرية » فهم الذين يزعمون أن الاستطاعة والمشيئة والقدرة لهم ، وأنهم يملكون لأنفسهم الخير والشر والضر والنفع والطاعة والمعصية والهدي والضلالة بَدْأً من غير أن يكون قد سبق لهم ذلك من الله عز وجل ، أو في علم الله عز وجل ، وقولهم يضارع قول المجوسية والنصرانية .

و « المعتزلة » الذين يقولون قول القدرية ، ويكذبون بعذاب القبر والحوض . ولا يرون الصلاة خلف أحد من أهل القبلة والجمعة إلا من كان على هواهم يزعمون أن أعمال العباد ليست في اللوح المحفوظ .

و « النصيرية » وهم قدرية وهم أصحاب الحبة والقيراط والدانق يزعمون أن من أخذ حبة أو دانقاً أو قراطاً حراماً فهو كافر ، وقولهم يضاهيء قول الخوارج .

و « الجهمية » وهم أعداء الله فهم الذين يزعمون أن القرآن مخلوق ، وأن الله عز وجل لم يكلم موسى ، وأن الله عز وجل لم يتكلم ، وأنه عز وجل لا يُرى ، ويقولون : ليس لله عز وجل عرش ولا كرسي وكلام كثير أكره حكايته وهم كفار .

و « الواقفية » وهم الذين يزعمون أن القرآن كلام الله عز وجل ولا يقولون غير مخلوق وهم شر الأصناف وأخبثها.

و « اللفظية » وهم الذين يزعمون أن القرآن كلام الله عز وجل ، ولكن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة وهم جهمية . و « الرافضة » وهم الذين يتبرءُون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسبونهم ويكفرون الأئمة الأربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وعماراً أيضاً والمقداد وسلمان رضي الله عنهم .

و « المنصورية » وهم رافضة أخبث الروافض وهم الذين يقولون : أخطأ جبريل بالرسالة و« السَّبئِيَّة » وهم رافضة قريب ممن ذكرت وصنف منهم يقولون : عليٌّ في السحاب وعليٌّ يبعث قبل يوم القيامة .

و « الرشدية » وهم الذين يتبرءُون من عثمان وطلحة والزبير وعائشة رضوان الله عليهم : ويرون القتال معَ كل خارج من ولد علي رضي الله عنه .

و « الخشبية » وهم الذين يقولون بقول الزيدية والشيعة .

وأما « الخوارج » فمرقوا من الدين وفارقوا الملة وشذوا عن الإسلام وسلوا السيف على الأمة واستحلوا دماءهم وكفروا من خالفهم إلا من قال بقولهم وثبت معهم في دار ضلالتهم ، ولا يؤمنون بعذاب القبر ولا يرون الحوض ، والشفاعة ، ولا خروج أحد من النار ، ويقولون : من كذب كذبة أو أتى صغيرة أو كبيرة من الذنوب ثم مات عليها فهو في النار خالداً مخلداً أبداً ، وهم يقولون بقول النصيرية في الحبة والقراط ، وهم قدرية مرجئة جهمية رافضة لا يرون الجماعة إلا خلف إمامهم ، وهم يرون تأخير الصلاة عن وقتها ويرون الصوم قبل رؤية الهلال والفطر قبل رؤيته ، وهم يرون النكاح من غير ولي ولا سلطان ويرون المتعة ويرون الدرهم بالدرهمين يداً بيد حلالاً ، ولا يرون الصلاة في الخفاف ، ولا يرون المسح عليهما ، ولا يرون لقريش خلافة ، ولا لهم في الإسلام شيء .

ومن أسماء الخوارج الحرورية وهم أهل حروراء .

و « الأزارقة » وهم أصحاب نافع بن الأزرق .

« والنجدية » وهم أصحاب نَجْدَة بن عامر و « الإباضية » وهم أصحاب عبد الله بن إباض .

و « الغرية » وهم أصحاب داود بن النعمان . و « الخرمية » و « المشبهة » وهم خارجون عن الملة .

« وأصحاب الرأي » وهم مبتدعة ضلال أعداء السنة والأثر يبطلون الحديث .

وقد أحدث أهل الأهواء والبدع والخلاف أسماء شنيعة قبيحة يسمون بها أهل السنة يريدون بذلك الطعن عليهم والإزراء بهم عند السفهاء والجهال ، فأما المرجئة فيسمون أهل السنة شكاكاً » . وأما القدرية فيسمون أهل السنة مجبرة . وأما الرافضة فيسمون أهل السنة ناصبة . وأما الخوارج فيسمون أهل السنة نابتة وحشوية . رحم الله عبداً قال الحق واتبع الأثر وتمسك بالسنة اهـ .



جذوة مباركة

من كتاب

○ جامع العلوم والحكم ○

تأليف ابن رجب الحنبلي رحمه الله



ولنذكر ههنا جذوة مباركة مما أفاده زين الدين بن رجب فيما يتعلق في حديث عائشة رضي الله عنها وحديث العرباض بن سارية فقال رحمه الله :

الحديث الخامس عن أمِّ المؤمنين أمِّ عبد الله عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ** » رَواه البخاريُّ ومُسْلِم وفي رِواية لِمسلِمٍ : « **من عَمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ** » هذا الحديث أخرجاه في الصحيحين من رواية القاسم بن محمّد عن عمته عائشة رضي الله عنها .

وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام كما أن حديث الأعمال بالنيات ميزان للأعمال في باطنها وهو ميزان للأعمال في ظاهرها ، فكما أن كل عمل لايراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب فكذلك كلّ عمل لا يكون عليه أمر الله ورسـوله فهو مردود على عامله وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله فليس من الدين في شيء وسيأتي حديث العرباض بن سارية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بَسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة** » وكان صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته : « **إن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها** » إلى ذكر حديث العرباض المشار إليه : ونَتكلم ههنا على الأعمال التي ليس عليها أمر الشارع وردها ، فهذا الحديث بمنطوقه يدلّ على أن كلّ عمل ليس عليه أمر الشارع فهو مردود ، ويدلّ بمفهومه على أن كلّ عمل عليه أمره فهو غير مردود والمراد بأمره ههنا دينه وشرعه كالمراد بقوله في الرواية الأخرى : « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو ردّ** » فالمعنى إذاً أن من كان عمله خارجاً عن الشرع ليس متقيداً بالشرع فهو مردوده .

وقوله : « **ليس عليه أمرنا** » .

إشارة إلى أن أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة ،

فتكون أحكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها ونهيها ، فمن كان عمله جارياً تحت أحكام الشريعة موافقاً لها فهو مقبول ، وما كان خارجاً عن ذلك فهو مردود .

والأعمال قسمان عبادات ومعاملات ، فأما العبادات فما كان منها خارجاً عن حكم الله ورسوله بالكلية فهو مردود على عامله وعامله يدخل تحت قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ فمن تقرب إلى الله بعمل لم يجعله الله ورسوله قربة إلى الله فعمله باطل مردود عليه ، هو شبيه بحال الذين كانت صلاتهم عند البيت مكاء وتصدية ، وهذا كمن تقرب إلى الله تعالى بسماع الملاهي أو بالرقص أو بكشف الرأس في غير الإحرام ، وما أشبه ذلك من المحدثات التي لم يشرع الله ورسوله التقرب بها بالكلية ، وليس ما كان قربة في عبادة يكن قربة في غيرها مطلقاً ، فقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً قائماً في الشمس فسأل عنه فقيل : إنه نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل وأن يصوم فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يقعد ويستظل وأن يتم صومه . فلم يجعل قيامه وبروزه في الشمس قربة يوفى بنذرهما ، وقد روي أن ذلك كان في يوم جمعة عند سماع خطبة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو على المنبر فنذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ما دام النبيّ صلى الله عليه وسلم يخطب إعظاما لسماع خطبة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك قربة يوفى بنذره مع أن القيام عبادة في مواضع أخر كالصلاة ، والأذان ، والدعاء بعرفة ، والبروز للشمس قربة للمحرم ، فدلّ على أنه ليس كلّ ما كان قربة في موطن يكون قربة في كلّ المواطن ، وإنما يتبع ذلك كل ما وردت به الشريعة في مواضعها ، وكذلك من تقرب بعبادة نُهِيَ عنها بخصوصها كمن صام يوم العيد أو صلى وقت النهي وأما من عمل عملاً أصله مشروع ، وقربة ثم أدخل فيه ما ليس بمشروع أو أخل فيه بمشروع ، فهذا مخالف للشريعة بقدر إخلاله بما أخلّ به أو إدخاله ما أدخل فيه ، وهل يكون عمله من أصله مردوداً عليه أم لا ، فهذا لا يطلق القول فيه برد ولا قبول بل ينظر فيه فإن كان ما أخلَّ به من أجزاءِ العمل أو شروطه موجباً لبطلانه في الشريعة كمن أخل بالطهارة

للصلاة مع القدرة عليها ، أو كمن أخلّ بالركوع أو بالسجود مع الطمأنينة فيهما ، فهذا عمل مردود عليه ، وعليه إعادته إن كان فرضاً ، وإن كان ما أخلّ به لا يوجب بطلان العمل كمن أخل بالجماعة للصلاة المكتوبة عند من يوجبها ، ولا يجعلها شرطاً فهذا لا يقال : إن عمله مردود من أصله بل هو ناقص ، وإن كان قد زاد في العمل المشروع ما ليس بمشروع فزيادته مردودة عليه ، بمعنى أنها لا تكون قربة ولا يثاب عليها ولكن تارة يبطل بها العمل من أصله فيكون مردوداً كمن زاد ركعة عمداً في صلاته مثلاً ، وتارة لا يبطله ولا يردّه من أصله ، كمن توضأ أربعاً أربعاً أو صام الليل مع النهار وواصل في صيامه اهـ وتمامه فيه .

وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث العرباض بن سارية أنه قال : « **من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ** » هذا إخبار منه صلى الله عليه وسلم بما وقع في أمته بعده من كثرة الاختلاف في أصول الدين وفروعه وفي الأعمال والأقوال والاعتقادات .

وهذا موافق لما روي عنه من افتراق أمته على بضع وسبعين فرقة ، وأنها كلها في النار إلا فرقة واحدة وهي ما كان عليه وأصحابه ، ولذلك في هذا الحديث أمر عند الافتراق والاختلاف بالتمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده ، والسنة هي الطريق المسلوك فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال ، وهذه هي السنة الكاملة ، ولهذا كان السلف قديماً لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله ، وروي معنى ذلك عن الحسن والأوزاعي والفضيل بن عياض وكثير من العلماء المتأخرين يخص اسم السنة بما يتعلق بالاعتقاد لأنها أصل الدين ، والمخالف فيها على خطر عظيم ، وفي ذكر هذا الكلام بعد الأمر بالسمع والطاعة لأولي الأمر اشارة إلى أنه لا طاعة لأولي الأمر في غير طاعة الله كما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إنما الطاعة في المعروف** »

وفي المسند عن أنس أن معاذ بن جبل رضي الله عنهما قال : يا رسول أرأيت إن كان علينا أمراء لا يستنون بسنتك ولا يأخذون بأمرك فما تأمر بأمرهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **لا طاعة لمن لم يطع الله عز وجل** » .

وخرّجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **سيلي أموركم بعدي رجال يطفئون السنة بالبدعة ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها** » فقلت : يا رسول الله ، وان ادركتهم كيف أفعل قال : « **لا طاعة لمن عصى الله** » .

وفي أمره صلى الله عليه وسلم باتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين بعد أمره بالسمع والطاعة لولاة الأمور عموماً . دليل على أن سنة الخلفاء الراشدين متبعة كاتباع السنة بخلاف غيرهم من ولاة الأمور .

وفي مسند الإمام أحمد وجامع الترمذي عن حذيفة رضي الله عنه قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم جلوسا فقال : « **إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم فاقتدوا باللّذين من بعدي ، وأشار إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وتمسكوا بعهد عمار ، وما حدثكم به ابن مسعود فصدقوه** » وفي رواية : « **فتمسكوا بعهد ابن أم عبد واهتدوا بعهد عمار** » .

فنصّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر عمره على من يقتدى به من بعده .

والخلفاء الراشدون الذين أمرنا بالاقتداء بهم هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، فإن في حديث سفينة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « **والخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يكون ملكاً** » وقد صححه الإمام أحمد واحتج به على خلافة الأئمة الأربعة .

ونص كثير من الأئمة على أن عمر بن عبد العزيز خليفة راشد أيضاً ويدلّ عليه ما أخرّجه الإمام أحمد من حديث حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله

عليه وسلم قال : « **تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبي ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله ثم تكون ملكاً عاضاً ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء يرفعها ثم تكون ملكاً جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم إذا شاء الله يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج نبوّة** » ثم سكت فلما ولي عمر بن عبد العزيز دخل عليه رجل فحدثه بهذا الحديث سرّ به وأعجبه ، وكان محمد بن سيرين يسئل أحياناً عن شيء من الأشربة فيقول : نهى عنه إمام هدى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ورحمه .

وقال مالك : قال عمر بن عبد العزيز : سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها اعتصام بكتاب الله ، وقوة على دين الله ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر في أمر خالفها من اهتدى بها فهو المهتدي ، ومن استنصر بها فهو المنصور ، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً .

وحكى عبد الله بن عبد الحكم عن مالك أنه قال : أعجبني عزم عمر على ذلك يعني هذا الكلام .

وقال خلف بن خليفة : شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب للناس وهو خليفة فقال في خطبته : ألا إن ما سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه فهو وظيفة دين نأخذ به وننتهي إليه .

وروى أبو نعيم من حديث عزوب الكندي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **إنه سيحدث بعدي أشياء فاجتهدوا إلى أن تلزموا ما أحدث عمر** » وكان عليٌّ رضي الله عنه يتبع قضاياه واحكامه ويقول إن عمر كان رشيد الأمر .

وقال أيوب عن الشعبي : انظروا ما اجتمعت عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإن الله لم يكن يجمعها على ضلالة فإذا اختلفت فانظروا ما صنع عمر ابن الخطاب فخذو به .

وقال وكيع : إذا اجتمع عمر وعليٌّ على شيء فهو الأمر .

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يحلف أن الصراط المستقيم هو الذي ثبت عليه عمر رضي الله عنه .

وبكلّ حال فما أجمع عمر عليه الصحابة فاجتمعوا عليه في عصره فلا شكّ أنه الحقّ ولو خالفه من بعد ذلك من خالفه .

وإنما وصف الخلفاء بالراشدين لأنهم عرفوا الحقّ وقضوا به والرّاشد ضدّ الغاوي ، والغاوي من عرف الحقّ وعمل بخلافه .

وفي رواية المهديين يعني أن الله يهديهم للحقّ ولا يضلهم عنه .

فالأقسام ثلاثة راشد وغاوٍ وضال ؛ فالراشد عرف الحقّ واتبعه ، والغاوي عرفه ولم يتبعه ، والضال لم يعرفه بالكلية . فكلّ راشد فهو مهتد وكلّ مهتد هداية تامة فهو راشد لأن الهداية إنما تتمّ بمعرفة الحقّ والعمل به أيضاً .

وقوله : « **عضوا عليها بالنواجذ** » كناية عن شدة التمسك بها والنواجذ الأضراس .

قوله : « **وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة** » تحذير للأمة من اتباع الأمور المحدثة المبتدعة ، وأكد ذلك بقوله : « **كلّ بدعة ضلالة** » والمراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدلّ عليه ، وأما ما كان له أصل من الشرع يدلّ عليه فليس ببدعة شرعاً ، وإن كان بدعة لغة .

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « **من ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ولا رسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً** » .

وخرّج الإمام أحمد من رواية غضيف بن الحارث الشمالي قال : بعث إليّ عبد الملك بن مروان فقال : إنا قد جمعنا الناس على أمرين رفع الأيدي على المنابر يوم الجمعة ، والقصص بعد صلاة الصبح والعصر فقال : أما إنهما أمثل

بدعتكم عندي ، ولست بمجيبكم إلى شيء منها لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة** » فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة .

وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنه من قوله نحو هذا ، فقوله صلى الله عليه وسلم « **كل بدعة ضلالة** » من جوامع الكلم ، لا يخرج عنه شيء وهو أصل عظيم من أصول الدين وهو شبيه بقوله صلى الله عليه وسلم : « **من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردّ** » كل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين ، ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة ، والدين بريء منه ، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة .

وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع ، فإنما ذلك في البدع اللغوية لا الشرعية ، فمن ذلك قول عمر رضي الله عنه لما جمع الناس في قيام رمضان على إمام واحد في المسجد وخرج ورآهم يصلون كذلك فقال : نعمت البدعة هذه .

وروي عنه أنه قال : إن كانت هذه بدعة فنعمت البدعة ، وروي عن أُبي بن كعب قال له : إن هذا لم يكن فقال عمر : قد علمت ولكنه حسن .

ومراده أن هذا الفعل لم يكن على هذا الوجه قبل هذا الوقت ، ولكن له أصل في الشريعة يرجع إليها ، فمنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحث على قيام رمضان ، ويرغب فيه وكان الناس في زمنه يقومون في المسجد جماعات متفرقة ووحداناً وهو صلى الله عليه وسلم صلى بأصحابه في رمضان غير ليلة ، ثم امتنع من ذلك معللاً بأنه خشي أن يكتب عليهم فيعجزوا عن القيام به ، وهذا قد أمن بعده صلى الله عليه وسلم ،

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقوم بأصحابه ليال الإفراد في العشر الأواخر ، ومنها أنه صلى الله عليه وسلم أمر باتباع سنة خلفائه الراشدين ، وهذا قد صار من سنة خلفائه الراشدين فإن الناس اجتمعوا عليه في زمن عمر

وعثمان وعلي رضي الله عنهم .

ومن ذلك أذان الجمعة الأوّل زاده عثمان لحاجة الناس إليه وأقرّه عليّ واستمر عمل المسلمين عليه ، وروي عن ابن عمر أنه قال : هو بدعة ، ولعله أراد ما أراد أبوه في قيام شهر رمضان .

ومن ذلك جمع الصُّحف في كتاب واحد توقف فيه زيد بن ثابت ، وقال لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما : كيف تفعلان ما لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم ثم علم أنه مصلحة فوافق على جمعه ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمرَ بكتابة الوحى ، ولا فرق بين أن يكتب مُفرقاً أو مجموعاً ، بل جمعه صار أصلح وكذلك جمع عثمان الأمة على مصحف وإعدامه لما خالفه خشية تفرق الأمة وقد استحسنه عليّ وأكثر الصحابة رضي الله عنهم ، وكان ذلك عين المصلحة .

وكذلك قتال من منع الزكاة توقف عمر وغيره حتى بينه لهم أبو بكر أصله الذي يرجع إليه من الشريعة فوافقه الناس على ذلك ومن ذلك القصص ، وقد سبق قول غضيف بن الحارث إنه بدعة ، وقال الحسن : إنه بدعة ونعمت البدعة كم من دعوة مستجابة وحاجة مقضية ، وأخ مستفاد ، وإنما عنى هؤلاء بأنه بدعة الهيئة الاجتماعية عليه في وقت معين فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن له وقت يقص على أصحابه فيه غير الخطبة الراتبة في الجمع والأعياد . وإنما كان يذكرهم أحياناً أو عند حدوث أمر يحتاج إلى التذكير عنده ثم إن الصحابة رضي الله عنه اجتمعوا على تعيين وقت له كما سبق عن ابن مسعود أنه يذكَر أصحابه كل يوم خميس .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : حدث الناس في كلّ جمعة مرَّة فإن أبيت فمرَّتين فإن أكثرتَ فثلاثاً ولا تمل الناس ، وفي السنة عن عائشة رضي الله عنها أنها وصت قاصّ المدينة بمثل ذلك .

وروي عنها أنها قالت لسعيد بن عمير : حدِّث الناس يوماً ودع الناس يوماً .

وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه أمر القاصّ أن يقصّ كل ثلاثة أيام مرّة ، وروي عنه أنه قال : روح الناس ، ولا تثقل عليهم ، ودع القصص يوم السبت ويوم الثلاثاء .

وقد روى الحافظ أبو نعيم بإسناد عن إبراهيم بن الجنيد قال : سمعت الشافعي يقول : البدعة بدعتان بدعة محمودة وبدعة مذمومة ، فما وافق السنة فهو محمود وما خالف السنة فهو مذموم ، واحتج بقول عمر نعمت البدعة هي ، ومراد الشافعي رضي الله عنه ما ذكرناه من قبل أن أصل البدعة المذمومة ما ليس لها أصل في الشرع ترجع إليه ، وهي البدعة في إطلاق الشرع وأما البدعة المحمودة فما وافق السنة يعني ما كان لها أصل من السنة ترجع إليه ، وإنما هي بدعة لغة لا شرعاً لموافقتها السنة .

وقد روي عن الشافعي كلام آخر يفسر هذا وأنه قال : المحدثات ضربان ما أحدث مما يخالف كتاباً أو سنة أو أثراً أو إجماعاً فهذه البدعة الضلالة ، وما أحدث فيه من الخير لا خلاف فيه لواحد من هذا وهذه محدثة غير مذمومة ، وكثير من الأمور التي أحدثت ولم يكن قد اختلف العلماء في أنها بدعة حتى ترجع إلى السنة أم لا .

فمنها كتابة الحديث نهى عنه عمر وطائفة من الصحابة ورخص فيها الأكثرون واستدلوا له بأحاديث من السنة ، ومنها كتابة تفسير الحديث والقرآن كرهه قوم من العلماء ورخص فيه كثير منهم ، وكذلك اختلافهم في كتابة الرأي في الحلال والحرام ونحوه ، وفي توسعة الكلام في المعاملات وأعمال القلوب التي لم تنقل عن الصحابة والتابعين .

وكان الإمام أحمد يكره أكثر ذلك وفي هذه الأزمان التي بَعُدَ العهد فيها بعلوم السلف يتعين ضبط ما نقل عنهم من ذلك كله ليتميز به ما كان من العلم موجوداً في زمانهم وما أحدث في ذلك بعدهم فيعلم بذلك السنة من البدعة وقد صح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : إنكم قد أصبحت اليوم على الفطرة

وإنكم ستحدثون ويحدث لكم فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالعهد الأوّل ، وابن مسعود قال هذا في زمن الخلفاء الراشدين .

وروى ابن حميد عن مالك قال : لم يكن شيء من هذه الأهواء في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان ، وكان مالك يشير بالأهواء إلى ما حدث من التفرق في أصول الديانات من أمور الخوارج والروافض والمرجئة ونحوهم ممن تكلم في تكفير المسلمين واستباحة دمائهم وأموالهم أو في تخليدهم في النار أو في تفسيق خواص هذه الأمة أو عكس ذلك من زعم أن المعاصي لا تضرّ أهلها ، وأنه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد ، وأصعب من ذلك ما أحدث من الكلام في ذات الله وصفاته مما سكت عنه النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعون لهم بإحسان فقوم نفوا كثيراً مما ورد في الكتاب والسنة من ذلك وزعموا أنهم فعلوا تنزيهاً لله عما تقتضيه العقول بتنزيهه عنه وزعموا أن لازم ذلك لمستحيل على الله عزّ وجلّ ، وقوم لم يكتفوا بإثباته حتى أثبتوا بإثباته ما يظنّ أنه لازم له بالنسبة إلى المخلوقين ، وهذه اللوازم نفياً وإثباتا درج صدر الأمة على السكوت عنها .

ومما حدث في الأمة بعد عصر الصحابة والتابعين الكلام في الحلال والحرام بمجرّد الرّأي ، ورد كثير مما وردت به السنة في ذلك لمخالفته الرّأي والأقيسة العقلية .

ومما حدث بعد ذلك الكلام في الحقيقة بالذوق والكشف ، وزعم أن الحقيقة تنافي الشريعة وأن المعرفة وحدها تكفي مع المحبة ، وأنه لا حاجة إلى الأعمال ، وأنها حجاب أو أن الشريعة إنما يحتاج إليها العوام ، وربما انضمّ إلى ذلك الكلام في الذات والصفات بما يعلم قطعاً مخالفته الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة والله يهد من يشاء إلى صراط مستقيم اهـ .

شرح حديث

○ بدأ الإسلام غريباً ○

لشيخ الإسلام ابن تيمية

رحمه الله تعالى



○ بسم الله الرحمن الرحيم ○

قال الإمام العالم العلامة البارع الأوحد القدوة الحافظ شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه .

○ فصل ○

في قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « **بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء** » لا يقتضي هذا أنه إذا صار غريباً يجوز تركه والعياذ بالله ؛ بل كما قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ .

وقد بسطنا الكلام على هذا في موضع آخر وبينا أن الأنبياء كلهم كان دينهم الإسلام من نوح إلى المسيح ولهذا لما بدأ الإسلام غريباً لم يكن غيره من الدين مقبولاً ، بل قد ثبت في الحديث الصحيح حديث عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب** » الحديث ولا يقتضي هذا أن المتمسك به يكون في شر بل هو أسعد الناس كما قال في تمام الحديث : « **فطوبى للغرباء** » و« طوبى » من الطيب قال تعالى : ﴿ **طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ** ﴾ فإنه يكون

من جنس السابقين الأولين الذين اتبعوه لما كان غريباً ، وهم أسعد الناس ، أما في الآخرة فهم أعلى الناس درجة بعد الأنبياء عليهم السلام وأما في الدنيا فقد قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي أن الله حسبك وحسب متبعك . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ وقال : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ فالمسلم المتبع للرسول ؛ الله تعالى حسبه وكافيه وهو وليه حيث كان ومتى كان ، ولهذا يوجد المسلمون المتمسكون بالإسلام في بلاد الكفر لهم السعادة كلما كانوا أتم تمسكاً بالإسلام ، فإن دخل عليهم شر كان بذنوبهم ، حتى إن المشركين وأهل الكتاب إذا رأوا المسلم القائم بالإسلام عظموه وأكرموه وأعفوه من الأعمال التي يستعملون بها المنتسبين إلى ظاهر الإسلام من غير عمل بحقيقته لم يكرم .

وكذلك كان المسلمون في أول الإسلام وفي كل وقت فإنه لابد أن يجعل للناس في الدنيا شر ولله على عباده نعم لكن الشر الذي يصيب المسلم أقل ، والنعم التي تصل إليه أكثر ، فكان المسلمون في أول الإسلام وإن ابتلوا بأذى الكفار والخروج من الديار ، فالذي يحصل للكفار من الهلاك كان أعظم بكثير ، والذي كان يحصل للكفار من عز أو مال كان يحصل للمسلمين أكثر منه حتى من الأجانب .

فرسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما كان المشركون يسعون في أذاه بكل طريق كان الله يدفع عنه ويعزه ويمنعه وينصره من حيث كان أعز قريش ما منهم إلا من كان يحصل له من يؤذيه ويهينه من لا يمكنه دفعه ، إذ لكل كبير كبير يناظره ويناويه ويعاديه ، وهذه حال من لم يتبع الإسلام يخاف بعضهم بعضاً ويرجو بعضهم بعضاً . وأتباعه الذين هاجروا إلى الحبشة أكرمهم ملك الحبشة وأعزهم غاية الإكرام والعز والذين هاجروا إلى المدينة فكانوا أكرم وأعز ، والذي كان يحصل لهم من أذى الدنيا كانوا يعوضون عنه عاجلاً من الإيمان وحلاوته

ولذته ، وما يحتملون به ذلك الأذى وكان أعداؤهم يحصل لهم من الأذى والشر أضعاف ذلك من غير عوض لا آجلاً ولا عاجلاً إذ كانوا معاقبين بذنوبهم ، وكان المؤمنون ممتحنين ليخلص إيمانهم وتكفر سيئاتهم وذلك أن المؤمن يعمل لله فإن أوذي احتسب أذاه على الله وإن بذل سعياً أو مالاً بذله لله فاحتسب أجره على الله ، والإيمان له حلاوة في القلب ولذة لا يعدلها شيء البتة ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار** » أخرجاه في الصحيحين .

وفي صحيح مسلم : « **ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً** » .

وكما أن الله نهى نبيه أن يصيبه حزن أو ضيق ممن لم يدخل في الإسلام في أول الأمر فكذلك في آخره ، فالمؤمن منهي أن يحزن عليهم أو يكون في ضيق من مكرهم ، وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام جزع وكَلّ وناح كما ينوح أهل المصائب ، وهو منهي عن هذا بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام ، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وأن العاقبة للتقوى وأن ما يصيبه فهو بذنوبه فليصبر إن وعد الله حق وليستغفر لذنبه وليسبح بحمد ربه بالعشي والإبكار .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « **ثم يعود غريباً كما بدأ** » يحتمل شيئين :

(أحدهما) : أنه في أمكنة وأزمنة يعود غريباً بينهم ثم يظهر كما كان في أول الأمر غريباً ثم ظهر ، ولهذا قال : « **سيعود غريباً كما بدأ** » وهو لما بدأ كان غريباً لا يعرف ثم ظهر وعرف فكذلك يعود حتى لا يعرف ثم يظهر ، ويعرف فيقل من يعرفه في أثناء الأمر كما كان من يعرفه أولاً ، ويحتمل أنه في آخر الدنيا لا يبقى مسلماً إلا قليل وهذا إنما يكون بعد الدجال ويأجوج ومأجوج عند قرب

الساعة ، وحينئذٍ يبعث الله ريحاً تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة ثم تقوم القيامة .

وأما قبل ذلك فقد قال صلى الله عليه وسلم : « **لا تزل طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة** » وهذا الحديث في الصحيحين ومثله من عدة أوجه فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا تزال طائفة ممتنعة من أمته على الحق أعزاء لا يضرهم المخالف ولا خلاف الخاذل فأما بقاء الإسلام غريباً ذليلاً في الأرض كلها قبل الساعة فلا يكون هذا .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « **ثم يعود غريباً كما بدأ** » أعظم ما يكون غُربته إذا ارتد الداخلون فيه عنه وقد قال تعالى : ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ فهؤلاء يقيمونه إذا ارتد عنه أولئك وكذلك بدأ غريباً ولم يزل يقوى حتى انتشر ، فهكذا يتغرب في كثير من الأمكنة والأزمنة ، ثم يظهر حتى يقيمه الله عز وجل ، كما كان عمر بن عبد العزيز لما ولي قد تغرب كثير من الإسلام على كثير من الناس حتى كان منهم من لا يعرف تحريم الخمر فأظهر الله به في الإسلام ما كان غريباً وفي السنة : « **إن الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها** » والتجديد إنما يكون بعد الدروس وذلك هو غربة الإسلام . وهذا الحديث يفيد المسلم أنه لا يغتم بقلة من يعرف حقيقة الإسلام ولا يضيق صدره بذلك ولا يكون في شك من دين الإسلام كما كان حين بدأ قال تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات والبراهين الدالة على صحة الإسلام ، وكذلك إذا تغرب يحتاج صاحبه من الأدلة والبراهين إلى نظير ما احتاج إليه في أول الأمر وقد قال له : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

وقال تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ وقد تكون الغربة في بعض شرائعه ، وقد يكون ذلك في بعض الأمكنة ففي كثير من الأمكنة يخفى عليهم من شرائعه ما يصير [به] غريباً بينهم لا يعرفه منه إلا لواحد بعد الواحد ، ومع هذا فطوبى لمن تمسك بتلك الشريعة كما أمر الله ورسوله ، فإن إظهاره والأمر به والإنكار على من خالفه هو بحسب القوة والأعوان ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « **من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل** » وإذا قدر أن في الناس من حصل له سوء في الدنيا والآخرة بخلاف ما وعد الله به رسله وأتباعه فهذا من ذنوبه ونقص إسلامه كالهزيمة التي أصابتهم يوم أحد وإلا فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ وفيما قصه الله تعالى من قصص الأنبياء وأتباعهم ونصرهم ونجاتهم وهلاك أعدائهم عبرة والله أعلم .

● **فإن قيل** : قوله تبارك وتعالى : ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ هو خطاب لذلك القرن كقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ولهذا بين النبي صلى الله عليه وسلم أنهم أهل اليمن الذين دخلوا في الإسلام لما ارتد من ارتد من العرب ويدل على ذلك أنه في آخر الأمر لا يبقى مؤمن .

● **قيل** : قوله تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خطاب لكل من بلغه القرآن من المؤمنين كسائر أنواع هذا الخطاب كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ وأمثالها ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ وكلاهما وقع ويقع كما أخبر الله عز وجل ، فإنه ما ارتد من الإسلام طائفة إلا أتى الله بقوم يحبهم يجاهدون عنه ، وهم الطائفة المنصورة إلى

قيام الساعة ، يبين ذلك أنه ذكر هذا في سياق النهى عن موالاة الكفار فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ إلى قوله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ فالمخاطبون بالنهي عن موالاة اليهود والنصارى هم المخاطبون بآية الردة ومعلوم أن هذا يتناول جميع قرون الأمة وهو لما نهى عن موالاة الكفار وبين أن من تولاهم من المخاطبين فإنه منهم بين أن من تولاهم وارتد عن دين الاسلام لا يضر الإسلام شيئاً ، بل سيأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه فيتولون المؤمنين دون الكفار ، ويجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم كما قال في أول الأمر : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ﴾ فهؤلاء الذين لم يدخلوا في الإسلام ، وأولئك الذين خرجوا منه بعد الدخول فيه لا يضرون الإسلام شيئاً ، بل يقيم الله من يؤمن بما جاء به رسوله وينصر دينه إلى قيام الساعة ، وأهل اليمن هم ممن جاء الله بهم لما ارتد من ارتد إذ ذاك وليست الآية مختصة بهم ولا في الحديث ما يوجب تخصيصهم بل قد أخبر الله أنه يأتي بغير أهل اليمن كأبناء فارس لا يختص الوعد بهم بل قد قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وهذا أيضاً خطاب لكل قرن وقد أخبر فيه أنه من نكل عن الجهاد المأمور به عذبه واستبدل به من يقوم بالجهاد وهذا هو الواقع وكذلك قوله في الآية الأخرى : ﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟

﴿أَمْثَـٰلَكُم﴾ فقد أخبر تعالى : أنه من يتولى عن الجهاد بنفسه أو عن الإنفاق في سبيل الله استبدل به فهذا حال الجبان البخيل يستبدل الله به من ينصر الإسلام وينفق فيه ، فكيف تكون حال أهل الإسلام من ارتد عنه أتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم وهذا موجود في أهل العلم والعبادة والقتال والمال مع الطوائف الأربعة مؤمنون مجاهدون منصُورون إلى قيام الساعة كما منهم من يرتد أو من ينكل عن الجهاد والإنفاق وكذلك قوله تعالى : ﴿ **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾ فهذا الوعد مناسب لكل من اتصف بهذا الوصف فلما اتصف به الأولون استخلفهم الله كما وعد وقد اتصف بعدهم به قوم بحسب إيمانهم وعملهم الصالح ممن كان أكمل إيمانا وعمل صالحاً كان استخلافه المذكور أتم فإن كان فيه نقص وخلل كان في تمكينه خلل ونقص وذلك أن هذا جزاء هذا العمل ، فمن قام بذلك العمل استحق ذلك الجزاء لكن ما بقي قرن مثل القرن الأول قال صلى الله عليه وسلم : « **خير القرون القرن الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم** » ولكن قد يكون هذا لبعض أهل القرن كما يحصل هذا لبعض المسلمين في بعض الجهات كما هو معروف في كل زمان .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « **إن الله يبعث ريحاً تقبض روح كل مؤمن** » فذاك ليس فيه رد بل فيه موت المؤمنين وهو لم يقل إذا مات كل مؤمن أن يستبدل الله في موضعه آخر وإنما وعد بهذا إذا ارتد بعضهم عن دينه وهو مما يستدل به على أن الأمة لا تجتمع على ضلالة ولا ترتد جميعها ، بل لابد أن يبقى الله من المؤمنين من هو ظاهر إلى قيام الساعة ، فإذا مات كل مؤمن فقد جاءت الساعة ، وهذا كما في حديث العلم : « **إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا** » والحديث مشهور في الصحاح من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم .

● فإن قيل : ففي حديث ابن مسعود وغيره أنه قال : « **يسرى على القرآن فلا يبقى في المصاحف منه آية ولا في الصدور منه آية** » وهذا يناقض هذا .

● **قيل** : ليس كذلك فإن قبض العلم ليس قبض القرآن بدليل الحديث الآخر : « **هذا وإن يقبض العلم** » فقال بعض الأنصار : وكيف يقبض وقد قرأنا القرآن وأقرأناه نساءنا وأبناءنا فقال : **ثكلتك أمك إن كنت لأحسبك لمن أفقه أهل المدينة أوليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا يغني عنهم** » .

فتبين أن مجرد بقاء حفظ الكتاب لا يوجب هذا العلم . لا سيما فإن القرآن يقرأه المنافق والمؤمن ويقرأه الأمي الذي لا يعلم الكتاب إلا أماني .

وقد قال الحسن البصري : العلم علمان علم في القلب وعلم على اللسان فعلم القلب هو العلم النافع وعلم اللسان حجة الله على عباده فإذا قبض الله العلماء بقى من يقرأ القرآن بلا علم فيسرى عليه من المصاحف والصدور .

● **فإن قيل** : ففي حديث حذيفة الذي في الصحيحين أنه حدثهم عن قبض الأمانة « **وأن الرجل ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك فتراه منتبراً وليس فيه شيء** » .

● **قيل** : وقبض الأمانة والإيمان ليس قبض العلم فإن الإنسان قد يؤتى إيماناً مع نقص علمه فمثل هذا الإيمان قد يرفع من صدره كإيمان بني إسرائيل لما رأو العجل ، وأما من أوتي العلم مع الإيمان فهذا لا يرفع من صدره ، ومثل هذا لا يرتد عن الإسلام قط بخلاف مجرد القرآن أو مجرد الإيمان فإن هذا قد يرفع فهذا هو الواقع .

لكن أكثر ما نجد الردة فيمن عنده قرآن بلا علم وإيمان أو من عنده إيمان بلا علم وقرآن فأما من أوتي القرآن والإيمان فحصل فيه العلم فهذا لا يرفع من صدره والله أعلم اهـ .

○ أربع القواعد ○

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب

قدس الله روحه ونور ضريحه



○ بسم الله الرحمن الرحيم ○

أسأل الله الكريمَ ربَ العرش العظيم أن يتولاك في الدنيا والآخرة ، وأن يجعلك مباركاً أينما كنتَ ، وأن يجعلك ممن إذا أعطى شكر وإذا ابتلي صبَر ، وإذا أذنب استغفر فإن هذه الثلاث عُنوان السعادة .

اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته فاعلم أن العبادة لا تسمّى عبادة إلا مع التوحيد كما أن الصلاة لا تسمّى صلاة إلّا مع الطّهارة ، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدتْ كالحَدثِ إذا دخل في الطهارة ، فإذا عرفتَ أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وَصار صاحبُه من الخالدين في النار ، عرفتَ أن أهم ما عليك معرفةُ ذلك لعل الله أن يخلّصك من هذه الشبكة وهي الشركُ بالله الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله في كتابه .

○ القاعدة الأولى ○

أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مقرُّون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المدبرُ وأن ذلك لم يدخلهم في الإسلام والدليل قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

○ القاعدة الثانية ○

أنهم يقولون : ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة فدليل القربة قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ ، ودليل الشفاعة قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ الآية .

والشفاعة شفاعتان شفاعةٌ منفيّة وشفاعة مثبتةٌ فالشفاعة المنفية ما كانت تُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله والدليل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ والشفاعة المثبتة هي التي تطلب من الله والشافع مكرم بالشفاعة والمشفوع له من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن كما قال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ .

○ القاعدة الثالثة ○

أن النبي صلى الله عليه وسلم ظهر على أناس متفرقين في عباداتهم ، منهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين ، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار ، ومنهم من يعبد الشمس والقمر ، وقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يفرق بينهم والدليل قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ ودليل الشمس والقمر قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ودليل الملائكة قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ الآية ودليل الأنبياء قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ الآية ودليل الصالحين قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ

إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ ودليل الأشجار والأحجار قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ الآية وحديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال : خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات الحديث .

○ القاعدة الرابعة ○

أن مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأولين لأن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة ومشركو زماننا شركهم دائم في الرخاء والشدّة والدليل قوله : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه .

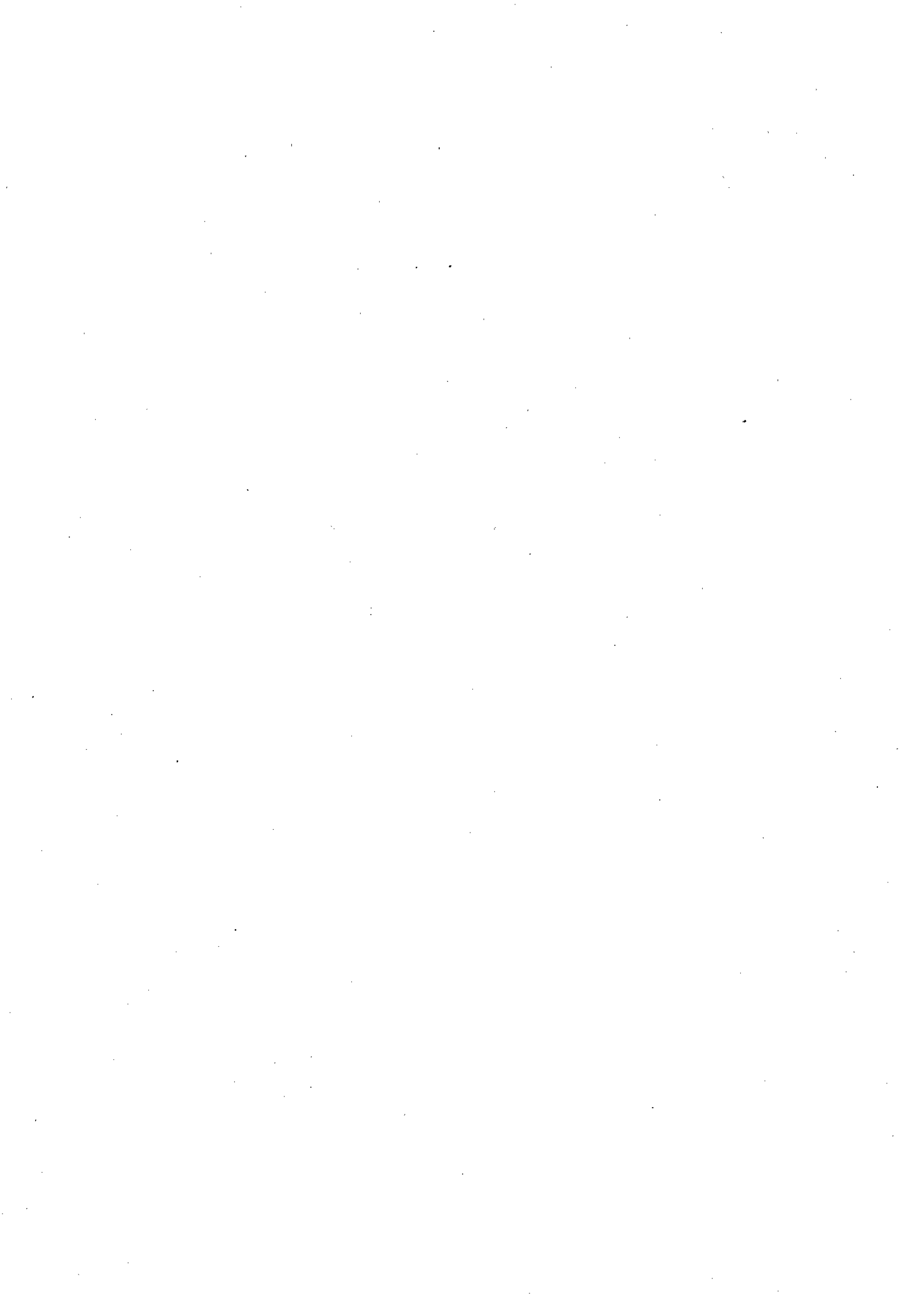


○ كشف الشبهات ○

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب

رحمه الله تعالى



○ بسم الله الرحمن الرحيم ○

اعلم رحمك الله أن التوحيد هو إفراد الله سبحانه بالعبادة وهو دين الرسل الذين أرسلهم الله به إلى عباده فأولهم نوحٌ عليه السلام ، أرسله الله إلى قومه لما غلوْا في الصالحين ودٍ وسواعٍ ويغوث ويعوق ونسرٍ ، وآخر الرسل محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذي كسرَ صُورَ هؤلاء الصالحين أرسله الله إلى قوم يتعبدون ويحجون ويتصدقون ، ويذكرون الله كثيراً ، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقين وسائط بينهم وبين الله يقولون : نريدُ منهم التّقرب إلى الله ونريد شفاعتهم عنده مثل الملائكةَ وعيسى بن مريم وأناس غيرهم من الصالحين ، فبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم يجددُ لهم دينَ أبيهم إبراهيم ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حقّ الله لا يصلح منه شيء لا لِملكٍ مقرب ولا لنبي مرسل فضلاً عن غيرهما . وإلا فهؤلاء المشركون مقرون يشهدون أن الله هو الخالق الرازق وحده لا شريك لِه وأنه لا يرزق إلا هو ، ولا يحيي إلا هو ، ولا يميت إلا هو ، ولا يدبر الأمر إلا هو ، وأن جميع السموات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيها كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره،فإذ أردت الدليل على أن هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهدون للّهِ هذه الشهادة فاقرأ قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ وقوله : ﴿ لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ وغير ذلك من الأيات فإذا تحققت أنهم مقرون بهذا و لم يدخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه

هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد كما كانوا يدعون الله ليلاً ونهاراً ، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله ليشفعوا له أو يدعون رجلاً صالحاً مثل اللات أو نبياً مثل عيسى وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلهم على هذا الشرك ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ ﴾ وتحققت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما قاتلهم ليكون الدعاء كله لله والنذر كله لله والذبح كله لله ، والاستغاثة كلها بالله ، وجميع أنواع العبادة كلها لله وعرفتَ أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام ، وأن قصدهم الملائكة والأنبياء يريدون شفاعتهم ، والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلَّ دماءهم وأموالهم ، عرفت حينئذ التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون ، وهذا التوحيد هو معنى قولك لا إله إلا الله ، فإن الإله عندهم هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور سواء كان مَلكاً أو نبياً أو ولياً أو شجرة أو قبراً أو جنياً لم يريدوا أن الإله هو الخالق الرازق المدبر فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قدمت لك وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ السيد ، فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى كلمة التوحيد ، وهي لا إله إلا الله والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها ، والكفار الجهال يعلمون أن مراد النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الكلمة هو إفرادُ الله تعالى بالتعلق ، والكفر بما يعبد من دون الله ، والبراءة منه فإنه لما قال لهم : قولوا لا إله إلا الله قالوا : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ .

فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك فالعجب ممن يَدَّعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفرة ؛ بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني ، والحاذق منهم يظن أن معناه لا يخلق ولا يرزق ولا يدبر الأمر إلا الله فلا خير في رجلٍ جهالُ الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله إذا عرفتَ ما قلتُ لك معرفة قلب وعرفت

الشرك بالله الذي قال الله فيه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، وعرفت دين الله الذي أرسل به الرسل من أولهم إلى آخرهم الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه ، وعرفت ما أصبح غالب الناس فيه من الجهل بهذا أفادك فائدتين :

○ (الأولى): الفرح بفضل الله ورحمته كما قال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وأفادك (أيضاً) الخوف العظيم فإنك إذا عرفت أن الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه ، وهو قد يقولها وهو جاهل فلا يعذر بالجهل ، وقد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله تعالى كما كان يظن المشركون خصوصاً إن ألهمك الله ما قص عن قوم موسى مع صلاحهم وعلمهم أنهم أتوه قائلين : ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ فحينئذ يعظم حرصك وخوفك على ما يخلصك من هذا وأمثاله .

واعلم أن الله سبحانه من حكمته لم يبعث نبياً بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة وكتب وحجج كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ إذا عرفتَ ذلك وعرفتَ أن الطريق إلى الله لابد له من أعداء قاعدين عليه أهل فصاحة وعلم وحجج ، فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير لك سلاحاً تقاتل به هؤلاء الشياطين الذين قال إمامهم ومقدمهم لربك عز وجل : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ ولكن إذا أقبلت على الله وأصغيت إلى حججه وبيناته فلا تخف ولا تحزن : ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ والعامي من الموحدين يغلب الفاً من علماء هؤلاء المشركين قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ فجند الله

هم الغالبون بالحجة واللسان كما هم الغالبون بالسيف والسنان ، وإنما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح وقد منَّ اللّهُ تعالى علينا بكتابه الذي جعله : ﴿ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ فلا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القرآن ما يناقضها ويبين بطلانها كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ .

قال بعض المفسرين : هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة وأنا أذكر لك اشياء مما ذكر الله في كتابه جواباً لكلام احتج به المشركون في زماننا علينا فنقول :

جواب أهل الباطل من طريقين مجمل ومفصل :

● (**أما المجمل**) : فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها وذلك قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ .

وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم** » .

مثال ذلك : إذا قال بعض المشركين : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أو أن الشفاعة حق وأن الأنبياء لهم جاه عند الله أو ذكر كلاماً للنبي صلى الله عليه وسلم يستدل به على شيء من باطله ، وأنت لا تعلم معنى الكلام الذي ذكره فجاوبه بقولك : إن الله ذكر في كتابه أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه وما ذكرته لك من أن الله تعالى ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية ، وأنه كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله هذا أمر محكم بيِّن لا يقدر أحد أن يغير معناه وما ذكرتَه لي أيها المشرك من القرآن أو كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أعرف معناه ، ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض وأن كلام النبي

صلى الله عليه وسلم لا يخالف كلام الله عز وجل وهذا جواب جيد سديد، ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله تعالى فلا تستهن به فإنه كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾.

● وأما (**الجواب المفصل**) فإن أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة على دين الرسل ويصدون بها الناس عنه.

● (**منها**) قولهم: نحن لا نشرك بالله بل نشهد أنه لا يخلق ولا يرزق ولا ينفع ولا يضر إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن عبد القادر أو غيره، ولكن انا مذنب والصالحون لهم جاه عند الله، وأطلب من الله بهم.

● **فجوابه**: بما تقدم وهو أن الذين قاتلهم رسول صلى الله عليه وسلم مقرون بما ذكرت ومقرون أن أوثانهم لا تدبر شيئاً وإنما ارادوا الجاه والشفاعة واقرأ عليه ما ذكره الله في كتابه ووضحه.

● **فإن قال هؤلاء**: الآيات نزلت فيمن يعبد الأصنام كيف تجعلون الصالحين مثل الأصنام أم كيف تجعلون الأنبياء أصناماً.

● **فجاوبه** بما تقدم فإنه إذا أقر أن الكفار يشهدون بالربوبية كلها لله وأنهم ما أرادوا ممن قصدوا إلا الشفاعة، ولكن أراد أن يفرق بين فعلهم وفعله بما ذكر فإذكر له أن الكفار منهم من يدعو الأصنام ومنهم من يدعو الأولياء الذين قال الله فيهم: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ الآية ويدعون عيسى بن مريم وأمه وقد قال تعالى: ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ واذكر له قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ وقوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ .

فقل له : عرفت أن الله كفر من قصد الأصنام وكفر أيضاً من قصد الصالحين وقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

● **فإن قال** الكفار يريدون منهم ، وأنا أشهد أن الله هو النافع الضار المدبر لا أريد إلا منه . والصالحون ليس لهم من الأمر شيء ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم .

● **فالجواب** أن هذا قول الكفار سواء بسواء واقرأ عليه قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ .

واعلم أن هذه الشبه الثلاث هي أكبر ما عندهم فإذا عرفت أن الله وضحها في كتابه وفهمتها فهما جيداً فما بعدها أيسر منها ، فإن قال أنا لا أعبد إلا الله وهذا الالتجاء إليهم ودعاؤهم ليس عبادة فقل له : أنت تقرّ أن الله افترض عليك إخلاص العبادة لله وهو حقه عليك فإنه لا يعرف العبادة ولا أنواعها فبينها له بقولك قال الله تعالى : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ .

● فإذا أعلمته بهذا فقل له : هل علمت هذا عبادة لله فلابد أن يقول : نعم والدعاء مخ العبادة .

● **فقل له** : إذا أقررت أنها عبادة ودعوت الله ليلاً ونهاراً خوفاً وطمعاً ثم دعوت في تلك الحاجة نبياً أو غيره هل أشركت في عبادة الله غيره ؟ فلابد أن يقول : نعم .

فإذا عملت بقول الله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ وأطعت الله ونحرت له هل هذه عبادة ؟ فلابد أن يقول : نعم .

● **فقل له** : إذا نحرت لمخلوق نبي أو جني أو غيرهما هل أشركت في هذه العبادة غير الله ؟ فلابد أن يقر ويقول : نعم .

● **وقل له أيضاً** : المشركون الذين نزل فيهم القرآن هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك ؟ فلابد أن يقول : نعم فقل له : وهل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك وإلا فهم مقرُّون أنهم عبيده وتحت قهره وأن الله هو الذي يدبر الأمر ولكن دعوهم والتجأوا إليهم للجاه والشفاعة وهذا ظاهر جداً ؟

● **فإن قال** : أتنكر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ منها ؟

● **فقل** : لا أنكرها ولا أتبرأ منها ؛ بل هو صلى الله عليه وسلم الشافع المشفع وأرجو شفاعته ، ولكن الشفاعة كلها لله تعالى كما قال تعالى : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ ولا تكون إلا من بعد إذن الله كما قال تعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ ولا يشفع النبي صلى الله عليه وسلم في أحد إلا من بعد أن يأذن الله فيه كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ فإذا كانت الشفاعة كلها لله ولا تكون إلا من بعد إذنه ولا يشفع النبي صلى الله عليه وسلم ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه ولا يأذن الله تعالى إلا لأهل التوحيد ، تبين لك أن الشفاعة كلها لله واطلبها منه فأقول : اللهم لا تحرمني شفاعته ، اللهم شفِّعْه فيَّ ، وأمثال هذا .

● **فإن قال** : النبي صلى الله عليه وسلم : أعطي الشفاعة وأنا أطلبه مما أعطاه الله تعالى .

● **فالجواب** : أن الله أعطاه الشفاعة ونهاك عن هذا فقال تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ فإذا كنت تدعو الله أن نبيه يُشفَع فيك فأطعه في قوله :

﴿ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ وأيضاً فإن الشفاعة أعطيها غير النبي صلى الله عليه وسلم فصح أن الملائكة يشفعون ، والأفراط يشفعون ، والأولياء يشفعون أتقول : أن الله أعطاهم الشفاعة فأطلبها منهم ، فإن قلت هذا رجعت إلى عباة الصالحين التي ذكرها الله تعالى في كتابه ، وإن قلت : لا بطل قولك أعطاه الله الشفاعة وأنا أطلبه مما أعطاه الله .

● **فإن قال** : أنا لا أشرك بالله شيئاً حاشا وكلا ولكن الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك ، فقل له إذا كنت تقر أن الله حرم الشرك أعظم من تحريم الزنا ، وتقر أن الله لا يغفره فما هذا الأمر الذي حرمه الله وذكر أنه لا يغفره فإنه لا يدري فقل له كيف تبريء نفسك من الشرك وأنت لا تعرفه كيف يحرم الله عليك هذا ويذكر أنه لا يغفره ، ولا تسأل عنه ، ولا تعرفه ، أتظن أن الله يحرمه ولا يبينه لنا ؟ .

● **فإن قال** : الشرك عبادة الأصنام أتظن أنهم يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها فهذا يكذبه القرآن وإن قال : هو من قصد خشبة أو حجراً أو بنية أو قبراً أو غيره يدعون ذلك ويذبحون له يقولون : إنه يقربنا إلى الله زلفى ويدفع عنا ببركته أو يعطينا ببركته فقل صدقت وهذا هو فعلكم عند الأشجار والأحجار والأبنية التي على القبور وغيرها فهذا أقر أن فعلهم هذا هو عبادة الأصنام فهو المطلوب .

● **ويقال له أيضاً** : قولك الشرك هو عبادة الأصنام هل مرادك أن الشرك مخصوص بهذا وأن الاعتماد على الصالحين ودعاءهم لا يدخل في ذلك ، فهذا يرده ما ذكره الله في كتابه من كفر من تعلق على الملائكة أو عيسى أو الصالحين ، فلابد أن يقرّ لك أن من أشرك في عبادة الله أحداً من الصالحين فهذا هو الشرك المذكور في القرآن ، وهذا هو المطلوب .

وسرّ المسألة أنه إذا قال : أنا لا أشرك بالله . فقل له : وما الشرك بالله فسره لي فإن قال : هو عبادة الأصنام فقل وما معنى عبادة الأصنام فسرها لي

فإن قال : أنا لا أعبد إلاّ الله فقل ما معنى عبادة الله فسرها لي فإن فسرها بما بينه القرآن فهو المطلوب وإن لم يعرفه فكيف يدعي شيئاً ، وهو لا يعْرفه وإن فسر ذلك بغير معناه بينت له الآيات الواضحات في معنى الشرك بالله وعبادة الأوثان أنه الذي يفعلونه في هذا الزمان بعينه وأن عبادة الله وحده لا شريك له هي التي ينكرون علينا ويصيحون فيه كما صاح إخوانهم حيث قالوا : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ .

فإذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد هو الشرك الذي نزل فيه القرآن ، وقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عليه ، فاعلم أن شرك الأولين أخفّ من شرك أهل زماننا بأمرين :

○ (**أحدهما**) : أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلا في الرخاء وأما في الشدة فيخلصون لله الدين كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ .

فمن فهم هذه المسألة التي وضحها الله في كتابه وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعون الله تعالى ، ويدعون غيره في الرخاء ، وأما في الضرر والشدة فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له وينسون ساداتهم ، تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين ، ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهماً راسخاً والله المستعان .

○ (**والأمر الثاني**) : أن الأولين يدعون مع الله أناساً مقربين عند الله إما

أنبياء ، وإما أولياء ، وإما ملائكة ، أو يدعون أحجاراً أو أشجاراً مطيعة لله ليّست عاصية ، وأهل زماننا يدعون مع الله أناساً من أفسق الناس والذين يدعونهم هم يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة ، وترك الصلاة وغير ذلك ، والذي يعتقد في الصالح أو الذي لا يعصي مثل الخشب والحجر أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويشهد به .

● إذا تحققت أن الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصلح عقولاً وأخف شركاً من هؤلاء فاعلم أن لهؤلاء شبهة يوردونها على ما ذكرنا وهي من أعظم شبهم فأصغ سمعك لجوابها وهي أنهم يقولون : إن الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أن لا إله إلا الله ويكذبون الرسول صلى الله عليه وسلم وينكرون البعث ، ويكذبون القرآن ، ويجعلونه سحراً ، ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ونصدق القرآن ، ونؤمن بالبعث ، ونصلي ونصوم ، فكيف تجعلوننا مثل أولئك .

● **فالجواب** : لا خلاف بين العلماء كلهم أن الرجل إذا صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء وكذبه في شيء أنه كافر لم يدخل في الإسلام ، وكذلك إذا آمن ببعض القرآن وجحد بعضه كمن أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة ، أو أقر بالتوحيد والصلاة وجحد وجوب الزكاة ، أو أقر بهذا كله وجحد الصوم ، أو أقر بهذا كله وجحد الحج ، ولما لم ينْقد أُناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم للحج أنزل في حقهم : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ، ومن أقر بهذا كله وجحد البعث كفر بالإجماع وحل دمه وماله كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ .

فإذا كان الله قد صرح في كتابه أن من آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقاً زالت هذه الشبهة وهذه هي التي ذكرها بعض أهل الأحساء في كتابه الذي

أرسله إلينا .

● **ويقال أيضاً** : إذا كنت تقر أن من صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في كل شيء وجحد وجوب الصلاة فهو كافر حلال الدم والمال بالإجماع ، وكذلك إذا أقر بكل شيء إلا البعث وكذلك لو جحد وجوب صوم رمضان وكذب بذلك كله لا يجحد هذا ولا تختلف المذاهب فيه وقد نطق به القرآن كما قدمنا ، فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم هو أعظم من الصلاة والزكاة والصوم والحج ، فكيف إذا جحد الإنسان شيئاً من هذه الأمور كفر ، ولو عمل بكلِ ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا جحد التوحيد الذي هو دين الرسل كلهم لا يكفر سبحان الله ! ما أعجب هذا الجهل .

● **ويقال أيضاً** : هؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلوا بني حنيفة ، وقد أسلموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويؤذنون ويصلون ، فإن قال إنهم يقولون أن مسيلمة نبي ، قلنا : هذا هو المطلوب إذا كان من رفع رجلاً في رتبة النبي صلى الله عليه وسلم كفر وحل ماله ودمه ولم تنفعه الشهادتان ولا الصلاة فكيف لمن رفع شمسان أو يوسف أو صحابياً أو نبياً في رتبة جبار السموات والأرض سبحان الله ما أعظم شأنه : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

● **ويقال أيضاً** : الذين حرقهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنار كلهم يدعون الإسلام وهم من أصحاب علي رضي الله عنه وتعلموا العلم من الصحابة ، ولكن اعتقدوا في علي مثل الاعتقاد في يوسف وشمسان ، وأمثالهما ، فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكفرهم ؟ أتظنون أن الصحابة يكفرون المسلمين أتظنون أن الاعتقاد في تاج وأمثاله لا يضر والاعتقاد في علي بن أبي طالب يكفر ، ويقال أيضاً بنو عبيد القداح الذين ملكوا المغرب ومصر زمن بني العباس كلهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويدعون الإسلام ويصلون الجمعة

والجماعة ، فلما أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم وأن بلادهم بلاد حرب ، وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلاد المسلمين .

● **ويقال أيضاً** : إذا كان الأولون لم يكفروا إلا أنهم جمعوا بين الشرك وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ، والقرآن وإنكار البعث ، وغير ذلك فما معنى الباب الذي ذكر العلماء في كل مذهب (باب حكم المرتد) ، وهو المسلم يكفر بعد إسلامه ثم ذكروا أنواعاً كثيرة كل نوع منها يكفّر ويحل دم الرجل وماله حتى إنهم ذكروا أشياء يسيرة عند من فعلها مثل كلمة يذكرها بلسانه دون قلبه أو يذكرها على وجه المزح واللعب .

ويقال أيضاً : الذين قال الله فيهم : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ ﴾ أما سمعت الله كفرهم بكلمة مع كونهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويجاهدون معه ، ويصلون معه ويزكون ، ويحجون ، ويوحدون ، وكذلك الذين قال الله فيهم : ﴿ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ فهؤلاء الذين صرح الله أنهم كفروا بعد إيمانهم ، وهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، قالوا كلمة ذكروا أنهم قالوها على وجه المزح فتأمل هذه الشبهة ، وهي قولهم تكفرون المسلمين أناساً يشهدون أن لا إله إلا الله ويصلّون ويصومون ثم تأمل جوابها فإنه من أنفع ما في هذه الأوراق .

ومن الدليل على ذلك أيضاً ما حكى الله تعالى عن بني إسرائيل مع صلاحهم وعلمهم أنهم قالوا لموسى :﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ وقول أناس من أصحابه اجعل لنا ذات أنواط فحلف النبي صلى الله عليه وسلم أن مثل هذا قول بني اسرائيل لموسى : ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا ﴾ .

● ولكن للمشركين شبهة يُدلون بها عند هذه وهي أنهم يقولون : إن بني إسرائيل لم يكفروا بذلك وكذلك الذين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : اجعل

لنا ذاتَ أنواط لم يكفروا .

● **فالجواب** أن تقول : إن بني إسرائيل لم يفعلوا وكذلك الذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم لم يفعلوا ولا خلاف أن بني إسرائيل لو فعلوا ذلك لكفروا وكذلك لا خلاف أن الذين نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم لو لم يطيعوه واتخذوا ذات أنواط بعد نهيه لكفروا . هذا هو المطلوب .

ولكن هذه القصة تفيد أن المسلم بل العالم قد يقع في أنواع من الشرك لا يدري عنها فتفيد التعلم والتحرز ومعرفة أن قول جهال التوحيد : التوحيد فهمناه ، إن هذا من أكبر الجهل ومكائد الشيطان ، وتفيد أيضاً أن المسلم المجتهد إذا تكلم بكلام كفر وهو لا يدري فنبه على ذلك وتاب من ساعته أنه لا يكفر ، كما فعل بنو إسرائيل والذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم .

● **ولهم شبهة أخرى** يقولون : إن النبي صلى الله عليه وسلم أنكر على أسامة قتل من قال : لا إله إلا الله وقال : « **أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله** » وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « **أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله** » وأحاديثُ أُخرى في الكف عن من قالها ومراد هؤلاء الجهلة أن من قالها : لا يكفرُ ولا يقتل ولو فعل ما فعل .

● **فيقال** لهؤلاء المشركين الجهال : معلوم أن رسول الله قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون : لا إله إلا الله ، وأن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إله لا الله وأن محمداً رسول الله ويصلون ويدعون الإسلام ، وكذلك الذين حرقهم علي بن أبي طالب وهؤلاء الجهلة مقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال : لا إله إلا الله و أن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قال : لا إله إلا الله فكيف لا تنفعه إذا جحد شيئاً من الفروع وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه ولكن أعداء الله ما فهموا الأحاديث .

فإما حديث أُسامة فإنه قتل رجلاً ادعى الإسلام بسبب أنه ظن أنه ما

ادعاه إلا خوفاً على دمه وماله ، والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك : وأنزل الله في ذلك : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ أي فتثبتوا فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت ، فإن تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل لقوله : ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى وكذلك الحديث الآخر وأمثاله معناه ما ذكرناه أن من أظهر الإسلام والتوحيد وجب الكف عنه إلا إن تبين منه ما يناقض ذلك والدليل على هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال : **أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله** وقال : **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله** هو الذي قال في الخوارج : « **أينما لقيتموهم فاقتلوهم لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد** » مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً حتى إن الصحابة يحقرون أنفسهم عندهم وهم تعلموا العلم من الصحابة فلم تنفعهم لا إله إلا الله ولا كثرة العبادة ولا ادعاء الإسلام ، لما ظهر منهم مخالفة الشريعة كذلك ما ذكرناه من قتال اليهود وقتال الصحابة بني حنيفة ، وكذلك أراد صلى الله عليه وسلم أن يغزو بني المصطلق لما أخبره رجل أنهم منعوا الزكاة حتى أنزل الله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ وكان الرجل كاذباً عليهم فكل هذا يدل على أن مراد النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث ما ذكرناه.

○ **ولهم شبهة أخرى** وهي ما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم ثم بنوح ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى فكلهم يعتذر حتى ينتهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : فهذا يدل على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركاً .

● **فالجواب** أن نقول : سبحان من طبع على قلوب أعدائه فإن الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه لا ننكرها كما قال تعالى في قصة موسى : ﴿فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب وغيرها من الأشياء التي يقدر عليها المخلوق ، ونحن أنكرنا استغاثة العبادة

التي يفعلونها عند قبور الأولياء أو في غيبتهم في الأشياء التى لايقدر عليها إلا الله ، إذا ثبت ذلك فالاستغاثة بالأنبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعوا الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف ، وهذا جائز في الدنيا والآخرة أن تأتي عند رجل حيٍّ يجالسك ويسمع كلامك وتقول له : أدعوا الله لي كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه ذلك في حياته وأما بعد موته فحاشا وكلا أنهم سألوه ذلك عند قبره ، بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره ، فكيف دعاؤه نفسه .

● **ولهم شبهة أخرى** وهي قصة إبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النار اعترض له جبريل في الهواء فقال : ألك حاجة فقال إبراهيم عليه السلام : أما إليك فلا قالوا : فلو كانت الاستغاثة بجبريل شركاً لم يعرضها على إبراهيم .

● **فالجواب** : أن هذا من جنس الشبهة الأولى فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه فإنه كما قال تعالى فيه : ﴿ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ فلو أذن الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولها من الأرض والجبال ويلقيها في المشرق أو المغرب لفعل ولو أمره أن يضع إبراهيم عليه السلام في مكان بعيد عنهم لفعل ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعل ، وهذا كرجل غني له مال كثير يرى رجلاً محتاجاً فيعرض عليه أن يقرضه أو أن يهبه شيئاً يقضي به حاجته فيأبى ذلك الرجل المحتاج أن يأخذ ويصبر حتى يأتيه الله برزق لا مِنّة فيه لأحد فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون .

ولنختم الكلام إن شاء الله تعالى بمسألة عظيمة مهمة جداً تفهم مما تقدم ، ولكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها ولكثرة الغلط فيها فنقول :

لا خلاف أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل ، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً ، فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما ، وهذا يغلط فيه كثير من الناس يقولون : هذا حق ونحن نفهم هذا ونشهد أنه الحق ولكن لا نقدر أن نفعله ، و يجوز عند

س بلدنا إلا من وافقهم وغير ذلك من الأعذار ولم يدر المسكين أن غالب أئمة الكفر يعرفون الحق ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار كما قال تعالى : ﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ وغير ذلك من الآيات كقوله : ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهراً وهو لا يفهمه ولا يعتقده بقلبه فهو منافق وهو شر من الكافر الخالص : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ .

وهذه المسألة مسألة كبيرة طويلة تُبيِّن لك إذا تأملتَها في ألسِنةِ الناس ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقص دنيا أو جاه أو مداراة وترى من يعمل به ظاهراً لا باطناً فإذا سألته عما يعتقد بقلبه فإذا هو لا يعرفه ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله أولاهما ما تقدم من قوله : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه المزح واللعب تبين لك أن الذي يتكلم بالكفر أو يعمل به خوفاً من نقص مال أو جاه أو مداراة لأحد أعظم ممن تكلم بكلمة يمزح بها . والآية الثانية قوله تعالى :﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه سواء فعله خوفاً أو مداراة أو مشحة بوطنه أو عشرته أو ماله أو فعل على وجه المزح أو لغير ذلك من الأغراض إلا المكره والآية تدل على هذا من جهتين :

○ (**الأولى**) قوله :﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ فلم يستثن الله إلا المكره ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على العمل أو الكلام وأما عقيدة القلب فلا يكره أحد عليها .

○ (**والثانية**) قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر وإنما سببه أن له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا فآثره على الدين والله سبحانه وتعالى أعلم .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

○ ثلاثة الأصول وأدلتها ○

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب

رحمه الله تعالى



○ بسم الله الرحمن الرحيم ○

اعلم رحمك الله أنه يجبُ علينا تعلمُ أربع مسائل :

○ (**الأولى**) : العلمُ وهو معرفةُ الله : ومعرفةُ نبيه ومعرفة دين الإسلام بالأدلةِ .

○ (**الثانية**) : العملُ به .

○ (**الثالثة**) : الدعوة إليه .

○ (**الرابعة**) : الصبرُ على الأذى فيه .

والدليلُ قوله تعالى : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ .

قال الشافعي رحمه الله تعالى : لو ما أنزلَ الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم .

وقال البخاريُّ رحمه الله تعالى : (باب) العلمُ قبلَ القولِ والعملِ والدليلُ قوله تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ فبدأ بالعلم قبل القول والعمل .

اعلم رحمك الله أنه يجبُ على كلِ مسلم ومسلمةٍ تعلّم ثلاث هذه المسائل والعملُ بهن .

○ (**الأولى**) : أن الله خلقنا ورزقنا و لم يتركنا هملاً ، بل أرسل إلينا رسولاً فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار ، والدليل قوله تعالى :﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ .

○ (**الثانية**) : أن الله لا يرضى أن يُشركَ معه في عبادته أحد لا ملكٌ مقربٌ ولا نبيّ مُرسَلٌ ، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ .

○ (**الثالثة**) : أن من أطاعَ الرسولَ وَوحد اللّهَ لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله ولو كان أقربَ قريب ، والدليل قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ومعنى يعبدون يوحدّون وأعظم ما أمر الله به التوحيد وهو إفراد الله بالعبادة . وأعظم ما نهى عنه الشرك وهو دعوة غيره معه والدليل قوله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ .

● **فإذا قيل لك** : ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها ، فقل : معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمداً صلى الله عليه وسلم .

فإذا قيل لك : من ربك ، فقل : ربي الله الذي ربّاني وربى جميع العالمين بنعمته ، وهو معبودي ليس لي معبود سِواه ، والدليل قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وكل من سوى الله عالَم وأنا واحد من ذلك العالم .

● **فإذا قيل لك** : بم عرفت ربك ؟ فقل : بآياته ومخلوقاته ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ومن مخلوقاته السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهما ، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى

سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ والرب هو المعبود والدليل قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

قال ابن كثير رحمه الله : الخالق لهذه الأشياء والمستحق للعبادة وأنواع العبادة التي أمر الله بها مِثْل الإسلام والإيمان والإحسان ومنه الدعاء والخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرهبة والخشوع والخشية والإنابة والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذبح والنذر وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها لله تعالى . والدليل قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ .

فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر ، والدليل قوله تعالى : ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ .

وفي الحديث : « **الدعاء مخ العبادة** » والدليل قوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ودليل الخوف قوله تعالى : ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ودليل الرجا قوله تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ ودليل التوكل قوله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وقوله : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ ودليل الرغبة والرهبة والخشوع قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ ودليل الخشية قوله تعالى : ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ ودليل الإنابة قوله تعالى : ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ الآية ودليل الاستعانة قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وفي الحديث : « **إذا استعنت فاستعن بالله** » . ودليل

الاستعاذة قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ودليل الاستغاثة قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ الآية ودليل الذبح قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ﴾ ومن السنة « **لعن الله من ذبح لغير الله** » ودليل النذر قوله تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ .

○ الأصل الثاني ○

● **معرفة دين الإسلام بالأدلة** ، وهو الاستسلام للّهِ بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والبراءة من الشرك وأهله ، وهو ثلاث مراتب الإسلام والإيمان والإحسان وكل مرتبة لها أركان فأركان الإسلام خمسة : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام . فدليل الشهادة قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ومعناها لا معبود بحق إلا الله وحدّ النفي من الإثبات لا إله نافياً جميع ما يُعبد من دون الله إلا الله مثبتاً لِعبادة الله وحده لا شريك له في عبادته ، كما أنه لا شريك له في ملكه وتغييرها الذي يوضحها قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ودليل شهادة أن محمداً رسول الله قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر وألا يعبد رب العالمين إلا بما شرع ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟

ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ ودليل الصيام قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ودليل الحج قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

○ المرتبة الثانية ○

● **الإيمان** : وهو بضع وسبعون شعبة فأعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذي عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان وأركانه ستة : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره .

والدليل على هذه الأركان الستة قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ ودليل القدر قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

○ المرتبة الثالثة ○

● **الإحسان** : ركن واحد وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . والدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ الآية .

والدليل من السنة حديث جبريل المشهور عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا رجل

شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد فجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال : يا محمد ، أخبرني عن الإسلام فقال : « **أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً** » . قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : قال : أخبرني عن الإيمان قال : « **أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره** » . قال : صدقت قال : أخبرني عن الإحسان قال : « **أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » . قال : أخبرني عن الساعة قال : « **ما المسؤول عنها بأعلم من السائل** » قال أخبرني عن أماراتها قال : « **أن تلد الأمة ربتها وأن تر الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان** » قال : فمضى فلبثنا مَلِياً فقال : « **يا عمر أتدرون من السائل** » قلنا الله ورسوله أعلم قال : « **هذا جبريل آتاكم يعلمكم أمر دينكم** » .

○ الأصل الثالث ○

● **معرفة نبيكم محمداً** وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم وهاشم من قريش ، وقريش من العرب ، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، وله من العمر ثلاث وستون سنة منها أربعون قبل النبوة وثلاث وعشرون نبياً رسولاً ، نُبئ (باقرأ) ، وأرسل (بالمدثر) ، وبلده مكة بعثه الله بالنذارة عن الشرك ، ويدعو إلى التوحيد والدليل قوله تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ قُمۡ فَأَنذِرۡ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ** ﴾ ومعنى ﴿ **قُمۡ فَأَنذِرۡ** ﴾ ينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد ﴿ **وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ** ﴾ عظمه بالتوحيد ﴿ **وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ** ﴾ أي طهر أعمالك عن الشرك ﴿ **وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ** ﴾ الرجز الأصنام وهجرها : تركها والبراءة منها وأهلها .

أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد ، وبعد العشر عرج به إلى السماء وفرضت عليه الصلوات الخمس ، وصلى في مكة ثلاث سنين ، وبعدها أمر بالهجرة إلى المدينة .

والهجرة الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام .

والهجرة فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام وهي باقية إلى قيام الساعة . والدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا . إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ وقوله : ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ .

قال البغوي رحمه الله : سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين في مكة لم يهاجروا ناداهم الله باسم الإيمان والدليل على الهجرة من السنة ، قوله صلى الله عليه وسلم : « **لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها** » . فلما استقر في المدينة أمر ببقية شرائع الإسلام مثل الزكاة والصوم والحج والآذان والجهاد وغير ذلك من شرائع الإسلام أخذ على هذا عشر سنين وتوفي صلاة الله وسلامه عليه ودينه باق وهذا دينه ، لا خير إلا دل الأمة عليه ولا شر إلا حذرها عنه ، والخير الذي دلها عليه التوحيد وجميع ما يحبه الله ويرضاه ، والشر الذي حذرها عنه الشرك وجميع ما يكرهه الله ويأباه ، بعثه الله إلى الناس كافة وافترض طاعته على جميع الثقلين الجن والإنس ، والدليل قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وكمل الله به الدين والدليل قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ والدليل على موته صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ والناس إذا ماتوا يبعثون والدليل قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا

نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ وبعد البعث محاسبون ومجزيون بأعمالهم والدليل قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ ومن كذب بالبعث كفر والدليل قوله تعالى : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين والدليل قوله تعالى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ وأولهم نوح عليه السلام وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وهو خاتم النبيين والدليل على أن أولهم نوح قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ وكل أمة بعث الله إليهم رسولاً من نوح إلى محمد يأمرهم بعبادة الله وحده وينهاهم عن عبادة الطاغوت والدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : معنى الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع . والطواغيت كثيرون ورءوسهم خمسة إبليس لعنه الله ، ومَن عبد وهو راض ، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه ، ومن ادعى شيئا من علم الغيب ، ومن حكم بغير ما أنزل الله والدليل قوله تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وهذا هو معنى لا إله إلا الله وفي الحديث « **رأس هذا الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله** » والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

○ شروط الصلاة ○

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب

رحمه الله تعالى

○ بسم الله الرحمن الرحيم ○

الإسلام ، والعقل ، والتمييز ، ورفع الحدث ، وإزالة النجاسة ، وستر العورة ، ودخول الوقت ، واستقبال القبلة ، والنية .

○ (**الشرط الأول**) : الإسلام وضده الكفر ، والكافر عمله مردود لو عمل أي عمل والدليل قوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** ﴾ .

○ (**الثاني**) : العقل وضده الجنون والمجنون مرفوع عنه القلم حتى يفيق والدليل الحديث « **رفع القلم عن ثلاثة النائم حتى يستيقظ والمجنون حتى يفيق والصغير حتى يبلغ** » .

○ (**الثالث**) : التمييز وضده الصغر وحدّه سبع سنين ثم يؤمر بالصلاة لقوله صلى الله عليه وسلم : « **مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع** » .

○ (**الشرط الرابع**) : رفع الحدث وهو الوضوء المعروف وموجبه الْحَدَث . وشروطه عشرة الإسلام والعقل والتمييز والنية واستصحاب حكمها بأن لا ينوي قطعها حتى تتم الطهارة وانقطاع موجب واستنجاء واستجمار قبله وطهورية ماء وإباحته وإزالة ما يمنع وصوله إلى البشرة ودخول وقت على مَن حدثه نائم لفرضه .

● **وأما فروضه فستة** : غسل الوجه ومنه المضمضة والاستنشاق وحدّه طولاً من منابت شعر الرأس إلى الذقن وعرضاً إلى فروع الأذنين ، وغسل اليدين إلى المرفقين ، ومسح جميع الرأس ومنه الأذنان ، وغسل الرجلين إلى الكعبين والترتيب

والموالاة والدليل قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ الآية ودليل الترتيب الحديث « **ابدأو بما بدأ الله به** » ودليل الموالاة حديث صاحب اللمعة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى رجلاً في قدمه لُمعة قدر الدرهم لم يُصبها الماء فأمره بالإعادة . وواجبه التسمية مع الذكر .

● **ونواقضه ثمانية** : الخارج من السبيلين ، والخارج الفاحش النجس من الجسد ، وزوال العقل ، ومس امرأة بشهوة ، ومس الفرج باليد ، قبلاً كان أو دبراً ، وأكل لحم الجزور وتغسيل الميت ، والردة عن الإسلام ، أعاذنا الله من ذلك .

○ (**الشرط الخامس**) : إزالة النجاسة من ثلاث من البدن والثوب والبقعة والدليل قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴾ .

○ (**الشرط السادس**) : ستر العورة . أجمع أهل العلم على فساد صلاة من صلى عرياناً وهو يقدر . وحد عورة الرجل من السرة إلى الركبة والأمة كذلك والحرة كلها عورة إلا وجهها . والدليل قوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ أي عند كل صلاة .

○ (**الشرط السابع**) : دخول الوقت والدليل من السنة حديث جبريل عليه السلام أنه أمَّ النبي صلى الله عليه وسلم في أوّل الوقت وفي آخره وقال : يا محمد الصلاة بين هذين الوقتين ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ أي مفروضاً في الأوقات ودليل الأوقات قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ .

○ (**الشرط الثامن**) : استقبال القبلة ، والدليل قوله تعالى : ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ ﴾ .

○ (**الشرط التاسع**) : النية ومحلها القلب والتّلفظ بها بدعة والدليل الحديث « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما نوى** » .

● **وأركان الصلاة أربعة عشر** : القيام مع القدرة ، وتكبيرة الإحرام ، وقراءة الفاتحة ، والركوع ، والرفع منه ، والسجود على الأعضاء السبعة ، والاعتدال منه ، والجلسة بين السجدتين ، والطمأنينة في جميع الأركان ، والترتيب ، والتشهد الأخير ، والجلوس له ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والتسليمتان .

○ (**الركن الأول**) : القيام مع القدرة والدليل قوله تعالى: ﴿ **وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ** ﴾ .

○ (**الثاني**) : تكبيرة الإحرام والدليل الحديث « **تحريمها التكبير وتحليلها التسليم** » . وبعدها الاستفتاح وهو سنة : قول سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك . ومعنى سبحانك اللهم أي أُنزِّهُكَ التَّنزِيه اللائق بجلالك وبحمدك أي ثناء عليك . وتبارك اسمك أي البركة تنال بذكرك . وتعالى جدُّكَ أي جلةّ عظمتك . ولا إلٰه غيرك أي لا معبود في الأرض ولا في السماء بحق سواك . يا الله أعوذ بالله من الشيطان الرجيم معنى أعوذ ألوذ والتجيء وأعتصم بك ياألّله من الشيطان الرجيم المطرود المبعد عن رحمة الله لا يضرني في ديني ولا في دنياي .

● وقراءةالفاتحة ركن في كل ركعة كما في الحديث : « **لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب** » وهي أم القرآن ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ بركة واستعانة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ والحمد ثناء والألف واللام لاستغراق جميع المحامد وأما الجميل الذي لا صنع له فيه مثل الجمال ونحوه فالثناء به يسمى مدحاً لا حمداً ﴿ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ الرب هو المعبود المالك المتصرف مُرَ بي جميع الخلق بالنعم ﴿ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ كلُّ مَن سوى الله عالم وهو رب الجميع ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ رحمة عامة جميع المخلوقات ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ رحمة خاصة بالمؤمنين والدليل قوله تعالى :

﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء والحساب يوم كلٍّ يجزى بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر والدليل قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ والحديث عنه صلى الله عليه وسلم : «**الكيّسُ من دانَ نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني** » ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي لا نعبد غيرك عهد بين العبد وبين ربه أن لا يعبد إلا إياه ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عهد بين العبد وبين ربه أن لا يستعين بأحد غير الله ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ معنى اهدنا دُلّنا وارشدنا وثبتنا والصراط الإسلام وقيل الرسول وقيل القرآن والكل حق والمستقيم الذي لا عوج فيه ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي طريق المنعم عليهم والدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليهود معهم علم ولم يعملوا به نسأل اللهَ أن يجنبك طريقهم ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ وهم النصاري يعبدون اللهَ على جهل وضلال نسأل الله أن يجنبك يجنبك طريقهم ودليل الضالين قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ والحديث عنه صلى الله عليه وسلم : « **لتتبعنَّ سُننَ من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقُذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه** » قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى قال : « **فمن** » . أخرجاه .

الحديث الثاني : « **افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة** قلنا : من هي يا رسول الله قال : **من كانت على مثل ما أنا عليه وأصحابي** » .

● والركوع والرفع منه والسجود على الأعضاء السبعة والاعتدال منه والجلسة بين السجدتين والدليل قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾

والحديث عنه صلى الله عليه وسلم : « **أمرت أن أسجد على سبعة أعظم** » .

● والطمأنينة في جميع الأفعال والترتيبُ بين الأركان والدليل حديث المسيء.

عن أبي هريرة قال : « بينما نحن جلوس عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ دخل رجلٌ فصلى ثم جاء فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « **ارجع فصلّ فإنك لم تُصلّ** » فعلها ثلاثاً ثم قال : والذي بعثك بالحق نبياً لا أحسن غير هذا فعلمني فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :«**إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم أقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعاً ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم ارفع حتى تطمئن جالساً ثم افعل ذلك في صلاتك كلها**» .

● والتشهد الأخير ركنٌ مفروضٌ كما في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا نقول قبل أن يفرض علينا التشهدُ : السلام على الله من عباده السلام جبريلَ ومِيكائيل وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **لا تقولوا السلامُ على الله من عباده فإن الله هو السلام ولكن قولوا التحيّاتُ لله والصلواتُ والطيباتُ . السلام عليك أيها النبي ورحمةُ الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله** » .

ومعنى (التحياتُ) جميع التعظيماتِ ملكاً لله واستحقاقاً مثل الانحناء والركوع والسجود والبقاء والدوام وجميع ما يعظم به رب العالمين فهو لله فمن صرف منه شيئاً لغير الله فهو مشرك كافرٌ و (الصلوات) معناها جميع الدعوات . وقيل الصلوات الخمس . (والطيباتُ للّهِ) : الله طيبٌ لا يقبلُ من الأقوال والأعمال إلا طيبَها . (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) تدعو للنبي صلى الله عليه وسلم بالسلامة والرحمة وبركات ورفع الدرجة والذي يُدْعى له ما يدعي مع الله (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) . تسلم على نفسك وعلى كلِّ عبد صالح في السماء والأرض والسلام دعاء والصالحون يُدعى لهم ولا يدعون مع الله (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً

عبده ورسوله) وأشهد شهادة اليقين أن لا يعبد في الأرض ولا في السماء بحق إلا الله . وشهادة أن محمداً رسول الله بأنه عبد لا يعبد ورسولُ لا يكذب بل يطاع ويتبع . شرَّفه الله بالعبودية والرسالة والدليل قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيدٌ) . الصلاة من الله ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى كما حكى البخاري في صحيحه عن أبي العالية قال : صلاة الله ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى وقيل : الرحمة . والصواب الأول . ومن الملائكة الاستغفار . ومن الآدميين الدعاء . وبارك وما بعدها سنن أقوال وأفعال .

● والواجبات ثمانية جميع التكبيرات غير تكبيرة الإحزام ، وقول سبحان ربي العظيم في الركوع ، وقول سمع الله لمن حمده للإمام والمنفرد ، وقول ربنا ولك الحمد للكل ، وقول سبحان ربي الأعلى في السجود ، وقول رب اغفر لي بين السجدتين ؛ والتشهد الأول والجلوس له فالأركان ما سقط منها سهواً أو عمداً بطلت الصلاة بتركه والواجبات ما سقط منها عمداً بطلت الصلاة بتركه . وسهواً أجبره بسجود السهو والله أعلم . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

○ كمال الشريعة الإسلامية ○

وشمولها لكل ما يحتاجه البشر

تأليف : عبد الله بن محمد بن حميد

شكر الله سعيه

○ الحمد لله وحده ○

وفي حين وقع النظر في معرض المطالعة على ما ألفه سماحة العالم العلامة الرئيس العام للأشراف الديني بالمسجد الحرام الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد عفى الله عنه ورأيت ما حوته من المصالح الدينية والدنيوية الخ نقلتها في آخر هذا الجزء لعموم الفائدة .

وهذا نصها : بسم الله الرحمن الرحيم كمال الشريعة الإسلامية وشمولها لكل ما يحتاجه البشر الحمد لله ، وأشكره على نعمه ، وأسأله المزيد من فضله وكرمه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً وبعد فهذه كلمة تبين كمال الشريعة وشمولها لكل ما يحتاجه البشر لا يخفى أن الله بعث نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم إلى البشر رحمة منه وإحساناً ليخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم وكانت العرب قبل بعثته صلى الله عليه وسلم في جاهلية جهلاً وشقاء لا بعده شقاء ، يعبدون الأصنام ، ويئدون البنات ، ويسفكون الدماء ، بأدنى سبب وبلا سبب ، في ضيق من العيش ، وفي نكد وجهد من الحياة ، يعشون عيشة الوحوش ، ومع الوحوش يتحاكمون إلى الكهان والطواغيت .

فلما جاء الله بهذا النبي الكريم أخرجهم الله به من الظلمات إلى النور ؛ أخرجهم من ظلمة الكفر والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد ، ومن ظلمة الجهل والطيش إلى نور العلم والحلم ، ومن ظلمة الجور والبغي إلى نور العدل والإحسان ، ومن ظلمة التفرق والاختلاف إلى نور الاتفاق والوئام ، ومن ظلمة الأنانية والاستبداد إلى نور التواضع والتشاور ومن ظلمة الفقر والجهد إلى نور الغني والرخاء ، بل أخرجهم من ظلمة الموت إلى نور الحياة السعيدة ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ

﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

لم أكمل الله به الدين وتمم به مكارم الأخلاق أو بعبادة الله وحده لا شريك له وأمر ببر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والإحسان إلى الفقراء ، والمعوزين حتى قال صلى الله عليه وسلم : « **إن الله كتب الإحسان على كل شيء** » وأمر بالتحاكم فيما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله . لا خير إلا دل الأمة عليه ، ولا شر إلا حذرها منه ، أخبر بما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، كما قال حذيفة رضي الله عنه : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه .

وقال أبو ذر رضي الله عنه : لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قال : لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلى إلا ذكر لنا منه علماً .

رسم لامته طريق السعادة في الدنيا والآخرة في سياسته الشرعية التى يعجز كل واحد أن يأتي بناحية من نواحيها ، فرسم لهم طريق السياسة مع الأعداء ، وبين لهم ما تعامل به الأمم الأجنبية من الحرب ، ووجوبه ، والسلم ، ووجوبه ، والمعاملات ، والصلح ، وحفظ العهود ، وأوجب عليهم الاستعداد بكل قوة يستطيعونها . قال الله تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ففي هذه الآيات دلالة واضحة على مقتضيات الحرب والاستعداد لذلك وتأهب المسلمين بالقوة لعدوهم بما يرهبهم وبيان الصلح والسلم ، إلى ذلك مما دلت عليه الآيات من آي القرآن ، كما قسمت الشريعة أيضاً السياسة إلى ثلاثة أقسام : سياسة شرعية دينية ، سياسة جائزة مباحة ،

سياسة شيطانية فرعونية إبليسية .

فالسياسة الشرعية الدينية : هي ما دل عليه الكتاب والسنة من قتل القاتل ، وقطع يد السارق ، وإقامة الحدود كحد الزنا ، والقذف ، وحد المسكر ، ودية منافع الأعضاء وغير ذلك مما لا يدخل تحت حصر .

والسياسة الجائزة المباحة وهي ما يسوس بها ولاة الأمور رعاياهم مما لا تخالف كتاباً ولا سنة .

فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا هم بغزوة ورى بغيرها وقال : « **الحرب خدعة** » إلى غير ذلك .

والسياسة الشيطانية الفرعونية الإبليسية هي كل ما خالف كتاب الله وصحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن زعم أهلها أنهم مصلحون بسياستهم فهم حقاً مفسدون قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ فالعبرة بالحقائق لا بالمسميات . وكما قال فرعون : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ وأي رشد عند فرعون القائل أنا ربكم الأعلى بل رد عليه القرآن في موضع آخر قال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ وبينت الشريعة الإسلامية السياسة الخارجية كما قدمنا في الآيات بشأن السلم والحرب والصلح والمعاهدة إلى غير ذلك فمن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ الآية . فالآية تدل على أن المسلمين مأمورون بالحذر وبالتأهب والاستعداد لعدوهم بالآلات الحربية كالطائرات والدبابات والصواريخ وغيرها مما يجد ويحدث مما يزيد المسلمين قوة وبذلك يأخذون حذرهم وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ ما يبين ذلك كما بينت أيضا السياسة الداخلية فبينت ما للإمام من الحقوق على رعيته قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **اسمع وأطع لمن ولاه الله أمرك** » الحديث وقال :

« اسمعوا وأطيعوا وإنْ تأمر عليكم عبد حبشي » .

ومن بيانها لحقوق الرعية على ولي الأمر قوله ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « **اللهم من ولي أمراً من أمور أمتي فرفق بهم فأرفق به ومن ولي أمراً من أمور أمتى فشق عليهم فاشقق عليه** » .

وأمرت الشريعة بمشاورة أهل الرأي بل جعلت الشريعة مكانة الشورى بين الصلاة والزكاة للاهتمام بها وعظم شأنها كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الإخلاد إلى الكسل والعجز والدعة والراحة وأخبرهم أن هذا سبب للذل بل أمرهم أن يكونوا أقوياء أشداء أعزاء ، لا تلين قناتهم لأحد سوى الله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً فأمرت الشريعة بالضرب في الأرض لطلب الكسب والتجارة قال الله تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ ، وأمرت بحرث الأرض للمعاش وحثت على ممارسة الزراعة ، وشجعت أهلها بما لهم من البركة والأجر والفضل العظيم . كما قال صلى الله عليه وسلم : **ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه طير أو دابة أو إنسان إلا كان له به صدقة** » وقال صلى الله عليه وسلم : « **من أحيا أرضاً ميتة فهي له** » كما جاء الأمر بالصناعة في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ ففي هذا الأمر بالصناعة مع العمل الصالح . وداود عليه السلام هو أحد أنبياء بني إسرائيل المأمور نبينا عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام بالاقتداء بهم في قوله تعالى : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾ الآيات إلى قوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ .

وبالجملة فقد رسمت أحكاماً لكل من الزراعة والصناعة والتجارة وأوجبت حفظ الحقوق فأمرت بالكتابة والإشهاد وحرمت كتمان الشهادة أشد تحريم حماية

للأموال وسلامة للصدور عن التقاطع والتباغض ، كما نهت عن الغش والخداع في المعاملات ، وحرمت الربا بأنواعه ، وبيع البعض على بيع البعض ، وعن التدليس ، وبيع الضرر ، كل هذا حفظاً للحقوق ، وحرصاً على تمام الروابط بين المسلمين ، وعلمت الشريعة كيفية الاقتصاد وبينت كيف يصرف المال ، فنهت عن التبذير وعن التقتير وأمرت بالقوام بينهما قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ وقال في وصفه لعباد الرحمن : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ .

وبينت الشريعة كيف تقام البيوتات وتؤسس العائلات فشرعت النكاح وحثت عليه ورغبت فيه وبينت ما للرجل على زوجته من الحقوق وما لها عليه . وبينت ما عسى أن يقع بينهما من خلاف في المستقبل قال تعالى : ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ كما شرعت الخلع والطلاق عند تعذر الوئام بينهما والتئام حلها . ونظمت شئون الأسرة الواحدة عموماً وبينت حقوق الوالد وما عليه وحقوق الأولاد وما عليهم وجميع الآقارب وذوي الأرحام كل بحسبه ، ولم يمر بالإنسان طور من أطوار حياته من حين رضاعه إلى إبان وفاته بل إلى ما بعد ذلك ؛ فبينت الأولى بتغسيله وتكفينه وحمله والصلاة عليه ودفنه وميراثه ووصيته وحقوقه وقضاء ما عليه من الديون وحكم أوقافه ما يصح منها وما لا يصح .

فلله ما أعظم هذه الشريعة وأجلها وأسماها وكل ما ازداد المرء معرفة بها ازداد لها احتراماً وتعظيماً وتوقيراً ، فلذلك كان الصحابة رضي الله عنهم لكمال معرفتهم بها أشد الناس تمسكاً بها وتمشياً مع تعاليمها بكل جليل ودقيق ، وإنه لمن العجب إعراض أكثر الناس في هذه الأزمنة عن تعاليم هذه الشريعة السامية الكاملة واستبدالها أو شوبها بقوانين وضعية ظاهرة التناقض واضحة الجور فاسدة المعنى ، فلذا كثيراً ما يطرأ عليها التغيير والتبديل كل يرى أنه أحسن ممن تقدمه وأدرى

بالمصالح والمفاسد ممن سبقه ثم يجري عليها تغييراً وتبديلاً بحسب رأيه ، وهكذا دواليك ما بقيت هذه النظم المستمدة من نحاتة الأفكار وزبالة الأذهان .

أما الشريعة الإسلامية فهي صالحة لكل زمان ومكان مضى عليها أربعة عشر قرناً وهي هي في كمالها ومناسبتها وحفظها لكافة أنواع الحقوق لجميع الطبقات وأهدأ للنّاس حالاً وأنعمهم بالاً ، وأقرهم عيشاً أشدهم تمسكاً بها سواء في ذلك الأفراد أو الشعوب أو الحكومات ، وهذا شيء يعرفه كل واحد إذا كان عاقلاً منصِفاً وإن لم يكن من أهلها ، بل وإن كان من المناوئين لها وقد سمعنا وقرأنا كثيراً مما يدل على ذلك فقد ذكر بعض عقلاء المستشرقين الذين يكتبون لبيان الحقيقة والواقع لا للسياسة إن نشأة أوروبا الحديثة إنما كانت رشاشاً من نور الإسلام . فاض عليها من الأندلس ، ومن صفحات الكتب التي أخذوها في حروبهم مع المسلمين في الشرق والغرب . وقال القس طيار : إن الإسلام يمتد في أفريقيا وتسير الفضائل معه حيث سار فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره والشجاعة والإقدام من نتائجه .

وقال كونتنس : يمتاز المسلمون على غيرهم برفعة في السجايا وشرف الأخلاق قد طبعته في نفوسهم ونفوس آبائهم وصايا القرآن غيرهم ، فإنهم في سقوط تام من حيث ذلك .

وقال أيضاً : إن من أهم النعوت التي يمتاز بها المسلم ، عزة في النفس فهو سواء في حالة بؤسه ونعيمه لا يرى العزة إلا لله ولرسوله وله . وهذه الصفة التي غرسها الإسلام في نفوسهم إذا توفرت معها الوسائل كانت أعظم دافع إلى التسابق إلى غايات المدنية الصحيحة ورقيات الكمال .

قال ما نوتو وزير خارجية فرنسا في وقته : إن هذا الدين الإسلامي قائم الدعائم ثابت الأركان وهو الدين الوحيد الذي أمكن اعتناق الناس إليه زمراً وأفواجاً وهو الدين الإسلامي العظيم الذي تفوق شدة الميل إليه إلى التدين به كل ميل إلى اعتناق أي دين سواه ، فلا يوجد مكان على سطح المعمورة إلا واجتاز

الإسلام حدوده فانتشر في الآفاق .

وقال بعضهم : لما رغب المسلمون عن تعاليم دينهم وجهلوا حكمه وأحكامه وعدلوا إلى القوانين الوضعية المتناقضة المستمدة من آراء الرجال نشأ فيهم فساد الأخلاق فكثر الكذب والنفاق والتحاقد والتباغض ، فتفرقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة ، وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم ، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة ، ولكن فيما أمكن لأحدهم أن يضر اخاه ، لا يقصر في إلحاق الضرر به .

وأقوالهم في هذا الموضع كثيرة جداً يعترفون فيها بعظمة الإسلام وشموله لعموم المصالح ودرء المفاسد ، وأن المسلمين لو تمسكوا بإسلامهم حقّاً لصاروا أرقى الامم ، وأسعد الناس ، ولكن ضيعوا فضاعوا ، واكتفوا منه بمجرد التسمي بأنهم مسلمون .

مناقب شهد العدو وبفضلها والفضل ما شهدت به الأعداء . ولسنا والحمد لله في حاجة إلى شهادة هؤلاء وأمثالهم بفضل الإسلام وعلو مكانته ولكن ذكرنا هذا لما قصر أهله في فهمه والعمل به وعرف منه أعداؤه ما لم يعرفه بنوه ، إذ جهلوا مصالحه وتطلعوا إلى غيره من النظم الفاسدة المتناقضة ، وأعداؤه يفضلونه ويشهدون له بالكمال ، وأنه فوق كل نظام ولا شك أنه الدين الصحيح دين العمل دين الاجتماع ، دين التوادد والتناصح والتحابب ، دين رفع ألوية العلم والقنا والحرف . لم يقتصر على أحكام العبادات والمعاملات ، بل شمل جميع منافع العباد ومصالحهم على مر السنين وتعاقب الدهور إلى أن تقوم السّاعة ولكن يا للأسف ويااللمصيبة إن أبناء هذا الدين جهلوا قدره وجهلوا حقيقته ، بل كثير منهم عادوه وأصبحوا يدسون عليه معاولهم ليهدموه وليفرقوا أهله ، ويفضلون أهل الغرب على المسلمين ظناً منهم بعقولهم الفاسدة ، وآرائهم الكاسدة أن الدين هو الذي أخرهم . وهيهات أن يكون الدين هو الذي أخرهم ولكنهم أخروا أنفسهم بالإعراض عن تعاليم دينهم وأخلدوا إلى الكسل ، وقنعوا بالجهل فأصبحوا في حيرة

من أمرهم ؛ إنهم لو عرفوا دينهم وطبقوا تعاليمه لوصلوا فوق ما وصل إليه غيرهم من التقدم الصّناعي ولكنهم تركوا دينهم واقتنعوا بالترف والنعيم وأهملوا العناية به . فوالله لو أن أهله قاموا بما يجب عليهم لحازوا شرف الدنيا والآخرة .

وإن الواجب على أهل الإسلام خصوصاً العلماء منهم وولاة الأمور أن يبثوا الدعوة له وينشروا محاسنه لنشئهم ليرغبهم فيه ويرشدوا الأمة لأحكامه وحكمه كما فعل أوائلهم الأماجد فإنهم قاموا بالدعوة فبينوا للأمم محاسنه وسماحته شارحين لهم حكمه موضحين مزاياه وبذلك امتد سلطانهم واتسعت ممالكهم وأخضعوا من سواهم لتعاليمه ، ولكن ما لبث أبناؤهم أن حرّفوا فانحرفوا وتمزقوا بعد ما اجتمعوا ، واشتبه الحق عليهم بالباطل فتفرقت بهم السبل وأصبحوا شيعاً متفرقين في آرائهم متباينين في مقاصدهم وكيف يحصل لهم الترقي ، وأنى يتسنى لهم التقدم وقد رضوا بقوانين وضعية استمدوها من أعدائهم يجرون وراءهم وينهجون نهجهم تقليداً لهم ومصادمة للشريعة الإسلامية التي هي عزهم وفخرهم وفيها راحتهم وطمأنينتهم والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ويقول جل شأنه : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ وقد تكفلت الشريعة بحلّ جميع المشاكل وتبيينها وإيضاحها قال تعالى : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ وقال تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ففي هذه الآية أن القرآن فيه البيان لكل شيء وأن فيه الاهتداء التام وأن فيه الرحمة الشاملة وأن فيه البشارة الصادقة للمتمسكين به الخاضعين لأحكامه .

قال تعالى : ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾

وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « **تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك** » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « **تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله** » إلخ فكيف يجتري من يدعي الإيمان مع هذا البيان الواضح والآيات البينات والأحاديث الصحيحة على الرضى بالتحاكم إلى الطاغوت والإعراض عن شريعة الله . والله قد نفى الإيمان عمن من لم يحكم الرسول فيما وقع بينهم من التشاجر قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ وإنه لمن أعظم الضلال أن يعتقد من يدعي الإسلام أن الشريعة لم تأت بما يكفل مصلحة الجميع وأن الناس محتاجون إلى غيرها في شيء من شئونهم ومشاكل حياتهم أليس هذا طعناً وتكذيباً لقوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ يا له من دين ما أجله وما أكمله فإن من تأمل حكم هذا الدين القويم والملة الحنيفية والشريعة المحمدية التي لا تنال العبارة كما لها ولا يدرك الوصف حسنها ولا تقترح عقول العقلاء ولو اجتمعت وكانت على أكمل عقل رجل منهم مثلها . وحسب العقول الكاملة الفاضلة إن أدركت حسنها وشهدت بفضلها وأنه ما طرق العالم شريعة أكمل ولا أجل ولا أعظم منها فهي نفسها الشاهد والمشهود له والحجة والمحتج له والدعوى والبرهان وهي من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده فما أنعم عليهم بنعمة أجل من أن هداهم لها وجعلهم من أهلها وممن ارتضاهم لها وامتن على عباده بأن هداهم لها قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ وقال معرفاً لعباده ومذكراً لهم عظيم نعمته عليهم مستدعياً

منهم شكره على أن جعلهم من أهلها ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ قال بعض السلف يا له من دين لو أن له رجالاً . والله أعلم وصلى الله على محمد .

الرئيس العام للإشراف الديني بالمسجد الحرام

عبد الله بن محمد بن حميد

قد تم بحمد الله ومعونته وحسن توفيقه الجزء الثالث من المجموعة التي تضم جملة من عقائد السلف الصالح مع تحذيرهم من البدع والنهى عنها الخ وصلى على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه .

حرر فى ١٤٠٠/٧/١٢ هـ .